أول المائة الخامسة بدعوة هشام، تسمى مؤيد الدولة.

وهلك شهيداً سنة خمسين وأربعمائة وملك بعده أخوه حسام الدولة عبد الملك بن خلف، ولم يزل أميراً عليها إلى أن ملكها المرابطون من يده عند تغلبهم على الأندلس.

ومنها بلد البونت واللج تغلب عليها عبد اللّه بن قاسم الفهري أزمان الفتنة، وتسمى نظام الدولة وهو الذي كان المعتمد عنده عندما ولاه الجماعة بقرطبة ومن عنده جاء إليها، وهلك سنة إحدى وعشرين وولي ابنه محمد يمين الدولة، وكانت بينه وبين مجاهد حروب، وملك بعده ابنه أحمد عقد الدولة، وهلك سنة أربعين.

وملك أخوه عبد اللّه جناح الدولة إلى أن خلعه المرابطون سنة خمس وثمانين.

ولنرجع إلى ذكر بقية الملوك الأكابر من الطوائف واللّه سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

أخبار ابن جهور

كان رئيس الجماعة أيام الفتنة بقرطبة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبد اللّه بن محمد بن المعمر بن يحيى بن أبي المغافر بن أبي عبيدة الكلبي، هكذا نسبه ابن بشكوال وأبو عبيدة هو الداخل إلى الأندلس، وكانت لهم وزارة الدولة العامرية بقرطبة واستبد جهور هذا سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، لما خلع الجند المعتز آخر خلفاء بني أمية، ولم يدخل في أمور الفتنة، فاستولى على المملكة ورتب الأمور، ولم يتحول عن داره إلى قصر الخلافة.

وكان علي سنن أهل الفضل يعود المرضى، ويشهد الجنائز ويؤذن عند مسجدهم بالربض الشرقي، ويصلي التراويح ولا يحتجب عن الناس فاسندوا أمرهم إليه إلى أن يوجد خليفة إلى أن خاطبهم محمد بن إسماعيل بن عباد يعرفهم أن هشاماً المؤيد عنده بإشبيلية، وأكثر في ذلك فخطب له بقرطبة بعد مراوضات.

ثم أتي به إلى قرطبة فمنعوه الدخول وأضربوا عن ذكره في الخطبة وانفرد ابن جهور بأمرهم إلى أن هلك في محرم سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ودفن بداره وولي ابنه أبو الوليد محمد بن جهور باتفاق من الكافة فجرى على سنن أبيه.

وكان قد قرأ على مكي بن أبي طالب المكي وغيره فكان مكرماً لأهله.

واستوزر ثقته إبراهيم بن يحيى فكفاه، وهلك كما هو معروف، ففوض التدبير إلى ابنه عبد الملك فأساء السيرة، وتكره إلى الناس.

وحاصره ابن ذي النون بقرطبة، فاستغاث بمحمد بن عباد فأمده بالجيش، ووصى عسكره بذلك فداخلوا أهل قرطبة وخلعوه سنة إحدى وستين وأخرجوه عن قرطبة.

واعتقل بشلطليش إلى أن هلك سنة اثنتين وسبعين.

وولى ابن عباد على قرطبة ابنه سراج الدولة، وقدمها من بلنسية ودخلها إلى أن قتل بها مسموماً، وحمل إلى طليطلة فدفن بها، وزحف المعتمد بن عباد بعد مهلكه إلى قرطبة فملكها سنة تسع وستين وقتل ابن عكاشة واستخلف ابنه المأمون الفتح بن محمد، وصار غرب الأندلس كله في ملكه إلى أن دخل المرابطون الأندلس، وغلبوا عليهم سنة أربع وثمانين وأربعمائة فقتل الفتح وحمل أباه المعتمد إلى آغمات كما ذكرناه ونذكره.

واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

أخبار ابن الأفطس صاحب بطليوس من غرب الاندلس ومصاير أمره

ملك بطليوس من غرب الأندلس عند الفتنة واهتياجها أبو محمد عبد اللّه بن مسلمة التجيبي المعروف بابن الأفطس، واستبد بها سنة إحدى وستين وأربعمائة فهلك، وولي من بعده ابنه المظفر أبو بكر، واستفحل ملكه، وكان من أعاظم ملوك الطوائف.

وكانت بينه وبين ابن ذي النون حروب مذكورة، وكذا مع ابن عباد بسبب ابن يحيى صاحب مليلة، أعانه ابن عباد عليه فاستولى بسبب ذلك على كثير من ثغوره ومعاقله.

واعتصم المظفر ببطليوس بعد هزيمتين هلك فيهما خلق كثيروذلك سنة ثلاث وأربعين.

ثم أصلح بينهما ابن جهور وهلك المظفر سنة ستين وأربعمائة، وتولى بعده ابنه المتوكل أبو حفص عمر بن محمد المعروف بساجة ولم يزل سلطاناً بها إلى أن قتله يوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة تسع وثمانين وأربعمائة.

وقتل معه أولاده، أغراه به ابن عباد فلما تمكنت الاسترابة من المتوكل خاطب الطاغية واستراح إليه مما دهمه.

وشعر به ابن عباد فكاتب يوسف بن تاشفين واستحثه لمعاجلته قبل أن يتصل بالطاغية، ويتصل بالثغر فأغذ إليه السير

ووافاه سنة فقبض عليه وعلى بنيه وقتلهم يوم الأضحى حسبما نذكر في أخبارهم.

ورثاه ابن عبدون بقصيدته المشهورة وهي:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

عدد فيها أهل النكبات ومن عثر به الزمان بما يبكي الجماد، وسنذكر قصتهم في أخبار لمتونة وفتحهم الأندلس، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

أخبار باديس بن حسون ملك غرناطة والبيرة

كان عميد صنهاجة في الفتنة البربرية زاوي بن زيري بن مناد أجاز إلى الأندلس على عهد المنصور، فلما هاجت الفتنة البربرية، وانحل نظام الخلافة، كان فحل ذلك الشول وكبش تلك الكتائب، وعمد إلى البيرة، ونزل غرناطة واتخذها داراً لملكه، ولما بايع الموالي العامريون للمرتضى المرواني وتولى كبر ذلك مجاهد العامري ومنذر بن يحيى بن هاشم التجيبي وعمد إلى غرناطة فلقيهم زاوي بن زيري في جموع صنهاجة وهزمهم سنة عشرين وأربعمائة وقتل المرتضى، وأصاب زاوي من ذخائرهم وأموالهم وعددهم ما لم يقتنه ملك.

ثم وقع في نفسه سوء آثار البربر بالأندلس أيام هذه الفتنة وحذر مغبة ذلك فارتحل إلى سلطان قومه بالقيروان، واستخلف على غرناطة ابنه فدبر القبض على ابن رصين ومشيخة غرناطة إذا رجعوا عن أبيه، وشعروا بذلك فبعثوا إلى ابن أخيه ماكس بن زيري من بعض الحصون فوصل وملك غرناطة، واستبد بها إلى أن هلك سنة تسع وعشرين وأربعمائة وولي ابنه باديس، وكانت بينه وبين ذي النون وابن عباد حروب.

واستولى على سلطانه كاتبه وكاتب أبيه إسماعيل بن نغزلة الذمي، ثم نكبه وقتله سنة تسع وخمسين، وقتل معه خلقاً من اليهود، وتوفي سنة سبع وستين وأربعمائة وولي حافده المظفر أبو محمد عبد الله بن بلكين بن باديس، وولى أخاه تميماً بمالقة بعهد جده.

وخلعهما المرابطون سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وحملا إلى أغمات ووريكة، واستقرا هنالك حسبما يذكر بعد في أخبارهم مع يوسف بن تاشفين والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني ذي النون ملوك طليطلة من الثغر الجوفي وتصاريف أمورهم ومصائر أحوالهم

جدهم إسماعيل الظافر بن عبد الرحمن بن سليمان بن ذي النون أصله من قبائل هوارة ورأس سلفه في الدولة المروانية وكانت لهم رياسة في شنترية ثم تغلب على حصن أفلنتين أزمان الفتنة سنة تسع وأربعمائة.

وكانت طليطلة ليعيش بن محمد بن يعيش، واليها منذ أول الفتنة، فلما هلك سنة سبع وعشرين استدعاه إسماعيل الظافر من حصن أفلنتين مع بعض أجناد طليطلة فمضى إليها وملكها.

وامتد ملكه إلى جنجالة من عمل مرسية ولم يزل أميراً بها إلى أن هلك سنة تسع وعشرين.

وولي ابنه المأمون أبو الحسن يحيى، واستفحل ملكه وعظم بين ملوك الطوائف سلطانه، وكانت بينه وبين الطاغية مواقف مشهورة.

وفي سنة خمس وثلاثين غزى بلنسية وغلب على صاحبها المظفر ذي السابقين من ولد المنصور بن أبي عامر.

ثم غلب على قرطبة وملكها من يد ابن عباد وقتل ابنه أبا عمر بعد أن كان ملكها، وهلك الظافر بها مسموماً سنة سبع وستين كما ذكرناه.

وولي بعده على طليطلة حافده القادر يحيى بن إسماعيل بن المأمون يحيى بن ذي النون، وكان الطاغية بن أذفونش قد استفحل أمره لما خلا الجو من مكان الدولة الخلافية، وخف ما كان على كاهله من أمر العرب، فالتهم البسائط وضايق ابن ذي النون حتى غلب على طليطلة فخرج له القادر عنها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وشرط عليه أن يظاهره على أخذ بلنسية، وعليها عثمان القاضي بن أبي بكر بن عبد العزيز من وزراء ابن أبي عامر فخلعه أهلها خوفاً من القادر أن يمكن منهم الفنش فدخلها القادر وأقام بها سنتين، وقتل سنة إحدى وثمانين على ما نذكر بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ابن أبي عامر صاحب شرق الأندلس من بني ملوك الطوائف وأخبار الموالي العامريين الذين كانوا قبله وابن صمادح قائده بالمرية وتصاريف أحوالهم ومصائرها

بويع للمنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر بن أبي عامر بشاطبة سنة إحدى عشرة وأربعمائة، أقامه الموالي العامريون عند الفتنة البربرية فاستبد بها.

ثم ثار عليه أهل شاطبة فأفلت ولحق ببلنسيه فملكها وفوض أمره للموالي.

وكان من وزرائه ابن عبد العزيز وكان خيران العامري من مواليهم، تغلب من قبل ذلك على أربولة سنة أربع، ثم ملك مرسية سنة سبع، ثم خيان ثم المرية سنة تسع، وبايعوا جميعاً للمنصور عبد العزيز.

ثم انتقض خيران على المنصور وسار من المرية إلى مرسية وأقام بها ابن عمه أبا عامر محمد بن المظفر بن المنصور بن أبي عامر، خرج إليه من قرطبة من حجر القاسم بن حمود، وخلص إلى خيران بأموال جليلة، فجمع الموالي فأخذوا ماله وطردوه.

ثم ولاه خيران وسماه المؤتمن ثم المعتصم.

ثم تنكر عليه وأخرجه من مرسية ولحق بالمرية وأغرى به الموالي فأخذوا ماله وطردوه، ولحق بغرب الأندلس إلى أن مات.

ثم هلك خيران بالمرية سنة تسع عشرة، وقام بالأمر بعده الأمير عميد الدولة أبو القاسم زهير العامري، وزحف إلى غرناطة فبرز إليه باديس بن حبوس وهزمه، وقتل بظاهرها سنة تسع وعشرين فصار ملكه للمنصور عبد العزيز صاحب بلنسية، وملكها من يده سنة سبع وخمسين.

ولما هلك المأمون بن ذي النون وولي حافده القادر ولى على بلنسية أبا بكر بن عبد العزيز بقية وزراء ابن أبي عامر، فداخله ابن هود في الانتقاض على القادر ففعل واستبد بها، وضبطها سنة ثمان وستين حين تغلب المقتدر على دانية.

ثم هلك سنة ثمان وسبعين لعشر سنين من ولايته.

وولي ابنه القاضي عثمان، فلما سلم القادر بن ذي النون طليطلة زحف إلى بلنسية ومعه الفنش كما قلناه، وخلع أهل بلنسية عثمان بن أبي بكر وأمكنوا منها القادر خوفاً من استيلاء النصراني وذلك سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

ثم ثار على القادر سنة ثلاث وثمانين القاضي جعفر بن عبد الله بن حجاب وقتله واستبد بها.

ثم تغلب النصارى عليها سنة تسع وثمانين وقتلوه.

ثم تغلب المرابطون على الأندلس وزحف ابن ذي النون قائدهم إلى بلنسية فاسترجعها من أيديهم سنة خمس وتسعين وأربعمائة.

وأما معن بن صالح قائد الوزير ابن أبي عامر فأقام بالمرية لما ولاه المنصور سنة ثمان وثمانين، وتسمى ذا الوزارتين.

ثم خلعه وولى ابنه المعتصم أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح، واستبد بها أربعاً وأربعين سنة، وثار عليه صاحب لورقة ابن شبيب، وكان أبوه معزولاً عليها، فجهز إليه المعتصم جيشاً واستمد ابن شبيب المنصور بن أبي عامر صاحب بلنسية ومرسية بالعدو، واستمد المعتصم بباديس، ونهض عمه صمادح بن باديس بن صمادح فقاتلوا حصوناً من حصون لورقة واستولوا عليها، ورجعوا ولم يزل المعتصم أميراً بالمرية إلى أن هلك سنة ثمانين.

وولي ابنه وخلعه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة أربع وثمانين، وأجاز إلى العدوة ونزل على آل حماد بالقلعة، وبها مات ولده والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن بني هود ملوك سرقسطة من الطوائف صارت إليهم من بني هاشم وما كان من أوليتهم ومصائر أمورهم

كان منذر بن مطرف بن يحيى بن عبد الرحمن بن محمد بن هاشم التجيبي صاحب الثغر الأعلى، وكان بين المنصور وعبد الرحمن منافسة على الإمارة والرياسة، وكانت دار إمارته سرقسطة، ولما بويع المهدي بن عبد الجبار وانقرض أمر العامريين، وجاءت فتنة البربر كان مع المستعين حتى قتل هشام مولاه، فامتعض لذلك وفارقه وبايع المرواني للمرتضى مع مجاهد ومن اجتمع إليه من الموالي والعامريين، وزحفوا إلى غرناطة فلقيهم زاوي بن زيري وهزمهم.

ثم ارتابوا بالمرتضى ووضعوا عليه من قتله مع خيران بالمرية، واستبد منذر هذا بسرقسطة والثغر وتلقب بالمنصور، وعقدها بين طاغية جليقة وبرشلونة وبنيه، وهلك سنة أربع عشرة،

وولي ابنه وتلقب المظفر وكان أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامي من أهل نسبهم مستبداً بمدينة تطيلة، ولاها منذ أول الفتنة، وجدهم هود هو الداخل للأندلس ونسبه الأزد إلى سالم مولى أبي حذيفة.

قال هود بن عبد الله بن موسى بن سالم: وقيل هود من ولد روح بن زنباع، فتغلب سليمان على المظفر يحيى بن المنذر وقتله سنة إحدى وثلاثين، وملك سرقسطة والثغر الأعلى، وابنه يوسف المظفر لاردة.

ثم نشأت الفتنة بينهما وانتصر المقتدر بالإفرنج والبشكنس فجاؤوا ليعاده فوقعت الفتنة بين المسلمين وبينهم ثائرة، وانصرفوا إلى يوسف صاحب لاردة فحاصرهم بسرقسطة، وذلك سنة ثلاث وأربعين.

وهلك أحمد المقتدر سنة أربع وسبعين لتسع وثلاثين سنة من ملكه، فولى بعده ابنه يوسف المؤتمن، وكان قائماً على العلوم الرياضية، وله فيها تآليف مثل الاستهلال والمناظر ومات سنة ثمان وسبعين، وهي السنة التي استولى فيها النصارى على طليطلة من يد القادر بن ذي النون.

وولي بعده المستعين وعلى يده كانت وقعة وشقة، زحف سنة تسع وثمانين في آلاف لا تحصى من المسلمين، وهلك فيها خلق نحو عشرة آلاف، ولم يزل أميراً بسرقسطة إلى أن هلك شهيداً سنة ثلاث وخمسمائة بظاهر سرقسطة في زحف الطاغية إليها.

وولي بعده ابنه عبد الملك وتلقب عماد الدولة، وأخرجه الطاغية من سرقسطة سنة اثنتي عشرة فنزل روطة من حصونها وأقام بها إلى أن هلك سنة ثلاث عشرة.

وولي ابنه أحمد وتلقب سيف الدولة والمستنصر، وبالغ النكاية في الطاغية، ثم سلم له روطة على أن يملكه بلاد الأندلس، فانتقل معه إلى طليطلة بحشمه وآلته، وهنالك هلك سنة ست وثلاثين وخمسمائة.

وكان من ممالك بني هود هؤلاء مدينة طرطوشة، وقد كان بقايا من الموالي العامريين فملكها سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة.

ثم هلك سنة خمس وأربعين وملكها بعده يعلى العامري ولم تطل مدته.

وملكها بعده شبيل إلى أن نزل عنها لعماد الدولة أحمد بن المستعين سنة ثلاث وخمسين، فلم تزل في يده وفي يد بنيه من بعده إلى أن غلب عليها العدو فيما غلب عليه من شرق الأندلس.

والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية وأخبار بنيه ومواليهم من بعدهم ومصائر أمورهم

كان فتح ميورقة سنة تسعين ومائتين على يد عصام الخولاني، وذلك أنه خرج حاجاً في سفينة اتخذها لنفسه فعصفت بهم الريح فأرسوا بجزيرة ميورقة، وطال مقامهم هنالك واختبروا من أحوالهم ما أطمعهم في فتحها، فلما رجع بعد فرضه أخبر الأمير بما رأى فيها، وكان من أهل الغناء عنده في مثلها، فبعث معه القطائع في البحر، ونفر الناس معه إلى الجهاد، فحاصرها أياماً وفتحوها حصناً حصناً إلى أن كمل فتحها.

وكتب عصام بالفتح إلى الأمير عبد الله، فكتب له بولايتها فوليها عشر سنين، وبنى فيها المساجد والفنادق والحمامات.

ولما هلك قدم أهل الجزيرة عليهم ابنه عبد الله، وكتب له الأمير بالولاية.

ثم زهد وترهب وركب إلى الشرق حاجاً وانقطع خبره، وذلك سنة خمسين وثلاثمائة.

وبعث الناصر المرواني إليها الموفق من الموالي فأنشأ الأساطيل وغزا بلاد الإفرنج، وهلك سنة تسع وخمسين أيام الحكم المستنصر، وولي بعده كوثر من مواليه فجرى على سنن الموفق في جهاده.

وهلك سنة تسع وثمانين أيام المنصور فولى عليها مقاتل من مواليه، وكان كثير الغزو والجهاد، وكان المنصور وابنه المؤيد يمدانه في جهاده، وهلك سنة ثلاث وأربعمائة أزمان الفتنة.

وكان مجاهد بن يوسف بن علي من فحول الموالي العامريين، وكان المنصور قد رباه وعلمه مع مواليه القراآت والحديث والعربية فكان مجيداً في ذلك، وخرج من قرطبة يوم قتل المهدي سنة أربعمائة، وبايع هو والموالي العامريين وكثير من جند الأندلس للمرتضى كما قدمناه، ولقيهم زاوي بفحص غرناطة فهزمهم وبدد شملهم.

ثم قتل المرتضى كما تقدم وسار مجاهد إلى طرطوشة فملكها، ثم تركها وانتقل إلى دانية واستقل بها، وملك ميورقة ومنورقة ويابسة واستبد سنة ثلاث عشرة.

ونصب العيطي كما مر فأراد الاستبداد، ومنع طاعة مجاهد ومنعه أهل ميورقة من ذلك، فبعث عنه مجاهد، وقدم على ميورقة عبد الله ابن أخيه فولي خمس عشرة سنة.

ثم هلك، وكان غزا سردانية في الأساطيل فاقتحمها، وأخرج النصارى منها وتقبضوا على ابنه أسيراً ففداه بعد حين، وولى مجاهد على ميورقة بعد ابن أخيه مولاه الأغلب سنة ثمان وعشرين، وكان بين مجاهد صاحب دانية وبين خيران صاحب مرسية وابن أبي عامر صاحب بلنسية حروب إلى أن هلك مجاهد سنة ست وثلاثين.

وولي ابنه علي وتسمى إقبال الدولة، وأصهر إلى المقتدر بن هود وأخرجه من دانية سنة ثمان وستين ونقله إلى سرقسطة، ولحق ابنه سراج الدولة بالإفرنجة، وأمدوه على شروط شرطها لهم، فتغلب على بعض حصونه.

ثم مات فيما زعموا مسموماً بحيلة من المقتدر سنة تسع.

ومات علي قريباً من وفاة المقتدر سنة أربع وسبعين. ويقال: بل فر أمام المقتدر إلى بجاية، ونزل على صاحبها يحيى بن حماد، ومات هنالك، وأما الأغلب مولى مجاهد صاحب ميورقة فكان صاحب غزو وجهاد في البحر.

ولما هلك مجاهد استأذن ابنه علياً في الزيارة فأذن له، وقدم على الجزيرة صهره ابن سليمان بن مشكيان نائباً عنه، وبعث على آل الأغلب فاستعفاه وأقام سليمان خمس سنين.

ثم مات فولى على مكانه مبشراً وتسمى ناصر الدولة، وكان أصله من شرق الأندلس أسر صغيراً وحبه العدو وأقام بدانية محبوباً يجاهد في أسرى دانية وسردانية، واصطفاه فولاه بعد مهلك سليمان فولي خمس سنين، وانقرض ملك علي وتغلب عليه المقتدر بن هود فاستبد مبشر بميورقة، والفتنة يومئذ تموج بين ملوك الطوائف، وبعث إلى دانية في تسليم أهل سيده، فبعثوا إليه بهم وأولاهم جميلاً.

ولم يزل يردد الغزو إلى أرض العدو إلى أن جمع طاغية برشلونة الجموع ونازله بميورقة عشرة أشهر.

ثم افتتحها واستباحها سنة من ولايته.

وكان بعث بالصريخ إلى علي بن يوسف صاحب المغرب من لمتونة فلم يوافهم الأسطول بالمدد إلا بعد استيلاء العدو.

فلما وصل الأسطول دفعوا العدو عنها وولى علي بن يوسف من قبله أنور بن أبي بكر اللمتوني فعسف بهم وأرادهم على بناء مدينة أخرى بعيدة من البحر فثاروا به وصفدوه، وبعثوا إلى علي بن يوسف فردهم إلى ولاية محمد بن علي بن إسحاق بن غانية المستولي صاحب غرب الأندلس، فبعث إليها أخاه محمد بن علي من قرطبة، كان والياً عليها فوصل إلى ميورقة فصفد أنور وبعث به إلى مراكش، وأقام في ولايتها عشر سنين إلى أن هلك أخوه يحيى وسلطانهم علي بن يوسف.

واستقرت ميورقة في ملك بني غانية هؤلاء وسلطانهم.

وكانت لهم في زمن علي بن يوسف بها دولة، وخرج منها علي ويحيى إلى بجاية وملكوها من الموحدين، وكانت لهم معهم حروب بإفريقية كما نذكر في أخبارهم بعد أخبار لمتونة.

وملك الإفرنج ميورقة من أيدي الموحدين آخر دولتهم.

والبقاء لله والملك يؤتيه من يشاء وهو العزيز الحكيم.

الخبر عن ثوار الأندلس آخر الدولة اللمتونية واستبداد بني مردنيش ببلنسية ومزاحمتهم لدولة بني عبد المؤمن من أولها إلى آخرها ومصائر أحوالهم وتصاريفهم

لما شغل لمتونة بالعدو، وبحرب الموحدين بعد عليهم الأندلس، وعادت إلى الفرقة بعض الشيء فثار ببلنسية سنة سبع وثلاثين وخمسمائة القاضي مروان بن عبد الله بن مروان بن حضاب، وخلعوه لثلاثة أشهر من ملكه، ونزل بالمرية.

ثم حمل إلى ابن غانية بميورقة فسجن بها، وثار بمرسية أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن ظاهر.

ثم خلع وقتل لأربعة أشهر من ولايته، وولي حافد المستعين بن هود شهرين.

ثم ولي ابن عياض وبايع أهل بلنسية بعد ابن حضاب للأمير أبي محمد عبد الله بن سعيد بن مردنيش الجذامي.

وأقام مجاهداً إلى أن استشهد في بعض أيامه مع النصارى سنة أربع وخمسمائة، فبويع لعبد الله بن عياض كان ثائراً بمرسية كما قدمناه.

وهلك سنة اثنتين وأربعين فبويع إلى ابن أخيه محمد بن أحمد بن سعيد بن مردنيش، وملك شاطبة ومدينة شقر ومرسية.

وكان إبراهيم بن همشك من قواده فعبث في أقطار الأندلس وأغار على قرطبة وتملك بها.

ثم استرجعت منه ثم غدر بغرناطة وملكها من أيدي الموحدين وحصرهم بالقصبة هو وابن مردنيش.

ثم استخلصها عبد المؤمن من أيديهم بعد حروب شديدة دارت بينهم بفحص غرناطة، لقيه فيها ابن همشك وابن مردنيش، وجيوش من أمم النصرانية استعانوا بهم في المدافعة عن غرناطة، فهزمهم عبد المؤمن وقتلهم أبرح قتل، وحاصر يوسف بلنسية فخطب للخليفة العباسي المستنجد، وكاتبه فكتب له بالعهد والولاية.

ثم بايع للموحدين سنة ست وستين.

وكان المظفر عيسى بن المنصور بن عبد العزيز الناصر بن أبي عامر عندما انصرف إلى ملك شاطبة ومرسية تغلب على بلنسية مدة، ثم هلك سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ورجعت إلى ابن مردنيش.

وكان أحمد بن عيسى تغلب على حصن مزيلة ثائراً بالمرابطين من أتباعه فغلب منذر بن أبي وزير عليه، فأجاز سنة أربعين وخمسمائة إلى عبد المؤمن، ورغبه في ملك الأندلس فبعث معه البعوث وتغلبوا على بني غانية أمراء المرابطين بالأندلس.

وكان بميورقة أيضاً منذ اضطراب أمر لمتونة محمد بن علي بن غانية المسوفي، وليها سنة عشرين وخمسمائة، واستشهد بها.

ورحل عنها سنة سبع وثلاثين إلى زيارة أخيه يحيى ببلنسية واستخلف على ميورقة عبد الله بن تيما فلما مكث ثار عليه ثوار فرجع محمد بن غانية وأصلح شأنها إلى أن هلك سنة سبع وستين.

وولي ابنه إبراهيم أبو إسحاق وتوفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

وولي بعده أخوه طلحة وبايع للموحدين سنة إحدى وثمانين، وأوفد عليهم أهل ميورقة، فبعثوا معهم علي بن الربرتير، فلما وصل إلى ميورقة ثار على طلحة بنو أخيه أبي إسحاق وهم علي ويحيى ويعفر بن الربرتير وخلعوا طلحة.

ثم بلغهم موت يوسف بن عبد المؤمن فخرجوا إلى إفريقية حسبما نذكر في أخبار دولتهم، فانقرضت دولة المرابطين بالمغرب والأندلس وأدال الله منهم بالموحدين وقتلوهم في كل وجه، واستفحل أمرهم بالأندلس واستعملوا فيها القرابة من بني عبد المؤمن وكانوا يسمونهم السادة، واقتسموا ولايتها بينهم.

وأجاز يعقوب المنصور منهم غازياً بعد أن استقر أهل العدوة كافة من زناتة، فأوقع العرب بابن أذفونش ملك الجلالقة بالأركه من نواحي بطليوس الوقعة المذكورة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وأجاز ابنه الناصر من بعده سنة تسع فمحص الله المسلمين واستشهد منهم عدة.

ثم تلاشت إمارة الموحدين من بعده وانتزى بالسادة بنواحي الأندلس في كل عمله، وضعف بمراكش فصاروا إلى الاستجاشة بالطاغية بقص، واستسلام حصون المسلمين إليه في ذلك فسمت رجالات الأندلس وأعقاب العرب من دولة الأموية، وأجمعوا إخراجهم فثاروا بهم لحين وأخرجوهم.

وتولى كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامي الثائر بالأندلس.

وقام ببلنسية زيان بن أبي الحملات مدافع بن يوسف بن سعد، من أعقاب دولة بني مردنيش وثوار آخرون.

ثم خرج علي بن هود في دولته من أعقاب دولة العرب أيضاً، وأهل نسبهم محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر، وتلقب محمد هذا بالشيخ فحاربه أهل الجبل، وكانت لكل منهما دولة أورثها بنيه.

فأما زيد بن مردنيش فكان مع عشرة من بني مردنيش رؤساء بلنسية، واستظهر الموحدون على إمارتها.

ولما وليها السيد أبو زيد بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن بعد مهلك المستنصر كما نذكر في أخبارهم، وذلك سنة عشرين وستمائة، كان زياد هذا بطانته وصاحب أمره.

ثم انتقض عليه سنة ست وعشرين عندما بويع ابن هود بمرسية وخرج إلى أبداه فخشيه السيد أبو زيد، وبعث إليه يلاطفه في الرجوع فامتنع، ولحق السيد أبو زيد بطاغية برشلونة ودخل في دين النصرانية أعاذنا الله من ذلك.

وملك زيان بلنسية واتصلت الفتنة بينه وبين ابن هود، وخالف عليه بنو عمه عزيز بن يوسف بن سعد في جزيرة شَقْر، وصاروا إلى طاعة ابن هود وزحف زيان للقائه على شريش فانهزم وتبعه ابن هود ونازله في بلنسية أياماً وامتنعت عليه فأقلع، وتكالب الطاغية على ثغور المسلمين، ونازل صاحب برشلونة أنيشة وملكها، وزحف زيان إليها بجميع من معه من المسلمين سنة أربع وثلاثين ونفر معه أهل شاطبة وجزيرة شقر فكانت عليهم الواقعة العظيمة التي استشهد فيها أبو الربيع سليمان، وأخذ الناس في الانتقال عن بلنسية، فبعث إليهم يحيى بن أبي زكريا صاحب إفريقية بالمدد من الأموال والأسلحة والطعام مع قريبه يحيى عندما نبذ دعوة بني عبد المؤمن وأوفد عليه أعيان بلنسية وهي محصورة

فرجع إلى دانية.

ثم أخذ الطاغية بلنسية سنة ست وثلاثين، وخرج زيان إلى جزيرة شقر وأقام بدعوة الأمير أبي زكريا، وبعث إليه ببيعتها مع كاتبه الحافظ أبي عبد الله محمد بن الأنباري فوصل إلى تونس، وأنشده قصيدته المشهورة على روي السين بلغ فيها من الإجادة حيث شاء، وهي معروفة وسيأتي ذكرها في دولة بني حفص بإفريقية من الموحدين.

ثم هلك ابن هود وانتقض أهل مرسية على ابنه أبي بكر الوائق، وكان واليه بها أبو بكر بن خطاب، فبعثوا إلى زيان واستدعوه فدخلها وانتهب قصرها وحملهم على البيعة للأمير أبي زكريا على ولاية شرق الأندلس كله، وذلك سنة سبع وثلاثين.

ثم انتقض عليه ابن عصام بأريولة ولحق به قرابة زيان بمدينة لقنت فلم يزل بها إلى أن أخذها منه طاغية برشلونة سنة أربع وأربعين فأجاز إلى تونس، وبها مات سنة ثمان وستين.

وأما ابن هود فسيأتي الخبر عن دولته، وأما ابن الأحمر فلم تزل الدولة في أعقابه لهذا العهد.

ونحن ذاكرون أخبارهم لأنهم من بقايا دولة العرب والله خير الوارثين.

الخبر عن ثورة ابن هود على الموحدين بالأندلس ودولته وأولية أمره وتصاريف أحواله

هو محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن أحمد بن سليمان المستعين بن محمد بن هود ثار بالصخيرات من عمل مرسية مما يلي رقوط عند فشل دولة الموحدين، واختلاف السادة الذين كانوا أمراء ببلنسية، وذلك عندما هلك المستنصر سنة عشرين.

وبايع الموحدون بمراكش لعمه المخلوع عبد الواحد بن أمير المؤمنين يوسف.

ثار العادل ابن أخيه المنصور بمرسية ودخل في طاعة صاحب حيان أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وخالفهما في ذلك السيد أبو زيد أخوه ابن محمد بن أبي حفص.

وتفاقمت الفتنة واستظهر كل على أمره بالطاغية، ونزلوا له عن كثير من الثغور وقلقت من ذلك ضمائر أهل الأندلس، فتصدر ابن هود هذا للثورة، وهو من أعقاب بني هود من ملوك الطوائف، وكان يؤمل لها وربما امتحنه الموحدون لذلك مرات، فخرج في نفر من الأجناد سنة خمس وعشرين، وجهز إليه والي مرسية يومئذ السيد أبو العباس بن أبي عمران موسى بن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن عسكراً فهزمهم.

وزحف إلى مرسية فدخلها واعتقل السيد، وخطب للمستنصر صاحب بغداد لذلك العهد من بني العباس.

وزحف إليه السيد أبو زيد بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن من شاطبة، وكان واليه بها فهزمه ابن هود ورجع إلى شاطبة.

واستجاش بالمأمون وهو يومئذ بإشبيلية بعد أخيه العادل فخرج في العساكر، ولقيه ابن هود فانهزم واتبعه إلى مرسية فحاصره مدة، وامتنعت عليه فأقلع عنه ورجع إلى إشبيلية.

ثم انتقض على السيد أبي زيد ببلنسية زيان بن أبي الحملات مدافع بن حجاج بن سعد بن مردنيش، وخرج عنه إلى أبدة وذلك سنة ست وعشرين.

وكان بنو مردنيش هؤلاء أهل عصابة وأولي بأس وقوة، فتوقع أبو زيد اختلال أمره، وبعث إليه ولاطفه في الرجوع فامتنع فخرج أبو زيد من بلنسية، ولحق بطاغية برشلونة ودخل في دين النصرانية، نعوذ بالله.

وبايعت أهل شاطبة لابن هود، ثم تابعه أهل جزيرة شقر حملهم عليها ولاتهم بنو عزيز بن يوسف عم زيان بن مردنيش، ثم بايعه أهل خبيان وأهل قرطبة، وتسمى بأمير المسلمين، وبايعه أهل إشبيلية عند رحيل المأمون عنها إلى مراكش، وولى عليهم أخاه.

ونازعه زيان بن مردنيش، وكانت بينهما ملاقاة انهزم فيها زيان سنة تسع وعشرين، وحاصره ابن هود ببلنسية.

ثم أقلع ولقي الطاغية على ماردة فانهزم ومحص الله المسلمين، وانهزم بعدها أخرى على الكوس.

ولم تزل غزواته مترددة في بلاد العدو كل سنة وحربه معهم سجالاً، والطاغية يلتقم الثغور والقواعد.

ثم استولى ابن هود على الجزيرة الخضراء وجبل الفتح فرضي المجاز على سبتة من يد السيد أبي عمران موسى لما انتقض على أخيه المأمون، ونازله بسبتة فبايع هو لابن هود وأمكنه منها، ثم ثار بها الياشتي على ما يذكر.

ثم بويع للسلطان محمد بن يوسف بن نصر سنة تسع وعشرين بأرجونة ودخلت قرطبة في طاعته، ثم قرمونة ثم انتقض أهل إشبيلية وأخرجوا سالم بن هود وبايعوا لابن مروان أحمد بن محمد الباجي وجهز عسكراً للقاء ابن الأحمر فانهزموا وأسر قائده.

ثم اتفق الباجي مع ابن الأحمر على فتنة ابن هود وصالح ابن هود الفنش على فعلتهم على ألف دينار في كل يوم.

ثم صارت قرطبة إلى ابن هود وزحف إلى الباجي وابن الأحمر فانهزم، ونزل ابن الأحمر ظاهر إشبيلية.

ثم غدر الباجي فقتله وتولى ذلك صهره وأشقيلولة، وزحف سالم بن هود إلى إشبيلية فنازلها وامتنعت عليه.

ووصل خطاب الخليفة المستنصر العباسي إلى ابن هود من بغداد سنة إحدى وثلاثين، وفد به أبو علي حسن بن علي بن حسن بن الحسين الكردي الملقب بالكمال، وجاء بالراية والخلع والعهد ولقبه المتوكل، وقدم عليه بذلك في غرناطة في يوم مشهود، وبايع له ابن الأحمر، وعندما غدر ابن الأحمر بالباجي فر من إشبيلية شعيب بن محمد إلى البلد فاعتصم بها، وتسمى المعتصم فحاصره ابن هود وأخذها من يده، ثم خرج العدو من كل جهة ونازلوا ثغور المسلمين وأحاطوا بهم، وانتهت محلاتهم على الثغور إلى سبع.

ثم حاصر الطاغية مدينة قرطبة وغلب عليها سنة ثلاث وثلاثين وبايع أهل إشبيلية للرشيد من بني عبد المؤمن، ثم زحف ابن الأحمر إلى غرناطة وملكها كما يذكر، وبويع للرشيد سنة سبع وثلاثين.

وكان عبد الله أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الملك الأموي الرميمي وزير ابن هود، وكان يدعوه ذا الوزارتين ولاه المرية من عمله، فلم يزل بها وقدم عليه المتوكل سنة خمس وثلاثين وستمائة فهلك بالحمام ودفن بمرسية.

ويقال: إنه قتله ثم استبد من بعده المؤيد، واستنزله عنها ابن الأحمر سنة ثلاث وأربعين.

ولما هلك المتوكل ولي من بعده بمرسية ابنه أبو بكر محمد بعهده إليه وتلقب بالواثق، وثار عليه عزيز بن عبد الملك بن خطاب سنة ست وثلاثين لأشهر من ولايته فاعتقله، وكان يلقب ضياء الدولة.

ثم تغلب زيان بن مردنيش على مرسية وقتل ابن خطاب لأشهر من ولايته، وأطلق الواثق بن هود من اعتقاله.

ثم ثار عليه بمدينة مرسية محمد بن هود عم المتوكل سنة ثمان وثلاثين، وأخرج منها زيان بن مردنيش، وتلقب بهاء الدولة، وهلك سنة سبع وخمسين وستمائة.

وولي ابنه الأمير أبو جعفر، ثم ثار عليه سنة اثنتين وستين أبو بكر الواثق الذي كان ابن خطاب خلعه، وهو المتوكل أمير المسلمين، وبقي بها أميراً إلى أن ضايقه الفنش والبرشلوني، فبعث إليه عبد الله بن علي بن إشقيلولة، وتسلم مرسية منه، وخطب بها لابن الأحمر.

ثم خرج منها راجعاً إلى ابن الأحمر فأوقع به البصري في طريقه، ورجع الواثق إلى مرسية ثالثة فلم يزل بها إلى أن ملكها العدو من يده سنة ثمان وستين، وعوضه منها حصناً من عملها يسمى يس إلى أن هلك، والله خير الوارثين.

الخبر عن دولة بني الأحمر ملوك الأندلس لهذا العهد ومبدأ أمورهم وتصاريف أحوالهم

أصلهم من أرجونة من حصون قرطبة ولهم فيها سلف في أبناء الجند ويعرفون ببني نصر، وينسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، وكان كبيرهم لآخر دولة الموحدين محمد بن يوسف بن نصر، ويعرف بالشيخ وأخوه إسماعيل، وكانت لهم وجاهة في ناحيتهم.

ولما فشل ريح الموحدين وضعف أمرهم وكثر الثوار بالأندلس، وأعطى حصونها للطاغية، واستقل بأمر الجماعة محمد بن يوسف بن هود الثائر بمرسية، فأقام بدعوته العباسية، وتغلب على شرق الأندلس أجمع فتصدى محمد بن يوسف هذا للثورة على ابن هود وبويع له سنة تسع وعشرين وستمائة على الدعاء للأمير أبي زكريا صاحب إفريقية، وأطاعته حيان وشريش سنة ثلاثين بعدها، وكان يعرف بالشيخ ويلقب بأبي دبوس.

واستظهر على أمره أولاً بقرابته من بني نصر وأصهاره بني إشقيلولة عبد الله وعلي، ثم بايع لابن هود سنة إحدى وثلاثين عندما وصله خطاب الخليفة من بغداد.

ثم ثار بإشبيلية أبو مروان الباجي عند خروج ابن هود عنها، ورجوعه إلى مرسية فداخله محمد بن الأحمر في الصلح على أن يزوجه ابنته فأطاعه، ودخل إشبيلية سنة اثنتين وثلاثين.

ثم فتك بابن الباجي وقتله، وتناول الفتك به علي بن

إشقيلولة.

ثم راجع أهل إشبيلية بعدها لشهر دعوة ابن هود، وأخرجوا ابن الأحمر.

ثم تغلب على غرناطة سنة خمس وثلاثين بمداخلة أهلها ثم ثار ابن أبي خالد بدعوته في لحيان ووصلته بيعتها، فقدم إليها أبا الحسن بن إشقيلولة.

ثم جاء على أثره ونزلها واستقر بها بعد مهلك ابن هود، وبايع للرشيد سنة تسع وثلاثين ثم تناول المؤيد من يد محمد بن الرميمي فخلعه أهل البلد سنة ثلاث وستين وبايعوا لابن الأحمر.

ثم ثار أبو عمرو بن الجدّ واسمه يحيى بن عبد الملك بن محمد الحافظ أبي بكر وملك إشبيلية، وبايع للأمير أبي زكريا بن حفص صاحب إفريقية سنة ثلاث وأربعين، وولي عليهم أبو زكريا أميراً، وقام بأمرهم القائد شغاف، والعدو أثناء ذلك يلتقم بلاد المسلمين وحصونهم من لدن عام عشرين أو قبله وصاحب برشلونة من ولد البطريق الذي استعمله الإفرنجة عليها لأول استرجاعهم لها من أيدي العرب فتغلب عليها، وبعد عن الفرنجة، وضعف لعهده سلطانهم.

ووصلوا وراء الدروب وعجزوا فكانوا عن برشلونة وجماعتها أعجز، فسما أهل طاغيتها منهم لذلك العهد واسمه حاقمة إلى التغلب على ثغور المسلمين واستولى على ماردة سنة ست وعشرين وستمائة.

ثم ميورقة سنة سبع وعشرين وستمائة، ثم أجاز إلى سرقسطة وشاطبة كان تملكها منذ مائة وخمسين من السنين قبلها.

ثم بلنسية سنة ست وثلاثين وستمائة بعد حصار طويل وطوى ما بين ذلك من الحصون والقرى حتى انتهى إلى المرية وحصونها، وابن أذفونش أيضاً ملك الجلالقة هو ابن الأدفونش الملقب بالحكيم وآباؤه من قبله يتقرى الفرسترة حصناً حصناً، ومدينة مدينة إلى أن طواها واستعبد ابن الأحمر هذا لأول أمره بما كان بينه وبين الثوار بالأندلس من المنازعة فوصل يده بالطاغية في سبيل الاستظهار على أمره فوصله وشد عضده، وصار ابن الأحمر في جملته وأعطاه ابن هود ثلاثين من الحصون أو نحوها في كف غربه عن ابن الأحمر، وأن يعينه على ملك قرطبة فتسلمها، ثم تغلب على قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وأعاد إليها خيرة اللّه كلمة الكفر، ثم نازل إشبيلية سنة ست وأربعين وابن الأحمر معه مظهر الامتعاض لابن الجد وحاصرها سنتين ثم دخلها صلحاً، وانتظم معها حصونها وثغورها وأخذ طليطلة من يد ابن كماشة، وغلب بعد ذلك ابن محفوظ على شلب وطليبرة سنة تسع وخمسين.

ثم ملك مرسية سنة خمس وستين ولم يزل الطاغية يقتطع ممالك الأندلس كورة كورة وثغراً ثغراً إلى أن ألجأ المسلمين إلى سيف البحر ما بين رندة من الغرب وإلبيرة من شرق الأندلس، نحو عشر مراحل من الغرب إلى الشرق وفي مقدار مرحلة أو ما دونها في العرض ما بين البحر والجوف ثم سخط بعد ذلك الشيخ ابن الأحمر وطمع في الاستيلاء على كافة الجزيرة فامتنعت عليه وتلاحق بالأندلس غزاة من زناتة الثائرين يومئذ من بني عبد الواد وتوجين ومغراوة وبني مرين، وكان أعلاهم كعباً في ذلك وأكثرهم غزي بنو مرين، فأجاز أولاً أولاد إدريس بن عبد الحق وأولاد رحو بن عبد اللّه بن عبد الحق أعياص الملك منهم سنة ستين أو نحوها، فتقبل ابن الأحمر إجازتهم ودفع بهم في نحر عدوه ورجعوا، ثم تهايلوا إليه من بعد ذلك من كل بيت من بيوت بني مرين ومعظمهم الأعياص من بني عبد الحق لما تزاحمهم مناكب السلطان في قومهم وتغص بهم الدولة فينزعون إلى الأندلس مغنين بها من بأسهم وشوكتهم في المدافعة عن المسلمين، ويخلصون من ذلك على حظ من الدولة بمكان.

ولم يزل الشأن هذا إلى أن هلك محمد بن يوسف بن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستمائة، وقام بأمره من بعده ابنه محمد وكان يعرف بالفقيه لما كان يقرأ الكتاب من بين أهل بيته، ويطالع كتب العلم.

وكان أبوه الشيخ أوصاه باستصراخ ملوك زناتة من بني مرين الداثلين بالمغرب من الموحدين وأن يوثق عهده بهم ويحكم أراضي سلطانه بمداخلتهم، فأجاز محمد الفقيه ابن الأحمر إلى يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين سنة اثنتين وسبعين وستمائة عندما تم استيلاؤه على بلاد المغرب، وتغلبه على مراكش، وافتقاده سرير ملك الموحدين بها فأجاب صريخه، وأجاز عساكر المسلمين من بني مرين وغيرهم إلى الجهاد مع ابنه منديل.

ثم جاء على أثرهم وأمكنه ابن هشام من الجزيرة الخضراء، كان ثائراً بها فتسلمها منه ونزل بها، وجعلها ركاباً لجهاده وينزل بها جيش الغزو.

ولما أجاز سنة اثنتين وسبعين كما قلناه هزم زعيم النصرانية، ثم حذره ابن الأحمر على ملكه فداخل الطاغية، ثم حذر الطاغية فراجعه وهو مع ذلك يده في نحره بشوكة الأعياص الذين نزعوا إليه من بني مرين بما شاركوا صاحب المغرب من نسب ملكه وقاسموه في يعسوبية قبيلته، فكان له بذلك مدفع عن نفسه

ومرض في طاعة قرابته من بني إشقيلولة، كان عبد اللّه منهم بمالقة وعلى بوادي آش وإبراهيم بحصن قمارش فالتاثوا عليه، وداخلوا يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين في المظاهرة عليه فكان له معهم فتنة، وأمكنوا يعقوب من الثغور التي بأيديهم مالقة ووادي آش حتى استخلصها هذا السلطان الفقيه من بعد ذلك، كما نذكره في أخبار بني مرين مع بني الأحمر.

وصار بنو إشقيلولة آخراً وقرابتهم بني الزرقاء إلى المغرب، ونزلوا على يعقوب بن عبد الحق وأكرم مثواهم وأقطعهم واستعملهم في كبير الخطط للدولة حسبما يذكر.

واستبد السلطان الفقيه ابن الأحمر بملك ما بقي من الأندلس وأورثه عقبه من غير قبيل ولا كثير عصبة، ولا استكثار من الحامية إلا من يأخذه الجلاء من فحول زناتة وأعياص الملك فينزلون بهم غزى، ولهم عليهم عزة وتغلب وسبب ذلك ما قدمناه في الكتاب الأول من إفقاد القبائل والعصائب بأرض الأندلس جملة فلا تحتاج الدولة هنالك إلى كبير عصبية، وكان للسلطان ابن الأحمر في أول أمره عصبية من قرابته بني نصر وأصهارهم بني إشقيلولة وبني المولى ومن تبعهم من الموالي والمصطنعين كانت كافية في الأمر من أوله مع معاضدة الطاغية على ابن هود وثوار الأندلس ومعاضدة ملك المغرب على الطاغية والاستظهار بالأعياص على ملك المغرب، فكان لهم بذلك كله أقدار على بلوغ أمرهم وتمهيده، وربما يفهم في مدافعة الطاغية اجتماع الخاصة والعامة في عداوته، والرهب منه بما هو عدو للدين فتستوي القلوب في مدافعته ومخافته فينزل ذلك بعض الشيء منزلة العصبية.

وكانت إجازة السلطان يعقوب بن عبد الحق إليه أربع مرات، وأجاز ابنه يوسف إليهم بعد أبيه.

ثم شغلته الفتنة مع بني يغمراسن إلى أن هلك السلطان الفقيه سنة إحدى وسبعمائة، وهو الذي أعان الطاغية على منازلة طريف وأخذها، وكان يمير عسكره مدة حصاره إياها إلى أن فتحها سنة أربع وسبعمائة لما كانت ركاباً لصاحب المغرب، متى هم بالجواز لقرب مسافة الزقاق.

فلما ملكها الطاغية صارت عيناً على من يروم الجواز من الغزاة فصَعُب أمره عليهم، وولي من بعده ابنه محمد المخلوع، واستبد عليه وزيره محمد بن محمد بن الحكم اللخمي، من مشيخة رندة ووزرائها فحجره واستولى على أمره، إلى أن ثار به أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد فقتل الوزير، واعتقل أخاه سنة ثمان وسبعمائة وكان أبوهما السلطان الفقيه استعمل على مالقة الرئيس أبا سعيد ابن عمه إسماعيل بن نصر، وطالت فيها إمارته، وهو الذي تملك سبتة وغدر بني الغرفي بها على عهد المخلوع وبدعوته كما يذكر في أخبار سبتة ودولة بني مرين.

وكان أصهر إليه في ابنته وكان له منها ابنه أبو الوليد إسماعيل، فلما تملك الجيوش نصر غرناطة واستولى على سلطانهم بها ساءت سيرته وسيرة وزيره ابن الحاج وأحقد الأعياص من بني مرين، واستظهر الرعية بالقهر والعسف.

وكان بنو إدريس بن عبد اللّه بن عبد الحق أمراء على الغزاة بمالقة، وكان كبيرهم عثمان بن أبي المعلى، فداخل أبا الوليد في الخروج على السلطان نصر، وتناول الأمر من يده لضعفه وسعفه بطانته وأقرباؤه فاعتزموا على ذلك، ولم يتم لهم إلا باعتقال أبيه أبي الجيوش فاعتقلوه، وبايعوا أبا الوليد.

وثار بمالقة سنة سبع عشرة الرئيس أبو سعيد وزحفوا إلى غرناطة فهزموا عساكر أبي الجيوش وثارت به الدهماء من أهل المدينة، وأحيط به.

وصالحهم على الخروج إلى وادي آش فلحق بها، وجدد بها ملكاً إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين، ودخل أبو الوليد إلى غرناطة فاصّل بها لنفسه وبنيه ملكاً جديداً، وسلطاناً فسيحاً.

ونازله ملك النصارى الفنش بغرناطة سنة ثمان عشرة وأبلى فيها بني أبي العلا.

ثم كان من تكييف اللّه تعالى في قتله وقتل رديفه، واستلحام جيوش النصرانية بظاهر غرناطة ما ظهرت فيه معجزة من معجزات اللّه.

وتردد إلى أرض النصرانية بنفسه، غازياً مرات مع عساكر المسلمين من زناتة والأندلس، وكانت زناتة أعظم غناء في ذلك لقرب عهدهم بالتقشف والبداوة التي ليست للناس.

وبلغ أبو الوليد من العز والشوكة إلى أن غدر به بعض قرابته من بني نصر سنة سبع وعشرين وسبعمائة، طعنه غدراً عندما انفض مجلسه بباب داره فأنفذه وحمل إلى فراشه، ولحق القادر بدار عثمان بن أبي العلى فقتله لحينه وقتل الموالي المجاهدين، فخرج عليهم ولحق باندبس فتملكها واستدعى محمد ابن الرئيس أبي سعيد في معتقله بسلوباشة، ونصبه للملك فلم يتم له مراده من ذلك.

ورجعوا آخراً للمهادنة، وقتل السلطان محمد وزيره ابن المحروق بداره غدراً سنة تسع وعشرين، واستدعاه للحديث على

لسان عمته المتغلبة عليه مع ابن المحروق، وتناوله مع علوجه طعناً بالخناجر إلى أن مات.

وقام السلطان بأعباء ملكه، ورجع عثمان بن أبي العلى إلى مكانه من يعسوبية الغزاة وزناتة، حتى إذا هلك قدم عليهم مكانه ابنه أبا ثابت، وأجاز السلطان محمد إلى المغرب صريخاً للسلطان أبي الحسن على الطاغية فوجده مشغولاً بفتنة أخيه محمد.

ومع ذلك جهز له العساكر وعقد عليها سنة ثلاث وثلاثين.

واستراب بنو أبي العلى بمداخلة السلطان أبي الحسن، فتشاوروا في أمره وغدروا به يوم رحيله عن الجبل إلى غرناطة، فتقاصفوه بالرماح، وقدموا أخاه أبا الحجاج يوسف، فقام بالأمر وشمر عن ساعده في الأخذ بثأر أخيه، فنكب بني العلى وغربهم إلى تونس، وقدم على الغزاة مكان أبي ثابت بن عثمان قرثية من بني رحو بن عبد الله بن عبد الحق، وهو يحيى بن عمر بن رحو، فقام بأمرهم وطال أمر رياسته.

واستدعى السلطان أبو الحجاج السلطان أبا الحسن صاحب المغرب فأجاز ابنه عندما تم له الفتح بتلمسان، وعقد له على عساكر جمة من زناتة والمتطوعة فغزاهم، وغنم وقفل راجعاً.

وتلاحقت به جموع النصارى وبيتوه على حدود أرضهم، فاستشهد كثير من الغزاة، وأجاز السلطان أبو الحسن سنة إحدى وأربعين بكافة أهل المغرب من زناتة ومغراوة والمرتزقة والمتطوعة فنازل طريف، وزحف إليه الطاغية فلقيه بظاهرها فانكشف المسلمون، واستشهد الكثير منهم، وهلك فيها نساء السلطان وحريمه وفسطاطه من معسكره، وكان يوم ابتلاء وتمحيص.

وتغلب الطاغية أثرها على القلعة ثغر غرناطة، ونازل الجزيرة الخضراء وأخذها صلحاً سنة ثلاث وأربعين، ولم يزل أبو الحجاج في سلطانه إلى أن هلك يوم الفطر سنة خمس وخمسين، طعنه في سجوده من صلاة العيد وغد من صفاعفة البلد كان مجتمعاً.

وتولى ابنه واستبد عليه مولاهم رضوان حاجب أبيه وعمه فقام بأمره وغلبه عليه وحجبه.

وكان إسماعيل أخوه ببعض قصور الحمراء قلعة الملك، وكانت له ذمة وصهر من محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن محمد ابن الرئيس أبي سعيد، بما كان أبوه أنكحه شقيقة إسماعيل هذا.

وكان أبو يحيى هذا يدعى بالرئيس وجده محمد هذا هو الذي قدمنا أن عثمان بن أبي العلى دعاه من مكان اعتقاله للملك فداخل محمد هذا الرئيس بعض الزعالقة من الغوغاء، وبيت حصن الحمراء، وتسوره وولج على الحاجب رضوان في داره فقتله، وأخرج صهره إسماعيل ونصبه للملك ليلة سبع وعشرين من رمضان سنة ستين وسبعمائة.

وكان السلطان محمد هذا المخلوع بروضة خارج الحمراء، فلحق بوادي آش وأجاز منها إلى العدوة، ونزل على ملك المغرب السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن فرعى له ذمته، وأحمد نزوله وارتاب شيخ الغزاة يحيى بن عمرو بالدولة ففر إلى دار الحرب ولحق منها بالمغرب ونزل على السلطان أبي سالم فأحمد نزوله، وولي مكانه على الغزاة بغرناطة من جهة إدريس بن عثمان بن أبي العلى، فقام الرئيس بأمر إسماعيل أخيه ودبر ملكه.

ثم ترددت السعايات وأنذر الرئيس بالنكبة فغدر بإسماعيل، وقتله وإخوته جميعاً سنة إحدى وستين.

وقام بملك الأندلس ونبذ إلى الطاغية عهده ومنعه ما كان سلفه يعطونه من الجزية على بلاد المسلمين، فشمر الطاغية لحربه، وجهز العساكر إليه فأوقع المسلمون بهم بوادي آش وعليهم بعض الرؤساء من قرابة السلطان فعظمت النكاية.

وأرسل ملك المغرب إلى الطاغية في شأن محمد المخلوع ورده إلى ملكه، فأركب الأساطيل وأجازه إلى الطاغية فلقيه ووعده المظاهرة على أمره، وشرط له الاستئثار بما يفتح من حصون المسلمين.

ثم نقض فيما افتتح منها ففارقه السلطان وأوى إلى الثغر المغربي في ملكة بني مرين، وأمكن من ثغور رندة، فزحف منها إلى مالقة سنة خمس وستين فافتتحها، وفر الرئيس محمد بن إسماعيل من غرناطة ولحق بالطاغية وكان معه إدريس بن عثمان شيخ الغزاة بمجسه إلى أن فر من محبسه بعد حين، كما يذكر في أخبارهم.

وزحف السلطان محمد فيمن معه وأتوه بحاجب الرئيس وقتله، واستلحم معه الرجال من الزعالقة الذين قتلوا الحاجب وتسوروا قصور الملك.

ودخل السلطان محمد غرناطة واستولى على ملكه، وقدم على الغزاة شيخهم يحيى بن عمر، واختص ابنه عثمان، ثم نكبها لسنة وحبسهما بالمطبق بالمرية، ثم غربهما بعد أعوام وقدم على الغزاة قريبهما علي بن بدر الدين بن محمد بن رحو.

ثم مات فقدم مكانه عبد الرحمن بن أبي يغلوسن وترفع على السلطان أبي علي بن محمد ملك المغرب، وتملأ هذا السلطان محمد المخلوع أريكة ملكه بالحمراء ممتنعاً بالظهور والترف والعزة على الطاغية والجلالقة، وعلى ملوك المغرب بالعدوة بما نال

دولتهم جميعاً من الهرم الذي يلحق الدول.

وأما الجلالقة فانتقضوا على ملكهم بطرة بن أذفونش سنة ثمان وستين من لدن مهلك أبيهما، ووقعت بين بطرة وبين ملك برشلونة بسبب إجارته عليه فتن وحروب حجر منها الجلالقة، وكانت سبباً لانتقاضهم على بطرة واستدعائهم لأخيه الفنش فجاء وبايعوه، وانحرفوا إليه جميعاً عن بطرة، فتحيز إلى ناحية بلاد المسلمين واستدعى هذا السلطان محمداً صاحب غرناطة لنصره من عدوه، وأغزاه ببلاد ألفنش ففتح كثيراً من معاقلها وخربها مثل حيان وأبدة وأثر وغيرها، وعاث في بسائطها ونزل قرطبة وخرب نواحيها ورجع ظافراً غانماً، ولحق ببطرة سلطان الإفرنجة الأعظم في ناحية الشمال من وراء جزيرة الأندلس، وهو صاحب جزيرة أركبلطرة وتسمى بنسرغالس، وفد عليه صريخاً وزوجه ابنته، فبعث ابنه لنصره في أمم الإفرنج.

وانهزم الفنش أمامهم، وارتجع بطرة البلاد حتى إذا رجعت عساكر الإفرنجة، رجع الفنش فارتجع البلاد ثانياً وحاصر أخاه بطرة في بعض حصون جليقة حتى أخذه وقتله واستولى على ملكهم.

واغتنم السلطان صاحب غرناطة شغلهم بهذه الفتنة فأغار عليهم، ومنع الجزية التي كانوا يأخذونها من المسلمين منذ عهد سلفه فأقاموا من لدن سنة اثنين وسبعين لا يعطونهم شيئاً واستمر على ذلك وسما إلى مطالبتهم بنسرغالس ملك الفرنجة من ورائهم الذي جاء لنصر بطرة، وأنكحه بطرة إبنته، وولدت له ولداً فزعم أبوه هذا الملك أنه أحق بالملك من الفنش وغيره على عادة العجم في تمليك الأسباط من ولد البطن.

وطالت الحرب بينهما ونزل بالجلالقة من ذلك شغل شاغل، واقتطع الكثير من ثغورهم وبلادهم، فمنعهم ابن الأحمر الجزية واعتز عليهم كما ذكرناه، والحال على ذلك لهذا العهد.

وأما ملوك المغرب فإن السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن لما استبد بملكه واستفحل أمره، وكان عبد الرحمن بن أبي أبي يغلوسن مقدماً على الغزاة بالأندلس كما قلناه، وهو قسيمه في النسب ومرادفه في الترشيح للملك، فعثر السلطان عبد العزيز على مكاتبة بينه وبين أهل دولته، فارتاب وبعث إلى ابن الأحمر في حبسه فحبسه، وحبس معه الأمير مسعود بن ماسي لكثرة خوضه في الفتنة، ومكاتبته لأهل الدولة.

فلما توفي السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وبويع ابنه محمد السعيد يافعاً وكفله وزير أبيه أبو بكر بن غازي الشائر أطلق ابن الأحمر عبد الرحمن بن أبي يغلوسن من محبسه فنقم ذلك عليه الوزير أبو بكر كافل الدولة بالمغرب، واعتزم على بعث الرؤساء من قرابة ابن الأحمر إلى الأندلس لمنازعته، ومده بالمال والجيش.

وبلغ ذلك ابن الأحمر فعاجله عنه وسار في العساكر إلى فرضة المجاز، ونازل جبل الفتح، ومعه ابن أبي يغلوسن وابن ماسي، وأركبهما السفن فنزلوا ببلاد بطرة فاضطرب المغرب، واشتد الحصار على أهل جبل الفتح، واستأمنوا لابن الأحمر وأطاعوه.

وكان بسبتة محمد بن عثمان بن الكاس صهر أبي بكر بن غازي وقريبه بعثه لضبط المراسي عندما نزل ابن الأحمر على الجبل، وبطنجة يومئذ جماعة من ولد السلطان أبي الحسن المرشحين محبوسون منذ عهد عبد العزيز، فوقعت المراسلة من السلطان ابن الأحمر ومحمد بن عثمان، ونكر عليه مبايعتهم لولد صغير لم يراهق.

وأشار ببيعة واحد من أولئك المرشحين المحبوسين بطنجة، ووعده بالمظاهرة والمدد بالمال والجيش، ووقع اختيار محمد بن عثمان على السلطان أبي العباس أحمد، فأخرجه وبايع له.

وقد كان أولئك الفتية تعاهدوا في محبسهم أن من استولى منهم على الملك أطلق الباقين منهم، فوفى لهم السلطان أبو العباس لأول بيعته، وأطلقهم من المحبس، وبعثهم إلى الأندلس، ونزلوا على السلطان ابن الأحمر فأكرمهم وجعلهم لنظره.

وبعث بالأموال والعساكر للسلطان أبي العباس ولوزيره محمد بن عثمان، وكتب إلى عبد الرحمن ابن أبي يغلوسن بموافقتهما واجتماعهما على الأمر، فساروا جميعاً ونازلوا دار الملك بفاس حتى استأمن أبو بكر بن غازي للسلطان أبي العباس، وأمكنه من البلد الجديد دار الملك فدخلها في محرم سنة ست وسبعين.

وشيع عبد الرحمن بن أبي يغلوسن إلى مراكش وأعمالها وسوغ له ملكها كما كان الوفاق بينهما من قبل.

وبعث بالسعيد بن عبد العزيز المنصوب، واتصلت الموالاة والمهاداة بينه وبين ابن الأحمر، وانتقض ما بينه وبين عبد الرحمن صاحب مراكش، ونهض مراراً، وحاصره وابن الأحمر يمده تارة ويسعى بينهما في الصلح أخرى، إلى أن نهض إليه سنة أربع وثمانين وحاصره شهراً، واقتحم عليه حصنه عنوة وقتله ورجع إلى فاس ثم نهض، إلى تلمسان، وهرب صاحبها أبو أحمد سلطان بني عبد الواد، ودخل السلطان أبو العباس تلمسان.

وكان جماعة من سماسرة الفتن قد سعوا ما بينه وبين السلطان ابن الأحمر بالفساد حتى أوغروا صدره، وحملوه على نقض دولة السلطان أبي العباس ببعض الأعياص الذين عنده، فاختار من أولئك الفتية الذين نزلوا عليه من طنجة موسى ابن السلطان أبي عنان، واستوزر له مسعود بن ماسي، وركب السفن معه إلى سبتة فبادر أهلها بطاعة موسى، وأتوه ببيعتهم، وارتحل عنهم إلى فاس وملك السلطان ابن الأحمر سبتة، وصارت في دعوته، وعمد السلطان موسى إلى دار الملك بفاس فوقف عليها يوماً، واستأمنوا له آخر النهار فدخلها سنة ست وثمانين، وأصبح جالساً على سرير ملكه.

وطار الخبر إلى السلطان أبي العباس، وقد ارتحل من تلمسان لقصد أبي حمو وبني عبد الواد بمكانهم من دار الملك فكر راجعاً، وأغذ السير إلى فاس، فلما تجاوز تازي وتوسط ما بينهما وبين فاس، افترق عنه بنو مرين وسائر عساكره، وساروا على راياتهم إلى السلطان موسى، ونهب معسكره، ورجع هو إلى تازي فتوثق منه عاملها حتى جاء يريد السلطان من فاس فتقبض عليه، وحمله إلى فاس وأزعجه السلطان موسى إلى الأندلس ونزل على ابن الأحمر كما كان هو.

واستولى السلطان موسى على المغرب واستبد عليه وزيره مسعود، وطالب ابن الأحمر بالنزول على سبتة فامتنع، ونشأت بينهما الفتنة، ودس ابن ماسي لأهل بيته بالثورة على حامية السلطان ابن الأحمر عندهم فثاروا عليهم، وامتنعوا بالقصبة حتى جاءهم المدد في أساطيل ابن الأحمر، فسكن أهل بيته واطمأنت الحال، ونزع إلى السلطان ابن الأحمر جماعة من أهل الدولة، وسألوه أن يبعث لهم ملكاً من الأعياص الذين عنده، فبعث إليهم الواثق محمد بن الأمير أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن وشيعه في الأسطول إلى سبتة، وخرج إلى غمارة وبلغ الخبر إلى مسعود بن ماسي، فخرج إليه في العسكر وحاصره بتلك الجبال.

ثم جاءه الخبر بموت سلطانه موسى ابن السلطان أبي عنان بفاس فارتحل راجعاً.

ولما وصل إلى دار الملك نصب على الكرسي صبياً من ولد السلطان أبي العباس كان تركه بفاس، وجاء السلطان أبو عنان ابن الأمير أبي الفضل، ونزل بجبل زرهون قبالة فاس، وخرج ابن ماسي في العساكر فنزل قبالته، وكان متولي أمره أحمد بن يعقوب الصبيحي، وقد غص به أصحابه فذبوا عليه وقتلوه أمام خيمة السلطان.

وامتعض السلطان لذلك ووقعت المراسلة بينه وبين ابن ماسي على أن يبايع بشرط الاستبداد عليه، واتفقا على ذلك.

ولحق السلطان بابن ماسي ورجع به إلى دار الملك فبايع له وأخذ له البيعة من الناس وكانت معه حصة من جند السلطان ابن الأحمر مع مولى من مواليه فحبسهم جميعاً وامتعض لذلك السلطان فاركب أبا العباس البحر وجاء معه بنفسه إلى سبتة فدخلها وعساكر ابن ماسي عليها يحاصرونها، فبايعوا جميعاً للسلطان أبي العباس.

ورجع ابن الأحمر إلى غرناطة، وسار السلطان أبو العباس إلى فاس واعترضه ابن ماسي في العساكر فحاصره بالصفيحة من جبل غمارة، وتحدث أهل عسكره في اللحاق بالسلطان أبي العباس ففزعوا إليه، وهرب ابن ماسي وحاصره السلطان شهراً حتى نزلوا على حكمه فقطع ابن ماسي بعد أن قتله ومثل به، وقتل سلطانه، واستلحم سائر بني ماسي بالتنكيل والقتل والعذاب.

واستولى على المغرب واستبد بملكه وأفرج السلطان ابن الأحمر على سبتة وأعادها إليه. واتصلت الموالاة بينهما.

وأقام ابن الأحمر في اعتزازه ولم تطرقه نكبة ولا حادثة سائر أيامه إلا ما بلغنا أنه نمي له عن ابنه ولي عهده أبي الحجاج يوسف أنه يروم التوثب به، وكان على سفر في بعض نواحي الأندلس فقبض على ولده لحينه، ورجع إلى غرناطة، ثم استكشف حاله فظهرت براءته فاطلقه وأعاده إلى أحسن أحواله، وإلا ما بلغنا أيضا أنه لما سار من غرناطة إلى جبل الفتح شارياً لأحوال السلطان أبي العباس وهو بالصفيحة من جبال غمارة، وابن ماسي، يحاصره، فنمي إليه أن بعض حاشيته من أولاد الوزراء وهو ابن مسعود البلنسي، ابن الوزير أبي القاسم بن حكيم وقد اتفقوا على اغتياله، وأن ابن ماسي دس إليهم بذلك ونصبت له على ذلك العلامات التي عرفتها فقبض عليهم لحينه، ولم يمهلهم وقتلهم وجميع من داخلهم في ذلك، ورجع إلى غرناطة وأقام ممتنعاً بملكه إلى أن هلك سنة ثلاث وتسعين، فولي مكانه ابنه أبو الحجاج وبايعه الناس، وقام بأمره خالد مولى أبيه وتقبض على إخوته سعد ومحمد ونصر فهلكوا في محبسهم، ولم يوقف لهم على خبر.

ثم سعى عنده في خالد القائم بدولته أنه أعد السم لقتله، وأن يحيى بن الصائغ اليهودي طبيب دارهم داخله في ذلك ففتك بخالد، وقتل بين يديه صبراً بالسيوف لسنة أو نحوها من ملكه، وحبس الطبيب فذبح في محبسه.

ثم هلك سنة أربع وتسعين لستين أو نحوها من ملكه.

وبويع ابنه محمد وقام بأمره محمد الخصاصي القائد من صنائع أبيه، والحال على ذلك لهذا العهد واللّه غالب على أمره.

وقد انقضى ذكر الدولة الأموية المنازعين لبني العباس ومن تبعهم من الملوك بالأندلس، فلنذكر الآن شيئاً من أخبار ملوك النصرانية الذين يجاورون المسلمين بجزيرة الأندلس من سائر نواحيهم، ونلم بطرف من أنسابهم ودولهم.

الخبر عن ملوك بني أذفونش من الجلالقة ملوك الأندلس بعد الغوط ولعهد المسلمين وأخبار من جاورهم من الفرنجة والبشكنس والبرتغال والإلمام ببعض أخبارهم

والملوك لهذا العهد من النصرانية أربعة في أربعة من العمالات محيطة بعمالة المسلمين، قد ظهر إعجاز الملة في مقامهم معهم وراء البحر بعدما استرجعوا من أيديهم ما نظمه الفتح الإسلامي أول الأمر.

وأعظم هؤلاء الملوك الأربعة: قشتالة وعمالاته عظيمة متسعة مشتملة على أعمال جليقة كلها، مثل قشتالة وغليسية.

والقرنتيرة وهي بسيط قرطبة وإشبيلية وطليطلة وجيان، آخذة في جوف الجزيرة من المغرب إلى المشرق.

ويليه من جانب الغرب ملك البرتغال وعمالته صغيرة وهي أشبونة، ولا أدري نسبه فيمن هو من الأمم.

ويغلب على الظن أنه من أعقاب القوامس الذين تغلبوا على عمالات بني أذفونش في العصور الماضية كما نذكر بعد، ولعله من أسباطهم وأولي نسبهم واللّه أعلم.

ويلي ملك قشتالة هذا من جهة الشرق ملك نبرة، وهو ملك البشكنس وعمالته صغيرة فاصلة بين عمالات قشتالة وعمالة ملك برشلونة، وقاعدة ملك نبرة وهي مدينة بنبلونة، وملك برشلونة وما وراءها.

ونحن الآن نذكر أخبار هذه الأمم من عهد الفتح بما يظهر لك منه تفصيل أخبارهم:

وذلك أن النصرانية لما تغلب عليهم المسلمون عند الفتح سنة تسعين من الهجرة، وقتلوا لزريق ملك الغوط وانساحوا في نواحي جزيرة الأندلس، وأجفلت أمم النصرانية كلها أمامهم إلى سيف البحر من جانب الجوف، وتجاوزوا الدروب وراء قشتالة، واجتمعوا بجليقة وملكوا عليهم ثلاثة: ابن ناقله فأقام ملكاً تسع عشرة سنة، وهلك سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وولي ابنه قافلة سنتين، ثم هلك فولوا عليهم بعدهما أذفونش بن بطرة، وهو الذي اتصل ملكه في عقبه لهذا العهد، ونسبهم في الجلالقة من العجم كما تقدم.

ويزعم ابن حيان أنهم من أعقاب الغوط، وعندي أن ذلك ليس بصحيح فإن أمة الغوط قد دثرت وغبرت وهلكت، وقل أن يرجع أمر بعد إدباره وإنما هو ملك مستجد في أمة أخرى واللّه أعلم.

فجمعهم أذفونش بن بطرة على حماية ما بقي من أرضهم بعد أن ملك المسلمون عامتها، وانتهوا إلى جليقة وأقصروا عن الفتح بعدها حتى فشلت الدولة الإسلامية بالأندلس، وارتجع النصارى الكثير مما غلبوا عليه.

وكان مهلك أذفونش بن بطرة سنة اثنتين وأربعين ومائة لثمان عشرة سنة من ملكه، وولي بعده ابنه فرويلة إحدى عشرة سنة قوي فيها سلطانه، وقارنه فيها شغل عبد الرحمن الداخل بتمهيد أمره فاسترجع مدينة بلك، وبرتغال وسمورة، وسلمنقة، وشقرنية، وقشتالة بعد أن كانت انتظمت للمسلمين في الفتح وهلك سنة ثمان وخمسين، وولي ابنه شيلون عشرة سنين.

وهلك سنة ثمان وستين، فولوا مكانه أذفونش منهم، ووثب عليه سمول ماط فقتله وملك مكانه سبع سنين، وعلى عقب ذلك استفحل ملك عبد الرحمن بالأندلس، وأغزى جيوشه أرض جليقة ففتح وغنم وأسر.

ثم ولي منهم أذفونش آخر سنة اثنتين وخمسين، وهلك سنة ثمان وستين فولوا مكانه أذفونش منهم، ووثب أحد ملوكهم المستبدين بأمرهم.

قال ابن حيان: كانت ولاية رذمير هذا عند ترهب أخيه أذفونش الملك قبله، وذلك سنة تسع عشرة وثلاثمائة على عهد الناصر، وتهيأ للناصر الظهور عليه إلى أن كان التمحيص على المسلمين في غزوة الخندق، وذلك سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، وكانت الواقعة بالخندق وقريباً من مدينة شنت ماكس كما ذكر في أخباره.

ثم هلك رذمير سنة تسع وثلاثين، وولي أخوه شانجة وكان تياهاً معجباً بطالاً فانتقض سلطانه، ووهن ملك قومه، وانتزى عليه قوامس دولته فلم يتم لبني أذفونش بعدها ملك مستبد في

الجلالقة إلا من بعد أزمان الطوائف وملوكهم كما ذكرناه.

وكان اضطراب ملكهم كما نقل ابن حيان على يد فردلند بن عبد شلب قومس ألبة والقلاع، فكان أعظم القوامس، وهم ولاة الأعمال من قبل الملك الأعظم فانتقض على شانجة ألبة وظاهرهم ملك البشكنس على شانجة، وورد شانجة على الناصر بقرطبة صريخاً فأمده، واستولى بذلك الإمداد على سمورة فملكها، وأنزل المسلمين بها واتصلت الحرب بين شانجة وبين فردلند إلى أن أسر فردلند في بعض أيام حروبهم، وحصل في أسر ملك البشكنس على أن ينفذ إليه أسيره فردلند بن عبد شلب قومس ألبة والقلاع فأبى من ذلك، وأطلقه.

ووفد على المنتصر أردون بن أذفونش المقارع لشانجة صريخاً سنة إحدى وخمسين فأجابه، وأنفذ غالباً مولاه في مدده.

ثم هلك شانجة ملك بني أذفونش ببطليوس، وقام بأمرهم بعده ابنه رذمير، وهلك أيضاً فردلند بن عبد شلب قومس ألبة، وولي بعده ابنه غرسية، ولقي رذمير المسلمين بالثغر في بعض صوائفهم وعظمت نكايته بعد مهلك الحكم المستنصر إلى أن قيض الله لهم المنصور بن أبي عامر حاجب ابنه هشام، فأثخن في عمل رذمير، وغزاه مراراً وحاصره في سمورة.

ثم في ليون بعد أن زحف إلى غرسية بن فردلند صاحب ألبة، وظاهر معه ملك البشكنس فغلبهما.

ثم ظاهروا مع رذمير وزحفوا جميعاً للقائه بشنت ماكس فهزمهم، واقتحمها عليهم وخربها.

وتشاءم الجلالقة برذمير وخرج عليهم عمه بزمند بن أردون، وافترق أمرهم ثم رجع رذمير إلى طاعة المنصور سنة أربع وسبعين.

وهلك على أثرها فأطاعت أمه، واتفقت الجلالقة على بزمند بن أردون، وعقد له المنصور على سمورة والعيون وما اتصل بهما من أعمال غليسية إلى البحر الأخضر واشترط عليه فقبل.

ثم امتعض بزمند لما نزل بالجلالقة عيث المنصور سنة ثمان وسبعين فافتتح حيون وحاصره في سمورة ففر عنها وأسلمها أهلها إلى المنصور فاستباحها ولم يبق لملك الجلالقة إلا حصون يسيرة بالجبل الحاجز بين بلدهم وبين البحر الأخضر.

ثم اختلف حال بزمند في الطاعة والانتقاض والمنصور يردد إليه الغزو حتى أذعن وأخفر ذمته الخارج على المنصور فأسلمه إليه سنة خمس وثمانين، وضرب عليه الجزية وأوطن المسلمين مدينة سمورة سنة تسع وثمانين، وولي عليها أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي.

ثم سار إلى غرسية بن فردلند صاحب ألبة، وكان أعان المخالفين على المنصور وكان فيمن أعان عليه حين خرج عليه فنازل المنصور مدينة أشبونة، قاعدة غليسية فملكها وخربها.

وهلك غرسية هذا فولي ابنه شانجة، وضرب المنصور عليهم الجزية وصار أهل جليقة جميعاً في طاعته، وكانوا كالعمال له إلا بزمند بن أردون ومسد بن عبد شلب قومس غليسية فإنهما كانا أملك لأمرهما.

على أن مسداً بعث ابنته للمنصور سنة ثلاث وثمانين وصيرها جارية له فأعتقها وتزوجها.

ثم انتقض بزمند وغزاه المنصور فبلغ شنت ياقب موضع حج النصرانية ومدفن يعقوب الحواري من أقصى غليسية، وأصابها خالية فهدمها ونقل أبوابها إلى قرطبة فجعلها في سمت الزيادة التي أضافها إلى المسجد الأعظم.

ثم تطارح بزمند بن أردون في السلم وأنفذ ابنه يلانة مع معن بن عبد العزيز صاحب جليقة فوصل به إلى قرطبة وعقد له السلم وانصرف إلى أبيه.

وألح المنصور على أرغومس من القوامس وكانوا في طرف جليقة بين سمورة وقشتالة، وقاعدتهم شنت برية فافتتحها سنة خمس وثمانين.

ثم هلك بزمند بن أردون ملك بني أذفونش وولي ابنه أذفونش، وهو صاحب بسيط غرسية واحتكما إلى عبد الملك بن المنصور، فخرج أصبغ بن سلمة قاضي النصارى للفصل بينهما، فقضى به لمسد بن عبد شلب.

فلم يزل أذفونش بزمند في كفالته إلى أن قتل غيلة سنة ثمان، فاستبد أذفونش بأمره وطلب القوامس المقتدرين على أبيه وعلى من سلف من قومه برسوم الملك فحاز ذلك منهم لنفسه وبعث على نواحيهم من عنده، وأذعنوا له وسقط ذكرهم في وقته مثل بني أرغومس وبني فردلند الذين قدمنا ذكرهم، وقد كان قيامهم أيام شانجة بن رذمير من بني أذفونش كما قدمناه.

جمعهم أذفونش للقاء عبد الملك المظفر بن المنصور فظاهرهم ملك البشكنس ولقيهم بظاهر فلونية فهزمهم وافتتح الحصن صلحاً.

ثم انقرض أمر المنصور وبنيه وجاءت الفتنة البربرية على

رأس المائة الرابعة فانتهز الفرصة في المسلمين صاحب ألبة، وهو شانجة بن غرسية وصار يظاهر الفرقة الخارجة على الأخرى إلى أن أدرك بعض الأمل، وقتل ملك البشكنس سنة ست وأربعمائة وتغلب النصارى على ما كان عليه بقشتالة وجليقة، ولم يزل أذفونش ملكاً على جليقة وأعمالها، واتصل الملك في عقبه إلى أن كان شأن الطوائف.

وتغلب المرابطون ملوك المغرب من لمتونة على ملوك الطوائف، واستولوا على الأندلس وانقرض منها ملك العرب أجمع.

وفي تواريخ لمتونة وأخبارهم أن ملك قشتالة الذي ضرب الجزية على ملوك الطوائف سنة خمسين وأربعمائة هو البيطبين، ويظهر أنه كان متغلباً على شانجة بن أبرك الملك يومئذ من بني أذفونش، وهو مذكور في أخبارهم، وأنه لما هلك قام بأمره بنوه فردلند وغرسية ورذمير، وولى أمرهم فردلند واحتوى على شنت برية وعلى كثير من عمل ابن الأفطس.

ثم هلك وخلف شانجة وغرسية والفنش فتنازعوا ثم خلص الملك لألفنش وعلى عهده مات الظاهر إسماعيل بن ذي النون سنة سبع وستين وأربعمائة، وهو المستولي على طليطلة سنة ثمان وسبعين وهو يومئذ اعتزاز النصرانية بجزيرة الأندلس، وكان من بطارقته وقواميس دولته البرهانس فكان يلقب الأنبنذور، ومعناه ملك الملوك، وهو الذي لقي يوسف بن تاشفين بالزلاقة، وكانت الدائرة عليه، وذلك سنة إحدى وثمانين.

وحاصر ابن هود في سرقسطة، وكان ابن عمه رذمير منازعاً له فزحف إلى طليطلة وحاصرها فامتنعت عليه، وحاصر القسريلية وغرسية المرية والبرهانس مرسية وقسطون شاطبة وسرقسطة.

ثم استولى على بلنسية سنة تسع وثمانين، وارتجعها المرابطون من يده بعد أن غلبوا ملوك الطوائف على أمرهم.

ثم مات الفنش سنة إحدى وخمسمائة، وقام بأمر الجلالقة زوجته، وتزوجت رذمير ثم فارقته وتزوجت بعده قمطاً من أقماطها، وجاءت منه بولد كانوا يسمونه السليطين، وأوقع ابن رذمير بابن هود سنة ثلاث وخمسمائة الواقعة المشهورة التي استشهد فيها.

وملك ابن رذمير سرقسطة، وفر عماد الدولة وابنه إلى روطة فأقام إلى أن استنزله السليطين، ونقله إلى قشتالة.

ثم كانت بين رذمير وأهل قشتالة حرب هلك فيها البرهانس سنة سبع وخمسمائة وذلك لآخر أيام المرابطون بلمتونة.

ثم انقرض أمرهم على يد الموحدين وكان أمر النصارى لعهد المنصور يعقوب ابن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن، كان دائراً بين ثلاثة من ملوكهم الفنش والبيبوح وابن الرند وكبيرهم الفنش وهو أميرهم يوم الأرك الذي كان للمنصور عليهم سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، والبيبوح صاحب ليون هو الذي مكر بالناصر عام العقاب فداخله وقدم عليه وأظهر له التنصيح فبذل له أموالاً، ثم غدر به وكر عليه الهزيمة يوم العقاب، ثم هلك الناصر وولي المستنصر وفشل ريح بني عبد المؤمن واستولى الفنش على جميع ما افتتحه المسلمون من معاقل الأندلس وارتجعها.

ثم هلك الفنش وولي ابنه هراندة وكان أحول، وكان يلقب بذلك، وهو الذي ارتجع قرطبة وإشبيلية من أيدي بني هود، وعلى عهده زحف ملك أرغون فارتجع شرق الأندلس كله شاطبة ودانية وبلنسية وسرقسطة، وسائر الثغور والقواعد الشرقية، وانحاز المسلمون إلى سيف البحر وملكوا عليهم ابن الأحمر بعد ولاية ابن هود.

ثم هلك هراندة وولي ابنه ثم هلك ابنه وولي ابنه هراندة، وأجاز بنو مرين إلى الأندلس صريخاً لابن الأحمر وسلطانهم يومئذ يعقوب بن عبد الحق، فلقيته جموع النصرانية بوادلك وعليهم ذنبة من أقباط بني أذفونش وزعمائهم فهزمهم يعقوب بن عبد الحق، وبقيت فتن متصلة، ولم يلقه يعقوب، وإنما كان يغزو بلادهم ويكثر فيها العبث إلى أن ألقوه بالسلم، وخالف على هراندة ملك قشتالة هذا ابنه شانجة فوفد هراندة على يعقوب بن عبد الحق صريخاً، وقبل يده فقبل وفادته وأمده بالمال والجيش، ورهن في المال التاج المعروف من ذخائر سلفهم فلم يزل بدار بني عبد الحق من بني مرين لهذا العهد.

ثم هلك هراندة سنة ثلاث وثمانين واستقل ابنه شانجة بالملك ووفد على يوسف بن يعقوب بالجزيرة الخضراء بعد مهلك أبيه يعقوب، وعقد معه السلم.

ثم انتقض وحاصر طريف وملكها وهلك سنة ثلاث وتسعين فولي ابنه هراندة.

ثم هلك سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، فولي ابنه بطرة صغيراً، وكفله عمه جران وكان نزلهما جميعاً على غرناطة عند زحفهما إليها سنة ثمان عشرة وسبعمائة، فولي ابنه الهنشة بن بطرة صغيراً، وكفله زعماء دولتهم.

ثم استبد بأمره وزحف إلى السلطان أبي الحسن، وهو

محاصر لطريف سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فهلك في الطاعون الجارف، وملك ابنه بطرة وقرابته القمط برشلونة فأجاره ملكها، وزحف إليه بطرة مراراً وتغلب على كثير من أعماله، وحاصر بلنسية مراراً.

ثم أتيح الغلب للقمط سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، فاستولى على بلاد قشتالة وزحفت إليه أمم النصرانية لما كانوا سئموا من عنف بطرة وسوء ملكته، ولحق بطرة بأمم الفرنجة الذين وراء قشتالة في الجوف بجهات الليمانية وفرطانية إلى سيف البحر الأخضر، وجزيرة قدوح شنت مزين ملكهم الأعظم، وهو البلنس غالس وجاء معه مدداً بأمم لا تحصى حتى ملك قشتالة والقرنتيرة ورجعوا عنه إلى بلادهم بعد أن أصابهم وباء هلك الكثير منهم.

ثم اتصلت الحرب بين بطرة وأخيه القمط إلى أن غلبه القمط، واعتصم منه بطرة ببعض الحصون ونازله القمط حتى إذا أشرف على أخذه، بعث بطرة إلى بعض الزعماء سراً لنيل النزول في جواره فأجابه، ووشى به لأخيه القمط فكبسه في بيت ذلك الزعيم وقتله سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة.

واستولى القمط على ملك بني أذفونش أجمع واستنزل ابن أخيه بطرة من قرمونة.

وقد كان اعتصم بها بعد مهلك أبيه مع وزيره مرتين لبس هو واستقام له ملك قشتالة ونازعه البلنس غالس ملك الإفرنجة بالابن الذي هو من بنت بطرة على عادة العجم في تمليك ابن البنت محتجاً بأن القمط لم يكن لرشدة، واتصلت الحرب بينهما وشغله، ذلك عن المسلمين فامتنعوا من الجزية التي كانت عليهم لمن قبله.

وهلك هذا القمط سنة إحدى وثمانين وسبعمائة، فملك ابنه شانجة وفر ابنه الآخر غرمس إلى غرناطة، ثم رجع إلى نواحي قشتالة والأمر على ذلك لهذا العهد، وفتنتهم مع الفنش ملك الفرنج موصولة وعاديتهم لذلك عن المسلمين مرفوعة، والله من ورائهم محيط.

وأما ملك البرتغال بجهة أشبونة غرب الأندلس ومملكته صغيرة، وهي من أعمال جليقية، وصاحبها لهذا العهد متميز بسمته، وملكه مشارك لابن أذفونش في نسبه ولا أدري كيف يتصل نسبه معهم.

وأما ملك برشلونة بجهة شرق الأندلس فعمالتهم واسعة، ومملكتهم كبيرة تشتمل على برشلونة بجهة وارغون وشاطبة وسرقسطة وبلنسية وجزيرة دانية وميورقة وبنورقة، ونسبهم في الفرنج، وسياق الخبر عن ملكهم ما نقل ابن حيان أن الغوط الذين كانوا بالأندلس كانوا قديماً في ملك الفرنج، ثم اعتزموا عليهم وامتنعوا ونبذوا إليهم عهدهم.

وكانت برشلونة من ممالك الفرنج وعمالاتهم، فلما جاء الله بالإسلام وكان الفتح، قعد الفرنج عن نصر الغوط لتلك العداوة، فلما انقضى أمر الغوط زحف المسلمون إلى الفرنج فأزعجوهم عن برشلونة وملكوها.

ثم تجاوزوا الدروب من ورائها إلى البسائط بالبر الكبير فملكوا من قواعدها جزيرة أربونة وما إليها من تلك البسائط.

ثم كانت فترة عند انقراض الدولة الأموية بالمشرق وبداية الدولة العباسية افتتن فيها العرب بالأندلس، وانتهز الفرنج فرصتهم فارتجعوا بلادهم إلى برشلونة فملكوها لهذا العهد مائتين من الهجرة، وولوا عليهم من قبلهم، وصار أمرها راجعاً إلى ملك رومة من الفرنجة، وهو قارله الأكبر، وكان من الجبابرة.

ثم ركبهم من الخلاف والمنافسة في أوقات ضعفهم واختلاف إلى ملوكهم كالذي ركبه المسلمون من ضعفت يده من الملوك، فاقتطع الأمراء نواحيهم بكل جهة، فكان ملوك برشلونة هؤلاء ممن اقتطع عمله، وكان ملوك بني أمية لأول دولتهم يتراضون بمهادنة هؤلاء الملوك أهل برشلونة حذراً من مدد صاحب رومة، ثم صاحب القسطنطينية من ورائه.

فلما كانت دولة المنصور بن أبي عامر بين إقطاع برشلونة عن ملك الفرنج، شمر المنصور لغزوهم واستباح بلادهم وأثخن في أعمالهم، وافتتح برشلونة وخربها، وأنزل بهم النقمات وملكهم لعهده بردويل بن سير وكانت حالة الظهور عليه كحاله مع سائر الملوك النصارى.

ولما هلك بردويل ترك من الولد فلبة وريند وأومنقود.

ثم انتقض أومنقود على عبد الملك بن المنصور فغزاه وأخذه في بعض ثغوره صلحاً.

ثم كانت الفتنة البربرية وحضرها أومنقود فهلك في الوقعة مع البربر سنة أربعمائة، وانفرد بيمند بملك برشلونة إلى أن هلك بعد عشر وأربعمائة، وملك ابنه بلتنفير وكفلته أمه وحاربت بحيى بن منذر من ملوك الطوائف وهي التي تغلبت على ثغر طرشوشة، واتصل الملك في عقب بيمند.

وكان الملك منهم لآخر دولة الموحدين جامعة بن بطرة بن أذفونش بن ريند، وهو الذي ارتجع بلنسية وملكهم بهذا العهد

اسمه بطرة، ولم يبلغني كيف اتصال نسبه بقومه.

وملك بعد العشرين من هذه المائة وهو حي لهذا العهد، وابنه غالب عليه لكبر سنه.

والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

أخبار القائمين بالدولة العباسية من العرب المستبدين بالنواحي ونبدأ منهم ببني الأغلب ولاة إفريقية وأولية أمرهم ومصائر أحوالهم

قد ذكرنا في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه شأن فتح إفريقية على يد عبد الله ابن أبي سرح، وكيف زحف إليها في عشرين ألفاً من الصحابة وكبار العرب، ففض جموع النصرانية الذين كانوا بها من الفرنجة والروم والبربر، وهدم سبيطلة قاعدة ملكهم وخربها، واستبيحت أموالهم وسبيت نساؤهم وبناتهم، وافترق أمرهم وساخت خيول العرب في جهات إفريقية، وأثخنوا بها في أهل الكفر قتلاً وأسراً حتى لقد طلب أهل إفريقية من ابن أبي سرح أن يرحل عنهم بالعرب إلى بلادهم، ويعطوه ثلاثمائة قنطار من الذهب ففعل وقفل إلى مصر سنة سبع وعشرين.

معاوية بن خديج

ثم أغزى معاوية بن أبي سفيان معاوية بن خديج السكوني، إفريقية سنة أربع وثلاثين، وكان عاملاً على مصر فغزاها ونازل جلولاء، وقاتل مدد الروم الذي جاءها، من قسطنطينية لقيهم بقصر الأحر فغلبهم، وأقلعوا إلى بلادهم، وافتتح جلولاء وغنم وأثخن وقفل.

عقبة بن نافع

ثم ولي معاوية سنة خمس وأربعين عقبة بن نافع بن عبد الله بن قيس الفهري على إفريقية واقتطعها عن معاوية بن خديج، فبنى القيروان وقاتل البربر وتوغل في أرضهم.

أبو المهاجر

ثم استعمل معاوية على مصر وإفريقية مسلمة بن مخلد، فعزل عقبة عن إفريقية، وولى مولاه أبا المهاجر ديناراً سنة خمس وخمسين فغزا المغرب، وبلغ إلى تلمسان، وخرب قيروان عقبة وأساء عزله، وأسلم على يديه كسيلة الأوربي بعد حرب ظفر به فيها.

عقبة بن نافع ثانياً

ولما استقل يزيد بن معاوية بالخلافة، رجع عقبة بن نافع إلى إفريقية سنة اثنتين وستين فدخل إفريقية، وقد نشأت الردة في البرابرة فزحف إليهم، وجعل مقدمته زهير بن قيس البلوي وفر منه الروم والفرنجة فقاتلهم، وفتح حصونهم مثل ليس وباغاية، وفتح أذنة قاعدة الزاب بعد أن قاتله ملوكها من البربر فهزمهم، وأصاب من غنائمهم وحبس أبا المهاجر فلم يزل في اعتقاله.

ثم رحل إلى طنجة فأطاعه بلبان ملك غمارة، وصاحب طنجة وهاداه وأتحفه، ودله على بلاد البربر وراءه بالمغرب، مثل وليلى عند زرهون وبلاد المصامدة وبلاد السوس، وكانوا على دين المجوسية، ولم يدينوا بالنصرانية، فسار عقبة وفتح وغنم وسبى وأثخن فيهم وانتهى إلى السوس.

وقاتل مسوفة من أهل اللثام وراء السوس، ووقف على البحر المحيط وقفل راجعاً، وأذن لجيوشه في اللحاق بالقيروان.

وكان كسيلة ملك أروبة والبرانس من البربر قد اضطغن عليه بما كان يعامله به من الاحتصار، يقال: إنه كان يحاصره في كل يوم ويأمره بسلخ الغنم إذا ذبحت لمطبخه فانتهز فيه الفرصة، وأرسل البربر فاعترضوا له في تهودا وقتلوه في ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين، واستشهدوا كلهم وأسر في تلك الوقعة محمد بن أوس الأنصاري في نفر فخلصهم صاحب قفصة، وبعث بهم إلى القيروان مع من كان بها من المخلفين والذراري.

ورجع زهير بن قيس إلى القيروان واعتزم على القتال وخالفه حنش بن عبد الله الصنعاني وارتحل إلى مصر واتبعه الناس فاضطر زهير إلى الخروج معهم، وانتهى إلى برقة فأقام بها مرابطاً، واستأمن من كان بالقيروان إلى كسيلة فأمنهم ودخل القيروان وأقاموا في عهده.

زهير بن قيس البلوي

ولما ولي عبد الملك بن مروان بعث إلى زهير بن قيس بمكانه من برقة بالمدد، وولاه حرب البرابرة فزحف سنة سبع وستين

ودخل إفريقية ولقيه كسيلة على ميس من نواحي القيروان فهزمه زهير بعد حروب صعبة، وقتله واستلحم في الوقعة كثير من أشراف البربر ورجالاتهم.

ثم قفل زهير إلى المشرق زاهداً في الملك، وقال: إنما جئت للجهاد وأخاف أن نفسي تميل إلى الدنيا، وسار إلى مصر واعترضه بسواحل برقة أسطول صاحب قسطنطينية، جاؤوا لقتاله فقاتلهم واستشهد رحمه الله تعالى.

حسان بن النعمان الغساني

ثم أن عبد الملك بن مروان بعد أن قتل عبد الله بن الزبير وصفا له الأمر، أمر حسان بن النعمان الغساني بغزو إفريقية، وأمده بالعساكر، ودخل القيروان وافتتح قرطاجنة عنوة وخربها، وفر من كان بها من الروم والفرنجة إلى صقلية والأندلس.

ثم اجتمعوا في صطفورة وبنزرت وهزمهم ثانية، وانحاز الفل إلى باجة وبونة فتحصنوا بها.

ثم سار حسان إلى الكاهنة ملكة جرارة بجبل أوراس، وهي يومئذ أعظم ملوك البربر، فحاربها، وانهزم المسلمون وأسر منهم جماعة، وأطلقتهم الكاهنة سوى خالد بن يزيد القيسي فإنها أمسكته وأرضعته مع ولديها وصيرته أخاً لهما.

وأخرجت العرب من إفريقية وانتهى حسان إلى برقة، وجاءه كتاب عبد الملك بالمقام حتى يأتيه المدد.

ثم بعث إليه المدد سنة أربع وسبعين فسار إلى إفريقية ودس إلى خالد بن يزيد يستعمله فأطلعه على خبرهم، واستحثه فلقي الكاهنة وقتلها وملك جبل أوراس وما إليه، ودوخ نواحيه وانصرف إلى القيروان وأمن البربر.

وكتب الخراج عليهم وعلى من معهم من الروم والفرنج على أن يكون معه اثنا عشر ألفاً من البربر لا يفارقونه في مواطن جهاده ورجع إلى عبد الملك، واستخلف على إفريقية رجلاً اسمه صالح من جنده.

موسى بن نصير

ولما ولي الوليد بن عبد الملك كتب إلى عمه عبد الله، وهو على مصر - ويقال عبد العزيز - أن يبعث بموسى بن نصير إلى إفريقية، وكان أبوه نصير من حرس معاوية فبعثه عبد الله، وقدم القيروان وبها صالح خليفة حسان فعقد له، ورأى البربر قد طمعوا، في البلاد فوجه البعوث في النواحي، وبعث ابنه عبد الله في البحر إلى جزيرة ميورقة فغنم منها وسبى وعاد، ثم بعثه إلى ناحية أخرى وابنه مروان كذلك، وتوجه هو إلى ناحية فغنم منها وسبى وعاد، وبلغ الخمس من المغنم سبعين ألف رأس من السبي.

ثم غزا طنجة وافتتح درعه وصحراء تافيلالت.

وأرسل ابنه إلى السوس وأذعن البربر لسلطانه ودولته وأخذ رهائن المصامدة وأنزلهم بطنجة، وذلك سنة ثمان وثمانين، وولى عليها طارق بن زياد الليثي.

ثم أجاز طارق إلى الأندلس دعاه إليها بلبان ملك غمارة فكان فتح الأندلس سنة تسعين.

وأجاز موسى بن نصير على أثره فكمل فتحها كما ذكرناه.

ثم قفل موسى إلى الشرق واستخلف على إفريقية ابنه عبد الله وعلى الأندلس عبد العزيز.

وهلك الوليد وولي سليمان سنة ست وتسعين فسخط موسى وحبسه.

محمد بن يزيد

لما ولي سليمان وحبس موسى بن نصير عن ابنه عبد الله عن إفريقية ولى مكانه محمد بن يزيد مولى قريش فلم يزل عليها حتى مات سليمان.

إسماعيل بن أبي المهاجر

ولما مات سليمان استعمل عمر بن عبد العزيز على إفريقية إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر وكان حسن السيرة وأسلم جميع البربر في أيامه.

يزيد بن أبي مسلم

ولما تولى يزيد بن عبد الملك، ولى على إفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه فقدم سنة إحدى ومائة، وأساء السيرة في البربر، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة منهم تأسياً بما فعله الحجاج بالعراق فقتله البربر لشهر من ولايته، ورجعوا إلى محمد بن يزيد مولى من الأنصار الذين كان عليهم قبل إسماعيل، وكتبوا إلى يزيد بالطاعة والعذر عن قتل ابن أبي مسلم فأجابهم بالرضا وأقر محمد بن أبي يزيد على عمله.

بشر بن صفوان الكلبي

ثم ولى يزيد على إفريقية بشر بن صفوان الكلبي فقدمها سنة ثلاث ومائة، فمهدها وسكّن أرجاءها، وغزا بنفسه صقلية سنة تسع ومائة وهلك مرجعه عنها.

عبيدة بن عبد الرحمن

ثم عزل هشام بن عبد الملك بشر بن صفوان عن إفريقية وولى مكانه عبيدة بن عبد الرحمن السلمي وهو ابن أخي أبي الأعور فقدمها سنة عشر ومائة.

عبيد اللّه بن الحبحاب

ثم عزل هشام عبيدة بن عبد الرحمن وولى مكانه عبيد اللّه بن الحبحاب مولى بني سلول وكان والياً على مصر، فأمره أن يمضي إلى إفريقية، واستخلف على مصر ابنه أبا القاسم، وسار إلى إفريقية فقدمها سنة أربع عشرة، وبنى جامع تونس، واتخذ لها دار الصناعة لإنشاء المراكب البحرية.

وبعث إلى طنجة ابنه إسماعيل وجعل معه عمر بن عبيد اللّه المرادي وبعث على الأندلس عقبة بن حجاج القيسي.

وبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازياً إلى المغرب فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان، وأصاب من مغانم الذهب والفضة والسبي كثيراً ودوخ بلاد المغرب وقبائل البربر ورجع.

ثم أغزاه ثانية في البحر إلى صقلية سنة اثنتين وعشرين، ومعه عبد الرحمن بن حبيب فنازل سرقوسة أعظم مدائن صقلية، وضرب عليهم الجزية وأثخن في سائر الجزيرة.

وكان محمد بن عبيد اللّه بطنجة قد أساء السيرة في البربر، وأراد أن يخمس من أسلم منهم، وزعم أنه الفيء، فأجمعوا الانتقاض، وبلغهم مسير العساكر مع حبيب بن أبي عبيدة إلى صقلية فسار ميسرة المظفري بدعوة الصفرية من الخوارج، وزحف إلى طنجة فقتل عمر بن عبيد اللّه وملكها، واتبعه البربر وبايعوه بالخلافة، وخاطبوه بأمير المؤمنين، وفشت مقالته في سائر القبائل بإفريقية وبعث ابن الحبحاب إليه خالد بن حبيب الفهري فيمن بقي معه من العساكر.

واستقدم حبيب بن أبي عبيدة من صقلية ومن معه من العساكر، وبعثه في أثر خالد، ولقيهم ميسرة والبربر بناحية طنجة فاقتتلا قتالاً شديداً، ثم تحاجزوا ورجع ميسرة إلى طنجة فكره البربر سوء سيرته فقتلوه، وولوا عليهم مكانه خالد بن حبيب الزناتي، واجتمع إليه البربر، ولقيه خالد بن حبيب في العرب وعساكر هشام فانهزموا، وقتل خالد بن حبيب وجماعة من العرب وسميت بهم غزوة الأشراف، وانتقضت إفريقية على ابن الحبحاب وبلغ الخبر إلى الأندلس فعزلوا عامله عقبة بن الحجاج، وولوا عبد الملك بن قَطَن كما مرّ.

كلثوم بن عياض

ولما انتهى الخبر إلى هشام بن عبد الملك بهزيمة العساكر بالمغرب استنقص ابن الحبحاب وكتب إليه يستقدمه، وولى على إفريقية سنة ثلاث وعشرين ومائة كلثوم بن عياض، وعلى مقدمته بلخ بن بشر القشيري، فأساء إلى أهل القيروان، فشكوا إلى حبيب بن أبي عبيدة وهو بتلمسان موافق للبربر، فكتب إلى كلثوم بن عياض ينهاه ويتهدده، فاعتذر وأغضى له عنها، ثم سار واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة، ومر على طريق سبيبة، وانتهى إلى تلمسان ولقي حبيب بن عبيدة واقتتلا، ثم اتفقا ورجعا جميعاً.

وزحف البرابرة إليهم على وادي طنجة، وهو وادي سوا فانهزم بلخ في الطلائع وانتهوا إلى كلثوم، فانكشف واشتد القتال وقتل كلثوم وحبيب بن أبي عبيدة وكثير من الجند، وتحيز أهل الشام إلى سبتة مع بلخ بن بشر، فحاصرهم البرابرة وأرسلوا إلى عبد الملك بن قطن أمير الأندلس في أن يجيزوا إليه، فأجابهم إلى ذلك بشرط أن يقيموا سنة واحدة، وأخذ رهنهم على ذلك، وانقضت السنة وطالبهم بالشرط فقتلوه وملك بلخ الأندلس.

وكان عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع لما قتل أبوه حبيب مع كلثوم بن عياض، وأجاز بلخ إلى الأندلس فملكها، فأجاز عبد الرحمن إلى الأندلس يحاول ملكها.

فلما جاء أبو الخطار إلى الأندلس من قبل حنظلة أيس عبد الرحمن من أمرها، ورجع إلى تونس سنة ست وعشرين ومائة وقد توفي هشام وولي الوليد بن يزيد فدعا لنفسه، وسار إلى القيروان ومنع حنظلة من قتاله، وبعث إليه وجوه الجند فانتهز عبد الرحمن الفرصة فيهم وأوثقهم لئلا يقاتله أصحابهم، وأغذ السير إلى القيروان فرحل حنظلة من إفريقية وقفل إلى المشرق سنة سبع وعشرين، واستقل عبد الرحمن بملك إفريقية وولى مروان بن محمد، فكتب له بولايتها، ثم ثارت عليه الخوارج في كل جهة فكان عمر

بن عطاب الأزدي بطبنياش، وعروة بن الوليد الصفري بتونس، وثابت الصنهاجي بباجة، وعبد الجبار بن الحارث بطرابلس على رأي الأباضية، فزحف عبد الرحمن إليهما سنة إحدى وثلاثين فظفر بهما، وقتلهما، وسرح أخاه إلياس لابن عطاب فهزمه وقتله، ثم زحف إلى عروة بتونس فقتله، وانقطع أمر الخوارج.

وزحف سنة خمس وثلاثين إلى جموع من البربر بنواحي تلمسان فظفر بهم وقفل.

ثم بعث جيشاً في البحر إلى صقلية وآخر إلى سردانية فاثخنوا في أمم الفرنج حتى استقروا بالجزاء.

ثم دالت دولة بني العباس وبعث عبد الرحمن بطاعته إلى السفاح، ثم إلى أبي جعفر من بعده، ولحق كثير من بني أمية إلى إفريقية، وكان ممن قدم عليه القاضي، وعبد المؤمن إبنا الوليد بن يزيد ومعهما ابنة عم لهما، فزوجها عبد الرحمن من أخيه إلياس، ثم بلغ عبد الرحمن عنهما السعي في الخلافة فقتلهما، وامتعضت لذلك ابنة عمهما، فأغرت زوجها بأخيه عبد الرحمن واستفسدته.

وكان عبد الرحمن قد أرسل إلى أبي جعفر بهدية قليلة، وذهب يعتذر عنها فلم يحسن العذر، وأفحش في الخطاب فكتب إليه المنصور يتهدده، وبعث إليه بالخلعة فانتقض هو ومزق خلعته على المنبر فوجد أخوه إلياس بذلك السبيل إلى ما كان يحاول عليه، وداخل وجوهاً من الجند في الفتك بعبد الرحمن وإعادة الدعوة للمنصور، ومالأه في ذلك أخوه عبد الوارث، وفطن عبد الرحمن لهما فأمر إلياس بالمسير إلى تونس، وجاء ليودعه ومعه أخوه عبد الوارث فقتلاه في آخر سبع وثلاثين لعشر سنين من إمارته.

حبيب بن عبد الرحمن

ولما قتل عبد الرحمن نجا ابنه حبيب إلى تونس فلحق به بعد أن طلبوه وضبطوا أبواب القصر ليأخذوه فلم يظفروا به، وكان عمه عمران بن حبيب بتونس فلحق به، واتبعه الياس فاقتتلوا ملياً ثم اصطلحوا على أن يكون لحبيب قفصة وقصطيلة ونفراوة، ولعمران تونس وصطفورة، وهي تبرزو والجزيرة، ولإلياس سائر إفريقية، وتم هذا الصلح سنة ثمان وثلاثين.

وسار حبيب إلى عمله ببلاد الجريد، وسار الياس مع أخيه عمران إلى تونس فغدر بعمران وقتله وجماعة من الأشراف معه، وعاد إلى القيروان، وبعث بطاعته إلى أبي جعفر المنصور مع عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضي إفريقية.

ثم سار حبيب إلى تونس فملكها وجاءه عمه إلياس فقاتله، وخالفه حبيب إلى القيروان فدخلها وفتق السجون فرجع إلياس في طلبه، وفارقه أكثر أصحابه إلى حبيب، فلما تواقفا دعاه حبيب إلى البراز فتبارزا وقتله حبيب ودخل القيروان وملكها آخر سنة ثمان وثلاثين، ونجا عمه الآخر عبد الوارث إلى وربجومة من قبائل البربر، وكبيرهم يومئذ عاصم بن جميل، وكان كاهناً ويدعي النبوة فأجار عبد الوارث، وقاتلهم حبيب فهزموه إلى قابس واستفحل أمرهم وكتب من كان بالقيروان من العرب إلى عاصم بن جميل يدعونه للولاية عليهم، واستخلفوه على الحماية والدعاء للمنصور فلم يجب إلى ذلك، وقاتلهم فهزمهم، واستباح القيروان وخرب المساجد واستهانها.

ثم سار إلى حبيب بن عبد الرحمن بقابس فقاتله وهزمه، ولحق حبيب بجبل أوراس فأجاره أهله، وجاء عاصم فقاتلهم فهزموه، وقتل جماعة من أصحابه.

وقام بأمر وربجومة والقيروان من بعده عبد الملك، وقتله سنة أربعين ومائة.

وكانت إمارة الياس على إفريقية سنة ونصفاً، وإمارة حبيب ثلاث سنين.

عبد الملك بن أبي الجعد الوربجومي

ولما قتل عبد الملك بن أبي الجعد حبيب بن عبد الرحمن رجع في قبائل وربجومة إلى القيروان وملكها، واستولت وربجومة على إفريقية، وساروا في أهل القيروان بالعسف والظلم كما كان عاصم وأسوأ منه.

وافترق أهل القيروان بالنواحي فراراً بأنفسهم، وشاع خبرهم في الآفاق فخرج بنواحي طرابلس عبد الأعلى بن السمح المغافري الأباضي منكراً لذلك وقصد طرابلس وملكها.

عبد الأعلى بن السمح المغافري

ولما ملك عبد الأعلى مدينة طرابلس بعث عبد الملك بن أبي الجعد العساكر لقتاله سنة إحدى وأربعين، فلقيهم أبو الخطاب وهزمهم وأثخن فيهم، واتبعهم إلى القيروان فملكها وأخرج وربجومة منها واستخلف عليها عبد الرحمن بن رستم، وسار إلى طرابلس للقاء العساكر القادمة من ناحية أبي جعفر.

محمد بن الأشعث الخزاعي

كان أبو جعفر المنصور لما وقع بإفريقية ما وقع من الفتنة وملك قبائل وربجومة القيروان، وفد عليه رجالات من جند إفريقية يشكون ما نزل بهم من وربجومة، ويستصرخونه فولى على مصر وإفريقية محمد بن الأشعث الخزاعي فنزل مصر وبعث على إفريقية أبا الأحوص عمرو بن الأحوص العجلي.

وسار في مقدمته فلقيه أبو الخطاب عبد الأعلى بسرت، ودهمه بالعساكر ومعهم الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة بن سوادة التميمي، فسار لذلك، ولقي أبا الخطاب بسرت ثانية، فانهزم أبو الخطاب وقتل عامة أصحابه وذلك سنة أربع وأربعين.

وبلغ الخبر إلى عبد الرحمن بن رستم بالقيروان ففر عنها إلى تاهرت وبنى هنالك مدينة ونزلها، وقام ابن الأشعث فافتتح طرابلس واستعمل عليها المخارق غفاراً الطائي، وقام بأمر إفريقية وضبطها.

وولى على طبنة والزاب الأغلب بن سالم.

ثم ثارت عليه المضرية وأخرجوه سنة ثمان وأربعين فقفل إلى المشرق الأغلب بن سالم.

ولما قفل ابن الأشعث إلى المشرق ولى على المضرية عيسى بن موسى الخراساني، فبعث أبو جعفر المنصور الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي بعده على إفريقية، وكان من أصحاب أبي مسلم بخراسان.

وقدم مع ابن الأشعث فولاه على الزاب وطبنة، فقدم القيروان وسكن الناس.

ثم خرج عليه أبو قرة اليفرني في جموع البربر فهرب وسكن أبو قرة اليفرني، فأبى عليه الجند وخلعوه، وكان الحسن بن حرب الكندي بقابس فكاتب الجند وثبطهم عن الأغلب فلحقوا به وأقبل بهم إلى القيروان فملكها ولحق الأغلب بقابس.

ثم رجع إلى إقبال الحسن بن حرب سنة خمسين فهزمه، وسار إلى القيروان فكر عليه الحسن دونها واقتتلوا، وأصاب الأغلب سهم فقتله، وقدم أصحابه عليهم المغافر بن غفار الطائي الذي كان على طرابلس، وحملوا على الحسن فانهزم أمامهم إلى تونس، ثم لحق بكتامة وخيل المخارق في اتباعه، ثم رجع إلى تونس بعد شهرين فقتله الجند، وقيل: أصحاب الأغلب قتلوه في الموقف الذي قتل فيه الأغلب.

وقام بأمر إفريقية المخارق بن غفار إلى أن كان ما نذكره.

عمر بن حفص هزارمرد

ولما بلغ أبا جعفر المنصور قتل الأغلب بن سالم بعث على إفريقية مكانه عمر بن حفص هزارمرد من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخي المهلب، فقدمها سنة إحدى وخمسين فاستقامت أموره ثلاث سنين.

ثم سار لبناء السور على مدينة طبنة واستخلف على القيروان أبا حازم حبيب بن حبيب المهلبي، فلما توجه لذلك ثار البربر بإفريقية وغلبوا على من كان بها وزحفوا إلى القيروان وقاتلوا أبا حازم فقتلوه واجتمع البربر الإباضية بطرابلس، وولوا عليهم أبا حاتم يعقوب بن حبيب الإباضي مولى كندة، وكان على طرابلس الجنيد بن بشار الأسدي من قبل عمر بن حفص فأمده بالعساكر، وقاتلوا أبا حازم فهزمهم وحصرهم بقابس، وانقضّت إفريقية من كل ناحية.

ثم ثاروا في عسكر إلى طبنة وحاصروا بها عمر بن حفص، فيهم أبو قرة اليعقوبي في أربعين ألفاً من الصفرية وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشرألفاً من الأباضية جاؤوا معه، والمسور الزناتي في عشرة آلاف من الأباضية وأمم من الخوارج من صنهاجة وزناتة وهوارة ما لا يحصى، فدافعهم عمر بن حفص بالأموال، وفرق كلمتهم، وبذل لأصحاب أبي قرة مالاً فانصرفوا.

واضطر أبو قرة لاتباعهم، فبعث عمر جيشاً إلى ابن رستم وهو بتهودا فانهزم إلى تاهرت وضعف الأباضية عن حصار طبنة فأفرجوا عنها، وسار أبو حاتم إلى القيروان وحاصرها ثمانية أشهر، واشتد حصارها وسار عمر بن حفص وجهز العساكر لطبنة فخالفه أبو قرة إلى طبنة فهزموه.

وبلغ أبا حاتم وأصحابه وهو على القيروان مسير عمر بن حفص إليهم فساروا للقائه، فمال هو من الأربس إلى تونس، ثم جاء إلى القيروان فدخلها واستعد للحصار واتبعه أبو حاتم والبربر فحاصروه إلى أن جهده الحصار، وخرج لقتالهم مستميتاً فقتل آخر سنة أربع وخمسين، وولي مكانه أخوه لأمه حميد بن صخر فوادع أبا حاتم على أن يقيم دعوة العباسية بالقيروان وخرج أكثر الجند إلى طبنة وأحرق أبو حاتم أبواب القيروان وثلم سورها.

يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب

ولما بلغ المنصور انتقاض إفريقية على عمر بن حفص وحصاره بطبنة ثم بالقيروان، بعث إليه يزيد بن أبي حاتم بن

قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة في ستين ألف مقاتل.

وبلغ خبره عمر بن حفص فحمله ذلك على الاستماتة حتى قتل، وسار يزيد بن حاتم فقدم عليها وأبو حاتم يعقوب بن حبيب مستول عليها، فسار إلى طرابلس للقائه، واستخلف على القيروان عمر بن عثمان الفهري فانتقض وقتل أصحابه.

وخرج المخارق بن غفار، فرجع إليهما أبو حاتم ففرا من القيروان ولحقا بجيجل من سواحل كتامة فتركهما، واستخلف على القيروان عبد العزيز بن السبع المغافري، وسار للقاء يزيد.

وسار يزيد إلى طرابلس فلحق أبو حاتم بجبال نفوسة، واتبعته عساكر يزيد فهزمهم فسار إليه يزيد بنفسه، وقاتله قتالاً شديداً فانهزم البربر، وقتل أبو حاتم في ثلاثين ألفاً من أصحابه، وتتبعهم يزيد بالقتل بثأر عمر بن حفص.

ثم ارتحل إلى القيروان فدخلها منتصف سنة خمس وخمسين.

وكان عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهري مع أبي حاتم فلحق بكتامة، وبعث يزيد في طلبه فحاصروهم ثم ظفروا بهم.

وهرب عبد الرحمن وقتل جميع من كان معه وبعث يزيد المخارق بن غفار على الزاب، ونزل طبنة وأثخن في البربر في وقائع كثيرة مع وربجومة وغيرهم إلى أن هلك يزيد سنة سبعين ومائة في خلافة هارون الرشيد.

وقام بأمره ابنه داود فخرج عليه البربر، وأوقع بهم ورجع إلى القيروان إلى أن كان من أمره ما نذكره.

أخوه روح بن حاتم

ولما بلغ الرشيد وفاة يزيد بن حاتم، وكان أخوه روح على فلسطين استقدمه وعزاه في أخيه وولاه على إفريقية فقدمها منتصف إحدى وسبعين، وسار داود ابن أخيه يزيد إلى الرشيد.

وكان يزيد قد أذل الخوارج ومهد البلاد فكانت ساكنة أيام روح، ورغب في موادعة عبد الوهاب بن رستم وكان من الوهبية فوادعه، ثم هلك روح في رمضان سنة أربع وسبعين، وكان الرشيد قد بعث بعهده سراً إلى نصر بن حبيب من قرابتهم، فقام بالأمر بعد روح إلى أن ولي الفضل.

ابنه الفضل بن روح

ولما توفي روح بن حاتم قام حبيب بن نصر مكانه، وسار ابنه الفضل إلى الرشيد فولاه على إفريقية مكان أبيه فعاد إلى القيروان في محرم سنة سبع وسبعين، واستعمل على تونس المغيرة ابن أخيه بشر بن روح، وكان غلاماً غراً فاستخف بالجند، واستوحشوا من الفضل لما أساء فيهم السيرة، وأخذهم بموالاة حبيب بن نصر فاستعفى أهل تونس من المغيرة فلم يعفهم، فانتقضوا وقدموا عليهم عبد الله بن الجارود، ويعرف بعبد ربه الأنباري، وبايعوه على الطاعة، وأخرجوا المغيرة، وكتبوا إلى الفضل أن يولي عليهم من أراد فولى عليهم ابن عمه عبد الله بن يزيد بن أبي حاتم، وسار إلى تونس، ولما قاربها بعث ابن الجارود جماعة لتلقيه، واستفهامه في أي شيء جاء فعدوا عليه وقتلوه افتئاتاً بذلك على ابن الجارود، واضطر إلى إظهار الخلاف، وتولى كبر ذلك محمد بن الفارسي من قواد الخراسانية، وكتب إلى القواد والعمال في النواحي، واستفسدهم على الفضل، وكثر جموع ابن الجارود، وخرج الفضل فانهزم واتبعه ابن الجارود، واقتحم عليه القيروان، ووكل به وبأهله من يوصلهم إلى قابس، ثم رده من طريقه وقتله منتصف ثمان وسبعين.

ورجع ابن الجارود إلى تونس، وامتعض لقتل الفضل جماعة من الجند وفي مقدمتهم مالك بن المنذر ووثبوا بالقيروان فملكوها، وسار إليهم ابن الجارود من تونس فقتلهم، وقتل مالك بن المنذر وجماعة من أعيانهم، ولحق فلهم بالأندلس، فقدموا عليهم الصلت بن سعيد، وعادوا إلى القيروان واضطربت إفريقية.

خزيمة بن أعين

ولما بلغ الرشيد مقتل الفضل بن روح، وما وقع بإفريقية من الاضطراب، ولى مكانه خزيمة بن أعين، وبعث إلى ابن الجارود يحيى بن موسى لمحله عند أهل خراسان.

ويقال: يقطين يرغبه في الطاعة، فأجابه بشرط الفراغ من العلاء بن سعيد، وعلم يقطين أنه يغالطه فداخل صاحبه محمد بن الفارسي، واستماله فنزع عن ابن الجارود.

وخرج ابن الجارود من القيروان فراراً من العلاء في محرم سنة تسع وسبعين لسبعة أشهر من ولايته، وسار للقاء ابن الفارسي من القيروان، وتزاحفا للقتال فدعا ابن الجارود ابن الفارسي إلى خلوة، وقد دس رجلاً من أصحابه يغتاله في خلوتهما

فقتله، وانهزم أصحابه وسابق العلاء بن سعيد ويقطين إلى القيروان فسبق إليها العلاء وملكها وفتك في أصحاب ابن الجارود ولحق ابن الجارود بهرثمة فبعث به إلى الرشيد، وكتب إليه أن العلاء بن سعيد هو الذي أخرجه من القيروان فأمره بأن يبعث بالعلاء فبعث به مع يقطين، فاعتقل ابن الجارود وأحسن إلى العلاء إلى أن توفي بمصر.

وسار هرثمة إلى القيروان فقدمها سنة سبع وسبعين فأمن الناس وسكنهم، وبنى القصر الكبير بالمنستير لسنة من قدومه، وبنى السور على طرابلس مما يلي البحر.

وكان إبراهيم بن الأغلب عاملاً على الزاب وطبنة فهاداه، ولاطفه فعقد له على عمله فقام بأمره وحسن أثره.

ثم خرج عليه عياض بن وهب الهواري وكليب بن جميع الكلبي، وجمعا الجموع فسرح هرثمة إليهما يحيى بن موسى من قواد الخراسانية ففرق جموعهما، وقتل كثيراً من أصحابهما، ورجع إلى القيروان.

ولما رأى هرثمة كثرة الشوار والخلاف بإفريقية استعفى الرشيد من ولايتها فأعفاه، ورجع إلى العراق لستين ونصف من ولايته.

محمد بن مقاتل الكعبي

ثم بعث الرشيد على إفريقية محمد بن مقاتل الكعبي، وكان صنيعته،، فقدم القيروان في رمضان سنة إحدى وثمانين، فكان سيّئ السيرة، فاختلف عليه الجند وقدموا مخلد بن مرة الأزدي، فبعث إليه العساكر فهزم وقتل.

ثم خرج عليه بتونس تمام بن تميم التميمي سنة ثلاث وثمانين، واجتمع إليه الناس، وسار إلى القيروان فخرج إليه محمد بن مقاتل ولقيه فانهزم أمامه ورجع إلى القيروان، وتمام في اتباعه إلى أن دخل عليه القيروان، وأمنه تمام على أن يخرج عن إفريقية، فسار محمد إلى طرابلس، وبلغ الخبر إلى إبراهيم بن الأغلب بمكانه من الزاب فانتقض لمحمد، وسار بجموعه إلى القيروان وهرب تمام بين يديه إلى تونس، وملك القيروان واستقدم محمد بن مقاتل من طرابلس، وأعاده إلى إمارته بالقيروان آخر ثلاث وثمانين، وزحف تمام لقتالهم فخرج إليه إبراهيم بن الأغلب بأصحابه فهزمه، وسار في اتباعه إلى تونس، واستأمن له تمام فأمنه وجاء به إلى القيروان وبعث به إلى بغداد فاعتقله الرشيد.

إبراهيم بن الأغلب

ولما استوثق الأمر لمحمد بن مقاتل كره أهل البلاد ولايته، وداخلوا إبراهيم بن الأغلب في أن يطلب من الرشيد الولاية عليهم، فكتب إبراهيم إلى الرشيد في ذلك على أن يترك المائة ألف دينار التي كانت من مصر إلى إفريقية، وعلى أن يحمل هو من إفريقية أربعين ألفاً.

وبلغ الرشيد غناؤه في ذلك واستشار فيه أصحابه فأشار هرثمة بولايته، فكتب له بالعهد إلى إفريقية منتصف أربع وثمانين فقام إبراهيم بالولاية، وضبط الأمور وقفل ابن مقاتل إلى المشرق، وسكنت البلاد بولاية ابن الأغلب، وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان، وانتقل إليها بجملته.

وخرج عليه سنة ست وثمانين بتونس حميد من رجالات العرب، ونزع السواد، فسرح إليه ابن الأغلب عمران بن مجالد في العساكر فقاتله وانهزم حميد، وقتل من أصحابه نحو عشرة آلاف.

ثم صرف همه إلى تمهيد المغرب الأقصى، وقد ظهر فيه دعوة العلوية بإدريس بن عبد اللّه، وتوفي ونصب البرابرة ابنه الأصغر، وقام مولاه راشد بكفالته، وكبر إدريس واستفحل أمره براشد، فلم يزل إبراهيم يدس إلى البربر ويسرب فيهم الأموال حتى قتل راشد وسيق رأسه إليه.

ثم قام بأمر إدريس بعده بهلول بن عبد الرحمن المظفر من رؤوس البربر فاستفحل أمره، فلم يزل إبراهيم يتلطفه ويستميله بالكتب والهدايا، إلى أن انحرف عن دعوة الأدارسة إلى دعوة العباسية فصالحه إدريس، وكتب إليه يستعطفه بقرابته من رسول اللّه ﷺ فكف عنه.

ثم خالف أهل طرابلس على إبراهيم بن الأغلب سنة تسع وثمانين، وثاروا بعاملهم سفيان بن المهاجر، وأخرجوه من داره إلى المسجد وقتلوا عامة أصحابه، ثم أمنوه على أن يخرج من طرابلس فخرج سفيان لشهر من ولايته، واستعملوا عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي، فبعث إليهم إبراهيم بن الأغلب العساكر وهزمهم، ودخل طرابلس عسكره.

ثم استحضر إبراهيم الذين تولوا كبر ذلك، فحضروا في ذي الحجة آخر السنة، وعفا عنهم وأعادهم إلى بلدهم.

ثم انتقض عمران بن مجالد الربعي سنة خمس وتسعين على ابن الأغلب، وكان بتونس، واجتمع معه على ذلك قريش بن

التونسي، وكثرت جموعهما، وسار عمران إلى القيروان فملكها، وقدم عليه قريش من تونس، وخندق إبراهيم على نفسه بالعباسية فحاصروه سنة كاملة، كانت بينه وبينهم حروب كان الظفر في آخرها لابن الأغلب.

وكان عمران يبعث إلى أسد بن الفرات القاضي في الخروج إليهم وامتنع.

ثم بعث الرشيد إلى إبراهيم بالمال فنادى في الناس بالعطاء، ولحق به أصحاب عمران، وانتقض أمره ولحق بالزاب، فأقام به إلى أن توفي ابن الأغلب.

ثم بعث إبراهيم على طرابلس ابنه عبد الله سنة ست وتسعين، فثار عليه الجند وحاصروه بداره.

ثم أمنوه على أن يخرج عنهم فخرج، واجتمع إليه الناس وبذل العطاء وأتاه البربر من كل ناحية، وزحف إلى طرابلس فهزم جندها ودخل المدينة.

ثم عزلة أبوه وولى سفيان بن المضاء فثارت هوارة بطرابلس، وهجم الجند فلحقوا بإبراهيم بن الأغلب وأعاد معهم ابنه عبد الله في ثلاثة عشر ألفاً من العساكر ففتك بهوارة وأثخن فيهم، وجدد سور طرابلس.

وبلغ الخبر إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فجمع البربر وجاء إلى طرابلس فحاصرها وسد عبد الوهاب باب زناتة، وكان يقاتل من باب هوارة.

ثم جاءه الخبر بوفاة أبيه فصالحهم على أن يكون البلد والبحر لعبد الله، وأعمالها لعبد الوهاب، وسار إلى القيروان، وكانت وفاة إبراهيم في شوال سنة ست وتسعين.

ابنه أبو العباس عبد الله

ولما توفي إبراهيم بن الأغلب عهد لابنه عبد الله، وكان غائباً بطرابلس والبربر يحاصرونه كما ذكرناه، وأوصى ابنه الآخر زيادة الله أن يبايع له بالإمارة ففعل، وأخذ له البيعة على الناس بالقيروان.

وكتب إليه بذلك فقدم أبو العباس عبد الله في صفر سنة سبع وتسعين، ولم يرع حق أخيه فيما فعله.

وكان ينتقصه ولم يكن في أيامه فتنة بما مهد له أبوه الأمر.

وكان جائراً حتى قيل: إن مهلكه كان بدعوة حفص بن حميد من الأولياء الصالحين من أهل حمود ومهريك، وفد عليه في جماعة من الصالحين يشكو ظلامة.

فلم يصغ إليهم فخرج حفص يدعو عليه، وهم يؤمنون فأصابته قرحة في أذنه عن قريب هلك منها في ذي الحجة سنة إحدى ومائتين لخمس سنين من ولايته.

أخوه زيادة الله

ولما توفي أبو العباس ولي مكانه أخوه زيادة الله، وجاءه التقليد من قبل المأمون، وكتب إليه يأمره بالدعاء لعبد الله بن طاهر على منابره فغضب من ذلك، وبعث مع الرسول بدنانير من سكة الأدارسة يعرض له بتحويل الدعوة.

ثم استأذنه قرابته في الحج وهم أخوه الأغلب وأبناء أخيه أبي العباس محمد وأبو محمد بهر وإبراهيم أبو الأغلب، فأذن لهم وانطلقوا لقضاء فرضهم فقضوه، وأقاموا بمصر حتى وقعت بين زيادة الله وبين الجند الحروب فاستقدمهم، واستوزر أخاه الأغلب وهاجت الفتن، واستولى كل رئيس بناحية فملكوها عليه كلها وزحفوا إلى القيروان فحصروه، وكان فاتحة الخلاف زياد بن سهل بن الصقلية، خرج سنة سبع ومائتين وجمع وحاصر مدينة باجة فسرح إليه العساكر فهزموه وقتلوا أصحابه.

ثم انتقض منصور الترمذي بطبنة، وسار إلى تونس فملكها وكان العامل عليها إسماعيل بن سفيان، وسفيان أخو الأغلب فقتله لتستخلص له طاعة الجند.

وسرح زيادة الله العساكر من القيروان مع غلبون ابن عمه ووزيره اسمه الأغلب بن عبد الله بن الأغلب وتهددهم بالقتل إن انهزموا فهزمهم منصور، وخشوا على أنفسهم ففارقوا الوزير غلبون، وافترقوا على إفريقية، واستولوا على باجة والجزيرة وصطفورة والأربس وغيرها.

واضطربت إفريقية، ثم اجتمعوا إلى منصور، وسار بهم إلى القيروان فملكها، وحاصره في العباسية أربعين يوماً، وعمروا سور القيروان الذي خربه إبراهيم بن الأغلب.

ثم خرج إليه زيادة الله فقاتله فهزمه، ولحق بتونس وخرب زيادة الله سور القيروان، ولحق قواد الجند بالبلاد التي تغلبوا عليها، فلحق منهم عامر بن نافع الأزرق بسبيبة.

وسرح زيادة الله سنة تسع ومائتين عسكراً مع محمد بن عبد الله بن الأغلب فهزمهم عامر وعادوا، ورجع منصور إلى تونس ولم يبق على طاعة زيادة الله من إفريقية إلا تونس

والساحل طرابلس ونفزاوة.

وبعث الجند إلى زيادة اللّه بالأمان وأن يرتحل عن إفريقية، وبلغه أن عامر بن نافع يريد نفزاوة وأن برابرتها دعوه، فسرح إليهم مائتي مقاتل لمنع عامر بن نافع فرجّع عامراً عنها، وهزمه إلى قسطيلة ورجع، ثم هرب عنها واستولى سفيان على قسطيلة وضبطها، وذلك سنة تسع ومائتين، واسترجع زيادة اللّه قسطيلة والزاب وطرابلس واستقام أمره.

ثم وقعت الفتنة بين منصور الطبندي وبين عامر بن نافع، لأن منصوراً كان يحسده ويضغن عليه فاستمال عامراً الجند وحاصره بقصره بطبندة حتى استأمن إليه على أن يركب إلى الشرق، وأجابه إلى ذلك وخرج منصور من طبندة منهزماً، ثم رجع فحاصره عامر حتى استأمن إليه ثانية على يد عبد السلام بن المفرج من قواد الجند، وأخذ له الأمان من عامر على أن يركب البحر إلى المشرق فأجابه عامر وبعثه مع ثقاته إلى تونس وأوصى ابنه، وكان يغريه أن يقتله إذا مر به فقتله، وبعث برأسه ورأس ابنه، وأقام عامر بن نافع بمدينة تونس إلى أن توفي سنة أربع عشرة.

ورجع عبد السلام بن المفرج إلى باجة فأقام بها إلى أن انتقض فضل بن أبي العين بجزيرة شريك سنة ثمان عشرة ومائتين، فسار إليه عبد السلام بن المفرج الربعي، وجاءت عساكر زيادة اللّه فقاتلوهما، وقتل عبد السلام، وانهزم فضل إلى مدينة تونس وامتنع بها، وحاصرته العساكر حتى اقتحموها عليه، وقتلوا كثيراً من أهلها وهرب آخرون حتى أمنهم زيادة اللّه وعادوا.

وفي سنة تسع عشرة ومائتين فتح أسد بن الفرات صقلية، كانت صقلية من عمالات الروم وأمرها راجع إلى صاحب قسطنطينية، وولى عليها سنة إحدى عشرة ومائتين بطريقاً اسمه قسنطيل، واستعمل على الأسطول قائداً من الروم حازماً شجاعاً فغزا سواحل إفريقية وانتهبها.

ثم بعد مدة كتب ملك الروم إلى قسنطيل يأمره بالقبض على مقدم الأسطول وقتله.

ونمى الخبر إليه بذلك فانتقض، وتعصب له أصحابه، وسار إلى مدينة سرقوسة من بلاد صقلية فملكها، وقاتله قسنطيل فهزمه القائد ودخل مدينة نطانية فأتبعه جيشاً أخذوه وقتلوه، واستولى القائد على صقلية فملكها وخوطب بالملك.

وولى على ناحية من الجزيرة رجلاً اسمه بلاطة، وكان ميخاييل ابن عم بلاطة على مدينة بليرم، فانتقض هو وابن عمه على القائد، واستولى بلاطة على مدينة سرقوسة، وركب القائد في أساطيله إلى إفريقية مستنجداً بزيادة اللّه، فبعث معهم العساكر واستعمل عليهم أسد بن الفرات قاضي القيروان فخرجوا في ربيع سنة اثنتي عشرة فنزلوا بمدينة مازر، وساروا إلى بلاطة ولقيهم القائد وجميع الروم الذين بها استمدهم فهزموا بلاطة والروم الذين معه، وغنموا أموالهم.

وهرب بلاطة إلى فلونرة فقتل، واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة ووصلوا إلى قلعة الكرات، وقد اجتمع بها خلق كثير فخادعوا القاضي أسد بن الفرات في المراودة على الصلح وأداء الجزية، حتى استعدوا للحصار، ثم امتنعوا عليه فحاصرهم وبعث السرايا في كل ناحية، وكثرت الغنائم وحاصروا سرقوسة براً وبحراً، وجاءه المدد من إفريقية وحاصروا بليرم.

وزحف الروم إلى المسلمين وهم يحاصرون سرقوسة قد بعثوهم، واشتد حصار المسلمين بسرقوسة، ثم أصاب معسكرهم الفناء وهلك كثير منهم، ومات أسد بن الفرات أميرهم ودفن بمدينة قصريانة، ومعهم القائد الذي جاء يستنجدهم فخادعه أهل قصريانة وقتلوه، وجاء المدد من القسطنطينية فتصافوا مع المسلمين وهزموهم، ودخل فلهم إلى قصريانة.

ثم توفي محمد بن الحواري أمير المسلمين، وولي بعده زهير بن عوف.

ثم محض اللّه المسلمين فهزمهم الروم مرات وحصروهم في معسكرهم حتى جهدهم الحصار، وخرج من كان في كبركيب من المسلمين بعد أن هدموها وساروا إلى مازر، وتعذر عليهم الوصول إلى إخوانهم وأقاموا كذلك إلى سنة أربع عشرة إلى أن أشرفوا على الهلاك، فوصلت مراكب إفريقية مدداً وأسطول من الأندلس خرجوا للجهاد، واجتمع منهم ثلاثمائة مركب فنزلوا الجزيرة، وأفرج الروم عن حصار المسلمين وفتح المسلمون مدينة بليرم بالأمان سنة سبع عشرة ومائتين، ثم ساروا سنة تسع عشرة إلى مدينة قصريانة وهزموا الروم عليها سنة عشرين ومائتين، ثم بعثوا إلى طرميس.

ثم بعث زيادة اللّه الفضل بن يعقوب في سرية إن سرقوسة فغنموا، ثم سارت سرية أخرى واعترضها بطريق صقلية فامتنعوا منه في وعر وخمل من الشعراء، حتى يئس منهم وانصرف على غير طائل فحمل عليهم أهل السرية وانهزموا، وسقط البطريق عن فرسه فطعن وجرح، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب ومتاع.

ثم جهز زيادة اللّه إلى صقلية إبراهيم بن عبد اللّه بن

الأغلب في العساكر، وولاه أميراً عليها فخرج متصف رمضان، وبعث أسطولاً فلقي أسطولاً للروم فغنمه، وقتل من كان فيه.

وبعث أسطولاً آخر إلى قصوره فلقي أسطولاً فغنمه وسارت سرية إلى جبل النار والحصون التي في نواحيها، وكثر السبي بأيدي المسلمين.

وبعث الأغلب سنة إحدى وعشرين أسطولاً نحو الجزائر فغنموا وعادوا.

وبعث سرية إلى قطلبانة وأخرى إلى قصريانة كان فيهما التمحيص على المسلمين.

ثم كانت وقعة أخرى كان فيها الظفر للمسلمين.

وغنم المسلمون من أسطولهم تسع مراكب، ثم عثر بعض المسلمين على عورة من قصريانة فدل المسلمين عليها، ودخلوا منها البلد، وتحصن المشركون بحصنه حتى استأمنوا وفتحه اللّه، وغنم المسلمون غنائمه، وعادوا إلى بليرم إلى أن وصلهم الخبر بوفاة زيادة اللّه فوهنوا أولاً، ثم انشطوا وعادوا إلى الصبر والجهاد وكانت وفاة زيادة اللّه منتصف سنة ثلاث وعشرين ومائتين لإحدى وعشرين سنة ونصف من ولايته.

أخوهما أبو عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب

ولما توفي زيادة اللّه بن إبراهيم تولى أخوه الأغلب، ويكنى أبا عقال فأحسن إلى الجند، وأزال المظالم وزاد العمال في أرزاقهم وكفهم عن الرعية! وخرج عليه بقسطيلة خوارج زواغة ولواتة ومكناسة وقتلوا عاملها بها، وبعث إليهم العساكر فقتلهم واستأصلهم.

وبعث سنة أربع وعشرين سرية إلى صقلية فغنموا وعادوا ظافرين.

وفي سنة خمس وعشرين استأمن للمسلمين عدة حصون من صقلية فأمنوهم، وفتحوها صلحاً وسار أسطول المسلمين إلى قلورية ففتحوها، ولقوا أسطول القسطنطينية فهزموهم.

وفي سنة ست وعشرين سارت سرايا المسلمين بصقلية إلى قصريانة، ثم حصن القيروان وأثخنوا في نواحيها كما نذكره.

ثم توفي الأغلب بن إبراهيم في ربيع من سنة ست وعشرين ومائتين لسنتين وسبعة أشهر من إمارته.

ابنه أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم

ولما توفي أبو عقال الأغلب ولي بعده ابنه أبو العباس ودانت له إفريقية، وشيد مدينة بقرب تاهرت وسماها العباسية وذلك سنة سبع وعشرين، وأحرقها أفلح بن عبد الوهاب بن رستم، وكتب إلى صاحب الأندلس يتقرب إليه بذلك فبعث إليه بمائة ألف درهم.

وفي أيامه ولي سحنون القضاء سنة أربع وثلاثين ومائتين بعد عزل ابن الجواد، وضربه سحنون فمات.

ومات سحنون سنة أربعين ومائتين، وثار عليه أخوه أبو جعفر وغلبه، ثم اتفقا على أن يستوزره فاستبد عليه، وقتل وزراءه ومكث على ذلك.

ثم أقام أبو العباس محمد بأمره واستبد سنة ثلاث وأربعين بعد أن استعد لذلك رجالاً، وحارب أخوه أبو جعفر فغلبه محمد وانتقض عليه وأخرجه من إفريقية إلى مصر سنة ست وأربعين ومائتين لستة عشر شهراً من ولايته.

ابنه أبو إبراهيم أحمد بن أبي العباس محمد

لما توفي أبو العباس محمد بن أبي عقال سنة اثنتين وأربعين، ولي مكانه ابنه أبو إبراهيم أحمد فأحسن السيرة وأكثر العطاء للجند، وكان مولعاً بالعمارة فبنى بإفريقية نحواً من عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد، واتخذ العبيد جنداً وخرج عليه بناحية طرابلس خوارج من البربر فغلبهم عاملها، وهو يومئذ أخوه عبد اللّه بن محمد بن الأغلب، سرح إليهم أخاهما زيادة اللّه يحاربهم، واستلحمهم وكتب إلى أخيه أبي إبراهيم بالفتح.

وفي أيامه افتتحت قصريانة من مدن صقلية في شوال سنة أربع وأربعين، وبعث بفتحها إلى المتوكل، وأهدى له من سبيها.

ثم توفي إبراهيم هذا سنة تسع وأربعين لثمان سنين من ولايته.

ابنه زيادة اللّه الأصغر بن أبي إبراهيم بن أحمد

ولما توفي أبو إبراهيم ولي مكانه ابنه زيادة اللّه، ويعرف بزيادة اللّه الأصغر فجرى على سنن سلفه، ولم تطل أيامه.

وتوفي سنة خمسين لحول من ولايته.

أخوه أبو الغرانيق بن أبي إبراهيم بن أحمد

ولما توفي زيادة اللّه كما قدمناه ولي مكانه أخوه محمد ويلقب بأبي الغرانيق فغلب عليه اللّهو والشراب، وكانت في أيامه حروب وفتن.

وفتح جزيرة مالطة سنة خمس وخمسين.

وتغلب الروم على مواضع من جزيرة صقلية، وبنى محمد حصوناً ومحارس على ساحل البحر بالمغرب على مسيرة خمسة عشر يوماً من برقة إلى جهة المغرب وهي الآن معروفة.

ثم توفي أبو الغرانيق منتصف إحدى وستين لإحدى عشرة سنة من ولايته.

بقية أخبار صقلية

وفي سنة ثمان وعشرين سار الفضل بن جعفر الهمداني في البحر ونزل مرسى مسينة وحاصرها فامتنعت عليه، وبث السرايا في نواحيها فغنموا.

ثم بعث طائفة من عسكره وجاؤوا إلى البلد من وراء جبل مطل عليه، وهم مشغولون بقتاله فانهزموا، وأعطوا باليد ففتحها.

ثم حاصر سنة اثنتين وثلاثين مدينة لسى، وكاتب أهلها بطريق صقلية يستمدونه فأجابهم وأعطاهم العلامة بإيقاد النار على الجبل.

وبلغ ذلك الفضل بن جعفر فأوقد النار على الجبل، وأكمن لهم من ناحيته فخرجوا واستطرد لهم حتى جاوزوا الكمين، فخرجوا عليهم، فلم ينج منهم إلا القليل، وسلموا البلد على الأمان.

وفي سنة ثلاث وثلاثين أجاز المسلمون إلى أرض أنكبردة من البر الكبير، وملكوا منها مدينة وسكنوها، وفي سنة أربع وثلاثين صالح أهل رغوس، وسلموا المدينة للمسلمين فهدموها بعد أن حملوا جميع ما فيها.

وفي سنة ثلاث وثلاثين توفي أمير صقلية محمد بن عبد اللّه بن الأغلب، واجتمع المسلمون بعده على ولاية العباس بن الفضل بن يعقوب بعد موت أميرهم.

وكتب له محمد بن الأغلب بعهده على صقلية، وكان من قبل يغزو ويبعث السرايا، وتأتيه الغنائم، ولما جاءه كتاب الولاية خرج بنفسه، وعلى مقدمته عمه رياح فعاث في نواحي صقلية، وردد البعوث والسرايا إلى قطانية وسرقوسة وبوطيف ورغوس فغنموا وخربوا وحرقوا، وافتتح حصوناً جمة، وهزم أهل قصريانة، وهي مدينة ملك صقلية.

وكان الملك قبله يسكن سرقوسة فلما فتحها المسلمون كما ذكرناه انتقل الملك إلى قصريانة.

وأخبر أن العباس كان يردد الغزو إلى نواحي سرقوسة وقصريانة شاتية وصائفة فيصيب منهم، ويرجع بالغنائم والأسارى.

فلما كان في شاتية منها أصاب منهم أسارى، وقدمهم للقتل فقال له بعضهم -وكان له قدر وهيبة-: استبقني وأنا أملكك قصريانة، ودلهم على عورة البلد فجاؤوها ليلاً، ووقفهم على باب صغير فدخلوا منه، فلما توسطوا البلد وضعوا السيف، وفتحوا الأبواب ودخل العباس في العسكر فقتل المقاتلة وسبى بنات البطارقة، وأصاب فيها ما يعجز الوصف عنه، وذل الروم بصقلية من يومئذ.

وبعث ملك الروم عسكراً عظيماً مع بعض بطارقته، وركبوا البحر إلى مرسى سرقوسة فجاءهم العباس من بليرم فقاتلهم وهزمهم، وأقلع فلهم إلى بلادهم بعد أن غنم المسلمون من أسطولهم ثلاثة أو أكثر، وذلك سنة سبع وثلاثين.

وافتتح بعدها كثيراً من قلاع صقلية، وجاء مدد الروم من القسطنطينية وهو يحاصر قلعة الروم فنزلوا سرقوسة، وزحف إليهم العباس من مكانه وهزمهم، ورجع إلى قصريانة فحصنها وأنزل بها الحامية.

ثم سار سنة سبع وأربعين إلى سرقوسة فغنم ورجع، واعتل في طريقه فهلك منتصف سنته، ودفن في نواحي سرقوسة، وأحرق النصارى شلوه وذلك لإحدى عشرة سنة من إمارته.

واتصل الجهاد بصقلية والفتح، وأجاز المسلمون إلى عدوة الروم في الشمال وغزوا أرض قلورية وانكبرده، وفتحوا فيها حصوناً وسكن بها المسلمون.

ولما توفي العباس اجتمع الناس على ابنه عبد اللّه وكتبوا إلى صاحب إفريقية، وبعث عبد اللّه السرايا ففتح القلاع، وبعد خمسة أشهر من ولايته وصل خفاجة بن سفيان من إفريقية على صقلية في منتصف ثمان وأربعين، وأخرج ابنه محموداً في سرية إلى سرقوسة فعاث في نواحيها، وخرج إليهم الروم فقاتلهم وظفر ورجع.

ثم فتح مدينة نوطوس سنة خمس وخمسين وسار إلى سرقوسة، وجبل النار، واستأمن إليه أهل طرميس، ثم غدروا فسرح ابنه محمداً في العساكر وسبى أهلها.

ثم سار خفاجة إلى رغوس وافتتحها، وأصابه المرض فعاد إلى بليرم.

ثم سار سنة ثلاث وخمسين إلى سرقوسة وقطانية فخرب نواحيها، وأفسد زرعها، وبعث سراياه في أرض صقلية فامتلأت أيديهم من الغنائم.

وفي سنة أربع وخمسين وصل بطريق من القسطنطينية لأهل صقلية فقاتله جمع من المسلمين وهزموه، وعاث خفاجة في نواحي سرقوسة ورجع إلى بليرم.

وبعث سنة خمس وخمسين ابنه محمداً في العساكر إلى طرميس وقد دله بعض العيون على بعض عوراتها فدخلوها وشرعوا في النهب.

وجاء محمد بن خفاجة من ناحية أخرى فظنوه مدداً للعدو فأجفلوا، ورآهم محمد مجفلين فرجع.

ثم سار خفاجة إلى سرقوسة فحاصرها وعاث في نواحيها، ورجع فاغتاله بعض عسكره في طريقه وقتله، وذلك سنة خمس وخمسين، وولى الناس عليهم ابنه محمداً وكتبوا إلى محمد بن أحمد أمير إفريقية فأقره على الولاية وبعث إليه بعهده.

إبراهيم بن أحمد أخو أبي الغرانيق

ولما توفي أبو الغرانيق ولي أخوه إبراهيم، وقد كان عهد لابنه أبي عقال، واستحلف أخاه إبراهيم أن لا ينازعه ولا يعرض له، بل يكون نائباً عنه إلى أن يكبر، فلما مات عدا عليه أهل القيروان وحملوه على الولاية عليهم، لحسن سيرته وعدله فامتنع ثم أجاب وترك وصية أبي الغرانيق في ولده أبي عقال، وانتقل إلى قصر الإمارة وقام بالأمر أحسن قيام.

وكان عادلاً حازماً فقطع البغي والفساد وجلس لسماع شكوى المتظلمين، فأمنت البلاد وبنى الحصون والمحارس بسواحل البحر حتى كانت النار توقد في ساحل سبتة للنذير بالعدو فيتصل إيقادها بالإسكندرية في الليلة الواحدة وبنى سور سوسة.

وفي أيامه كان مسير العباس بن أحمد بن طولون مخالفاً على أبيه صاحب مصر سنة خمس وستين ومائتين فملك برقة من يد محمد بن قهرب قائد ابن الأغلب ثم ملك لبدة، ثم حاصر طرابلس واستمد ابن قهرب بقوسة فأمدوه ولقي العباس بن طولون بقصر حاتم سنة سبع وستين فهزمه، ورجع إلى مصر.

ثم خالفت وزداجة ومنعوا الرهن، وفعلت مثل ذلك هوارة، ثم لواتة، وقتل ابن قهرب في حروبهم فسرح إبراهيم ابنه أبا العباس عبد اللّه إليهم في العساكر سنة تسع وستين فأثخن فيهم.

وفي سنة ثمانين كثر الخوارج وفرق العساكر إليهم فاستقاموا، واستركب العبيد السودان واستكثر منهم فبلغوا ثلاثة آلاف.

وفي سنة إحدى وثمانين انتقل إلى سكنى تونس واتخذ بها القصور، ثم تحرك إلى مصر سنة ثلاث وثمانين لمحاربة ابن طولون، واعترضته نفوسة فهزمهم وأثخن فيهم.

ثم انتهى إلى سرت فانفضت عنه الحشود فرجع، وبعث ابنه أبا العباس عبد اللّه على صقلية سنة سبع وثمانين فوصل إليها في مائة وستين مركباً.

وحصر طرابة وانتقض عليه بليرم وأهل كبركيت، وكانت بينهم فتنة فأغراه كل واحد منهم بالآخرين، ثم اجتمعوا لحربه وزحف إليه أهل بليرم في البحر فهزمهم واستباحهم، وبعث جماعة من وجوهها إلى أبيه، وفر آخرون من أعيانهم إلى القسطنطينية وآخرون إلى طرميس فاتبعهم وعاث في نواحيها.

ثم حاصر أهل قطانية فامتنعوا عليه فأعرض عن قتال المسلمين.

وتجهز سنة ثمان وثمانين للغزو فغزا دمقش، ثم مسيني.

ثم جاء في البحر إلى ربو ففتحها عنوة وشحن مراكبه بغنائمها، ورجع إلى مسيني فهدم سورها، وجاء مدد القسطنطينية في المراكب فهزمهم وأخذ لهم ثلاثين مركباً.

ثم أجاز إلى عدوة الروم وأوقع بأمم الفرنجة من وراء البحر. ورجع إلى صقلية.

وجاء في هذه السنة رسول المعتضد بعزل الأمير إبراهيم

لشكوى أهل تونس به، فاستقدم ابنه أبا العباس من صقلية وارتحل هو إليها مظهراً لغربة الانتجاع.

هكذا قال ابن الرقيق.

وذكر أنه كان جائراً ظلوماً سفاكاً للدماء، وأنه أصابه آخر عمره ماليخوليا أسرف بسببها في القتل، فقتل من خدمه ونسائه وبناته ما لا يحصى.

وقتل ابنه أبا الأغلب لظن ظنه به.

وافتقد ذات يوم منديلاً لشرابه، فقتل بسببه ثلاثمائة خادم.

وأما ابن الأثير فأثنى عليه بالعقل والعدل وحسن السيرة، وذكر أن فتح سرقوسة كان في أيامه على يد جعفر بن محمد أمير صقلية، وأنه حاصرها تسعة أشهر، وجاءهم المدد من قسطنطينية في البحر فهزمهم. ثم فتح البلد واستباحها.

واتفقوا كلهم على أنه ركب البحر من إفريقية إلى صقلية فنزل طرابنة، ثم تحول عنها إلى بليرم ونزل على دمقش وحاصرها سبعة عشر يوماً.

ثم فتح مسيني وهدم سورها.

ثم فتح طرميس آخر شعبان من سنة تسع وثمانين، ووصل ملك الروم بالقسطنطينية ففتحها.

ثم بعث حافده زيادة اللّه ابن ابنه أبي العباس عبد اللّه إلى قلعة بيقش فافتتحها، وابنه أبو محرز إلى رمطة فأعطوه الجزية.

ثم عبر إلى عدوة البحر وسار في بر الفرنج ودخل قلورية عنوة فقتل وسبى، ورهب منه الفرنجة.

ثم رجع إلى صقلية ورغب منه النصارى في قبول الجزية فلم يجب إلى ذلك.

ثم سار إلى كنسة فحاصرها واستأمنوا إليه فلم يقبل.

ثم هلك وهو محاصر لها آخر تسع وثمانين لثمان وعشرين سنة من إمارته، فولى أهل العسكر عليهم حافده أبا مضر ليحفظ العساكر والأمور، إلى أن يصل ابنه أبو العباس، وهو يومئذ بإفريقية، فأمن أهل كنسة قبل أن يعلموا بموت جده، وقبل منهم الجزية، وأقام قليلاً حتى تلاحقت به السرايا من النواحي.

ثم ارتحل وحمل جده إبراهيم فدفنه في بليرم، وقال ابن الأثير: حمله إلى القيروان فدفنه بها.

ظهور الشيعي بكتامة

وفي أيامه ظهر أبو عبد اللّه الشيعي بكتامة يدعو للرضا من آل محمد ويبطن الدعوة لعبيد اللّه المهدي من أبناء إسماعيل الإمام، واتبعه كتامة.

وهو من الأسباب التي دعته للتوبة والإقلاع والخروج إلى صقلية.

وبعث إليه موسى بن عياش صاحب صلة بالخبر، وبعث إبراهيم رسوله إلى الشيعي بأنكجان يهدده ويحذره فلم يقبل، وأجابه بما يكره.

فلما قربت أمور أبي عبد اللّه وجاء كتاب المعتضد لإبراهيم كما قدمناه أظهر التوبة، ومضى إلى صقلية، وكانت بعده بإفريقية حروب أبي عبد اللّه الشيعي مع قبائل كتامة حتى استولى عليهم واتبعوه، وكان إبراهيم قد أسر لابنه أبي العباس في شأن الشيعي ونهاه عن محاربته، وأن يلحق به إلى صقلية إن ظهر عليه.

ابنه أبو العباس عبد اللّه بن إبراهيم أخي محمد أبي الغرانيق

ولما هلك إبراهيم سنة تسع وثمانين كما قدمناه، قدم حافده زيادة اللّه بالجيوش على أبيه أبي العباس عبد اللّه فقام بأمر إفريقية، وعظم غناؤه، وكتب إلى العمال كتاباً يقرأ على الناس بالوعد الجميل والعدل والرفق والجهاد، واعتقل ابنه زيادة اللّه هذا لما بلغه عنه من اعتكافه على اللذات واللّهو، وأنه يروم التوثب عليه، وولى على صقلية مكانه محمد بن السرقوسي، وكان أبو العباس حسن السيرة عادلاً بصيراً بالحروب، وكانت أيامه صالحة، وكان نزوله بتونس.

ولما توفي استولى أبو عبد اللّه الشيعي على كتامة ودخلوا في أمره كافة، وزحف إلى ميلة فافتتحها، وقتل موسى بن عياش.

وكان فتح بن يحيى أمير مسالة من كتامة حارب أبا عبد اللّه طويلاً، ثم غلبه واستولى على قومه، فنزع فتح إلى أبي العباس وحرضه على قتال يكزاخول، وإنما كان يكر على جفنة إذا نظر، وزحف إليه من تونس سنة تسع وثمانين ومائتين ودخل سطيف ثم بلزمة، وقتل من دخل في دعوتهم ولقيه أبو عبد اللّه الشيعي فانهزم وهرب من تاوزرت إن أنكجان، وهدم أبو خول قصر الشيعي، ثم قاتلهم يوماً إلى الليل، فانهزم عسكر أبي خول ولحق

بتونس، ورجع بكتامة إلى مواضعهم.

ولما دخل أبو خول بأبيه جدد له العسكر وأعاده ثانية، وانتظمت إليه القبائل، وسار حتى نزل سطيف.

ثم ارتحل منها إلى لقائهم، وزحف إليه أبو عبد الله فهزمه، ورجع إلى سطيف.

ثم ارتحل منها إلى لقائهم، وفي أثناء ذلك صانع زيادة الله بعض الخدم على قتل أبيه أبي العباس فقتل نائماً في شعبان سنة تسعين ومائتين، وأطلق زيادة الله من اعتقاله.

ابنه أبو مضر زيادة الله

ولما أطلق زيادة الله من الاعتقال اجتمع أهل الدولة وبايعوا له، فقتل الخصيان الذين قتلوا أباه، وأقبل على اللذات واللهو ومعاشرة المضحكين والصفاعين، وأهمل أمور الملك واستقل وكتب إلى أخيه أبي خول على لسان أبيه يستقدمه، وقدم فقتله وقتل عمومته وإخوته.

وقوي أمر الشيعي، وانتقل زيادة الله إلى رقادة ليلاً لئلا يخالفه الشيعي إليها.

وفتح الشيعي مدينة سطيف فسرح زيادة الله العساكر لحربه، وعقد عليها لإبراهيم بن حبيش من صنائعه، فخرج في أربعين ألفاً، وأقام بقسطيلة ستة أشهر، فاجتمعت إليه مائة ألف، وزحف إلى كتامة، وتلقوه بأجانة فاخترمت عساكره وولت الهزيمة عليه.

وانتهى إلى باغاية، ثم انتقل إلى القيروان وافتتح أبو عبد الله مدينة طبنة، وقتل فتح بن يحيى المسالتي وكان بها.

ثم فتح بلزمة وهدم سورها.

ثم وصل عروبة بن يوسف من أمراء كتامة إلى باغاية، وأوقع بالعساكر التي كانت بها مجمرة لحربهم بنظر هارون بن الطبني.

وأرسل أبو عبد الله الشيعي إلى تيجيس فحاصرها، ثم افتتحها صلحاً، وكثر الأرجاف بالقيروان ففتح زيادة الله ديوان العطاء، واستلحق واستركب وأجمع الخروج فخرج إلى الأربس سنة خمس وتسعين، فلما انتهى إليها تخوف غائلة الشيعي، وأشار عليه أهل بيته بالرجوع فرجع إلى رقادة، وقدم على العساكر إبراهيم بن أبي الأغلب من وجوه أهل بيته.

ثم زحف أبو عبد الله إلى باغاية ففتحها صلحاً وهرب عاملها.

ثم سرَّب أبو عبد الله الجيوش فبلغت مجانة، وأوقعوا بقبائل نفزة، واستولوا على تيفاش.

وزحف ابن أبي الأغلب إلى تيفاش فمنعه أهلها، وهزموا طلائعه فافتتحها، وقتل من كان بها.

ثم خرج أبو عبد الله الشيعي في عساكر كتامة إلى باغاية ثم إلى سكاية، ثم إلى سبيبة، ثم إلى حمودة فاستولى على جميعها، وأمن أهلها ورحل ابن أبي الأغلب من الأربس.

ثم سار أبو عبد الله إلى قسطيلة وقفصة فأمنهم، ودخلوا في دعوته، وانصرف إلى باغاية، ثم إلى أنكجان.

وزحف ابن أبي الأغلب إلى باغاية فقاتلها، وامتنعت عليه ورجع إلى الأربس.

ثم زحف أبو عبد الله إلى الأربس سنة ست وتسعين في جمادى، ومر بشق بنارية، وأمن أهلها إلى قمودة.

خروج زيادة الله إلى المشرق

ولما وصل الخبر إلى زيادة الله بوصول الشيعي إلى قمودة، حمل أمواله وأثقاله ولحق بطرابلس معتزماً على الشرق.

وأقبل الشيعي إلى إفريقية، وفي مقدمته عروبة بن يوسف وحسن بن أبي خنزير، ووصل إلى رقادة في رجب سنة ست وتسعين ومائتين وتلقاه أهل القيروان وبايعوا لعبيد الله المهدي كما ذكرناه في أخبارهم ودولتهم.

وأقام زيادة الله بطرابلس سبعة عشر يوماً، وانصرف ومعه إبراهيم بن الأغلب، وكان نمي عنه أنه أراد الاستبداد لنفسه بالقيروان بعد خروج زيادة الله فأعرض عنه، واطرحه، وبلغ مصر فمنعه عاملها عيسى البرشدي من الدخول إلا عن أمر الخليفة، وأنزله بظاهر البلد ثمانية أيام وانصرف إلى ابن الفرات وزير المقتدر يستأذن له في الدخول فأتاه كتابه بالمقام في الرقة حتى يأتيه رأي المقتدر فأقام بها سنة.

ثم جاءه كتاب المقتدر بالرجوع إلى إفريقية.

وأمر النوشزي بإمداده بالرجال والمال لاسترجاع الدعوة بإفريقية، ووصل إلى مصر فأصابته بها علة مزمنة، وسقط شعره.

ويقال إنه سم وخرج إلى بيت المقدس ومات بها.

وتفرق بنو الأغلب وانقطعت أيامهم والبقاء لله وحده.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

بقية أخبار صقلية ودولة بني أبي الحسن الكلبيين بها من العرب المستبدين بدعوة العبيديين وبداية أمرهم وتصاريف أحوالهم

ولما استولى عبيد الله المهدي على إفريقية ودانت له، وبعث العمال في نواحيها، بعث على جزيرة صقلية الحسن بن محمد بن أبي خنزير من رجالات كتامة، فوصل إلى مازر سنة سبع وتسعين ومائتين في العساكر، فولى أخاه على كبركيت، وولى على القضاء بصقلية إسحاق بن المنهال، ثم سار سنة ثمان وتسعين ومائتين في العساكر إلى ومش، فعاث في نواحيها ورجع.

ثم شكا أهل صقلية سوء سيرته وثاروا به وحبسوه، وكتبوا إلى المهدي معتذرين، فقبل عذرهم وولى عليهم أحمد بن قهرب.

وبعث سرية إلى أرض قلورية فدوخوها ورجعوا بالغنائم والسبي.

ثم أرسل سنة ثلاثمائة ابنه علياً إلى قلعة طرمين المحدثة ليتخذها حصناً لحاشيته وأمواله، حذراً من ثورة أهل صقلية، فحصرها ابنه ستة أشهر.

ثم اختلف عليه العسكر فأحرقوا خيامه، وأرادوا قتله فمنعه العرب، ودعا هو الناس إلى طاعة المقتدر فأجابوه.

وقطع خطبة المهدي وبعث الأسطول إلى إفريقية، ولقوا أسطول المهدي وقائده الحسن بن أبي خنزير فقتلوه، وأحرقوا الأسطول.

وسار أسطول بن قهرب إلى صفاقس فخربوها وانتهوا إلى طرابلس، وانتهى الخبر إلى القائم بن المهدي ثم وصلت الخلع والألوية من المقتدر إلى ابن قهرب، ثم بعث الجيش في الأسطول إلى قلورية فعاثوا في نواحيها ورجعوا، ثم بعث ثانية أسطولاً إلى إفريقية فظفر به أسطول المهدي فانتقض أمره، وعصى عليه أهل كبركيت، وكاتبوا المهدي.

ثم ثار الناس بابن قهرب آخر الثلاثمائة وحبسوه، وأرسلوه إلى المهدي فأمر بقتله على قبر ابن خنزير في جماعة من خاصته.

وولى على صقلية أبا سعيد بن أحمد، وبعث معه العساكر من كتامة فركب إليها البحر فنزل في طرابنة، وعصى عليه أهل صقلية بمن معه من العساكر فامتنعوا عليه، وقاتله أهل كبركيت وأهل طرابنة فهزمهم وقتلهم.

ثم استأمن إليه أهل طرابنة فأمنهم وهدم أبوابها، وأمره المهدي بالعفو عنهم.

ثم ولى المهدي على صقلية سالم بن راشد، وأمده سنة ثلاث عشرة بالعساكر فعبر البحر إلى أرض إنكبردة فدوخها، وفتحوا فيها حصوناً ورجعوا.

ثم عادوا إليها ثانية وحاصروا مدينة أدرنت أياماً ورحلوا عنها.

ولم يزل أهل صقلية يغيرون على ما بأيدي الروم من جزيرة صقلية وقلورية، ويعيثون في نواحيها.

وبعث المهدي سنة اثنتين وعشرين جيشاً في البحر مع يعقوب بن إسحاق، فعاث في نواحي جنوة ورجعوا.

ثم بعث جيشه من قابل ففتحوا مدينة جنوة، ومروا بسردانية فأحرقوا فيها مراكب وإنصرفوا.

ولما كانت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة انتقض أهل كبركيت على أميرهم سالم بن راشد وقاتلوا جيشه، وخرج إليهم سالم بنفسه فهزمهم وحصرهم ببلدهم.

واستمد القائم فأمده بالعساكر مع خليل بن إسحاق، فلما وصل إلى صقلية شكا إليه أهلها من سالم بن راشد واسترحمته النساء والصبيان.

وجاءه أهل كبركيت وغيرها من أهل صقلية بمثل ذلك فرق لشكواهم، ودس إليهم سالم بأن خليلاً إنما جاء للانتقام منهم بمن قتلوا من العسكر فعاودوا الخلاف، واختط خليل مدينة على مرسى المدينة، وسماها الخالصة.

وتحقق بذلك أهل كبركيت ما قال لهم سالم، واستعدوا للحرب، فسار إليهم خليل منتصف ست وعشرين وحصرهم ثمانية أشهر يغاديهم بالقتال ويراوحهم، حتى إذا جاء الشتاء رجع إلى الخالصة، واجتمع أهل صقلية على الخلاف، واستمدوا ملك القسطنطينية فأمدهم بالمقاتلة والطعام.

واستمد خليل القائم فأمده بالجيش فافتتح قلعة أبي ثور وقلعة البلوط، وحاصر قلعة بلاطنو إلى أن انقضت سنة سبع وعشرين فارتحل عنها وحاصر كبركيت.

ثم حبس عليها عسكراً للحصار مع أبي خلف بن هارون ورحل عنها، وطال حصارها إلى سنة تسع وعشرين فهرب كثير من أهل البلد إلى بلد الروم واستأمن الباقون فأمنهم على النزول

عن القلعة.

ثم غدر بهم فارتاع لذلك سائر القلاع وأطاعوا ورجع خليل إلى إفريقية آخر سنة تسع وعشرين وحمل معه وجوه أهل كبركيت في سفينة، وأمر بخرقها في لجة البحر فغرقوا أجمعين.

ثم ولى على صقلية عطاف الأزدي، ثم كانت فتنة أبي يزيد، وشغل القائم والمنصور بأمره، فلما انقضت فتنة أبي يزيد عقد المنصور على صقلية للحسن بن أبي الحسن الكلبي من صنائعهم ووجوه قواده وكنيته أبو الغنائم، وكان له في الدولة محل كبير وفي مدافعة أبي يزيد غناء عظيم.

وكان سبب ولايته أن أهل بليرم كانوا قد استضعفوا عطافاً واستضعفهم العدو لعجزه، فوثب به أهل المدينة يوم الفطر من سنة خمس وثلاثين، وتولى كبر ذلك بنو الطير منهم.

ونجا عطاف إلى الحصن وبعث للمنصور يعلمه ويستمده، فولى الحسن بن علي على صقلية وركب البحر إلى مازر، وأرسى بها فلم يلقه أحد منهم.

وأتاه في الليل جماعة من كتامة واعتذروا إليه عن الناس بالخوف من بني الطير.

وبعث بنو الطير عيونهم عليه واستضعفوه وواعدوه أن يعودوا إليه فسبق ميعادهم ودخل المدينة، ولقيه حاكم البلد وأصحاب الدواوين واضطر بنو الطير إلى لقائه، وخرج إليهم كبيرهم إسماعيل ولحق به من انحرف عن بني الطير، فكثر جمعه.

ودس إسماعيل بعض غلمانه، فاستغاث بالحسن من بعض عبيده أنه أكره امرأته على الفاحشة، يعتقد أن الحسن لا يعاقب مملوكه، فتخشن قلوب أهل البلد عليه.

وفطن الحسن لذلك فدعا الرجل واستحلفه على دعواه، وقتل عبده فسر الناس بذلك، ومالوا عن الطيري وأصحابه، وافترق جمعهم وضبط الحسن أمره، وخشي الروم بادرته فدفعوا إليه جزية ثلاث سنين.

وبعث ملك الروم بطريقاً في البحر في عسكر كبير إلى صقلية، واجتمع هو والسردغرس.

واستمد الحسن بن علي المنصور فأمده بسبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف وخمسمائة راجل، وجمع الحسن من كان عنده وسار براً وبحراً.

وبعث السرايا في أرض قلورية، ونزل على أبراجه فحاصرها وزحف إليه الروم فصالحه على مال أخذه، وزحف إلى الروم ففروا من غير حرب.

ونزل الحسن على قلعة قيشانة فحاصرها شهراً وصالحهم على مال ورجع بالأسطول إلى مسيني فشتى بها.

وجاءه أمر المنصور بالرجوع إلى قلورية فعبر إلى خراجة فلقي الروم والسردغرس فهزمهم، وامتلأ من غنائمهم، وذلك يوم عرفة سنة أربعين وثلاثمائة.

ثم سار إلى خراجة فحاصرها حتى هادنه ملك الروم قسطنطين.

ثم عاد إلى ربو وبنى بها مسجداً وسط المدينة، وشرط على الروم أن لا يعرضوا له، وأن من دخله من الأسرى أمن.

ولما توفي المنصور وملك ابنه المعز سار إليه الحسن، واستخلف على صقلية ابنه أحمد، وأمره المعز بفتح القلاع التي بقيت للروم بصقلية فغزاها، وفتح طرمين وغيرها سنة إحدى وخمسين، وأعيته رمطة فحاصرها فجاءها من القسطنطينية أربعون ألفاً مدداً.

وبعث أحمد يستمد المعز فبعث إليه المدد بالعساكر والأموال مع أبيه الحسن.

وجاء مدد الروم فنزلوا بمرسى مسينة وزحفوا إلى رومطة، ومقدم الجيوش على حصارها الحسن بن عمار وابن أخي الحسن بن علي فأحاط الروم بهم.

وخرج أهل البلد إليهم وعظم الأمر على المسلمين فاستماتوا وحملوا على الروم وعقروا فرس قائدهم منويل فسقط عن فرسه، وقتل جماعة من البطارقة معه.

وانهزم الروم وتتبعهم المسلمون بالقتل، وامتلأت أيديهم من الغنائم والأسرى والسبي.

ثم فتحوا رمطة عنوة وغنموا ما فيها، وركب فل الروم من صقلية وجزيرة رفق في الأسطول ناجين بأنفسهم، فأتبعهم الأمير أحمد في المراكب فحرقوا مراكبهم، وقتل كثير منهم، وتعرف هذه الوقعة بوقعة المجاز، وكانت سنة أربع وخمسين وأسر فيها ألف من عظمائهم ومائة بطريق.

وجاءت الغنائم والأسارى إلى مدينة بليرم، حاضرة صقلية، وخرج الحسن للقائهم، فأصابته الحمى من الفرح فمات، وحزن الناس عليه، وولي ابنه أحمد باتفاق أهل صقلية بعد أن ولى المعز عليهم يعيش مولى الحسن فلم ينهض بالأمر، ووقعت الفتنة بين كتامة والقبائل، وعجز عن تسكينها.

وبلغ الخبر إلى المعز فولى عليها أبا القاسم علي بن الحسن نيابة عن أخيه أحمد.

ثم توفي أحمد بطرابلس سنة تسع وخمسين واستبد بالإمارة أخوه أبو القاسم علي، وكان مدلاً محباً.

وسار إليه سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة ملك الفرنج في جموع عظيمة، وحصر قلعة رمطة وملكها، وأصاب سرايا المسلمين.

وسار الأمير أبو القاسم في العساكر من بليرم يريدهم، فلما قاربهم خاف من اللقاء ورجع، وكان الفرنج في الأسطول يعاينونه فبعثوا بذلك للملك بردويل فسار في اتباعه وأدركه فاقتلوا، وقتل أبو القاسم في الحرب.

وأهم المسلمين أمرهم فاستماتوا، وقاتلوا الفرنج فهزموهم أقبح هزيمة، ونجا بردويل إلى خيامه برأسه، وركب البحر إلى رومة.

وولى المسلمون عليهم بعد الأمير أبي القاسم ابنه جابر فرحل بالمسلمين لوقته راجعاً، ولم يعرج على الغنائم.

وكانت ولاية الأمير أبي القاسم اثنتي عشرة سنة ونصفاً. وكان عادلاً حسن السيرة.

ولما ولي ابن عمه جعفر بن محمد بن علي بن أبي الحسن، وكان من وزراء العزيز وندمائه استقامت الأمور، وحسنت الأحوال، وكان يحب أهل العلم ويجزل الهبات لهم.

وتوفي سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وولي أخوه عبد الله فاتبع سيرة أخيه إلى أن توفي سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وولي إبنه ثقة الدولة أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي الحسن، فأنسى بجلائله وفضائله من كان قبله منهم إلى أن أصابه الفالج، وعطل نصفه الأيسر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة.

وولي ابنه تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة يوسف، فضبط الأمور وقام بأحسن قيام وخالف عليه أخوه علي سنة خمس وأربعمائة مع البربر والعبيد، فزحف إليه جعفر فظفر به وقتله، ونفى البربر والعبيد، واستقامت أحواله.

ثم انقلبت حاله واختلت على يد كاتبه ووزيره حسن بن محمد الباغاني فثار عليه الناس بسببها، وجاؤوا حول القصر، وأخرج إليهم أبو الفتوح في محفة فتلطف بالناس، وسلم إليهم الباغاني فقتلوه، وقتلوا حافده أبا رافع، وخلع ابنه ابن جفعر، ورحل إلى مصر، وولى ابنه ابن جعفر سنة عشرة وأربعمائة ولقبه بأسد الدولة بن تاج الدولة.

ويعرف بالأكحل فسكن الاضطراب واستقامت الأحوال، وفوض الأمور إلى ابنه ابن جعفر وجعل مقاليد الأمور بيده فأساء ابن جعفر السيرة، وتحامل على صقلية ومال إلى أهل إفريقية.

وضج الناس وشكوا أمرهم إلى المعز صاحب القيروان، وأظهروا دعوته، فبعث الأسطول فيه ثلاثمائة فارس مع ولديه عبد الله وأيوب، واجتمع أهل صقلية وحصروا أميرهم الأكحل، وقتل وحمل رأسه إلى المعز سنة سبع عشرة وأربعمائة.

ثم ندم أهل صقلية على ما فعلوه وثاروا بأهل إفريقية، وقتلوا منهم نحواً من ثلاثمائة وأخرجوهم.

وولوا الصمصام أخا الأكحل فاضطربت الأمور، وغلب السفلة على الأشراف.

ثم ثار أهل بليرم على الصمصام وأخرجوه، وقدموا عليهم ابن الثمنة من رؤوس الأجناد، وتلقب القادر بالله واستبد بمازر ابنه عبد الله قبل الصمصام، وغلب ابن الثمنة على ابن الأكحل فقتله واستقل بملك الجزيرة إلى أن أخذت من يده.

ولما استبد ابن الثمنة بصقلية تزوج ميمونة بنت الجراس، فتخيل له منها شيء فسقاها السم.

ثم تلافاها وأحضر الأطباء فأنعشوها، وأفاقت فندم واعتذر فأظهرت له القبول، واستأذنته في زيارة أخيها بقصريانة، وأخبرت أخاها فحلف أن لا يردها، ووقعت الفتنة.

وحشد ابن الثمنة فهزمه ابن جراس فانتصر ابن الثمنة بالروم.

وجاء القمص وجاز ابن ينقر بن خبرة ومعه سبعة من إخوته وجمع من الإفرنج ووعدهم بملك صقلية فداخل في بيع مية.

وقصد قصريانة وحكموا على مروا من المنازل، وخرج ابن جراس فهزمه ورجع إلى إفريقية عمر بن خلف بن مكي فنزل تونس، وولي قضاءها.

ولم يزل الروم يملكونها حتى لم يبق إلا المعاقل.

وخرج ابن الجراس بأهله وماله صلحاً سنة أربع وستين وأربعمائة.

وتملكها رجار كلها وانقطعت كلمة الإسلام منها ودولة الكلبيين وهم عشرة ومدتهم خمس وتسعون سنة.

ومات رجار في قلعة مليطو من أرض قلورية سنة أربع وتسعين، وولي ابنه رجار الثاني وطالت أيامه.

وله الف الشريف أبو عبد اللّه الإدريسي كتاب «نزهة المشتاق في أخبار الآفاق» وسماه قصار رجار علماً عليه معروفاً به في الشهرة واللّه مقدر الليل والنهار.

الخبر عن جزيرة إقريطش وما كان بها للمسلمين من الملك على يد بني البلوطي إلى أن استرجعها العدو

هذه الجزيرة من جزر البحر الرومي ما بين صقلية وقبرس في مقابلة الإسكندرية على يد الجالية أهل الربض.

وذلك أن أهل الربض الغربي من قرطبة، وكان محلة متصلة بقصر الحكم بن هشام فنقموا عليه وثاروا به سنة اثنتين ومائتين، فأوقع بهم الوقعة المشهورة واستلحمهم، وهدم ديارهم ومساجدهم، وأجلى الفل منهم إلى العدوة، ونزلوا بفاس وغيرها.

وغرب آخرين إلى الإسكندرية فنزلوا وافترقوا في جوانبها.

وتلاحى رجل منهم مع جزار من سوقة الإسكندرية فنادوا بالثأر، واستلحموا كثيراً من أهل البلد وأخرجوا بقيتهم وامتنعوا بها، وولوا عليهم أبا حفص عمر بن شعيب البلوطي ويعرف بأبي الفيض من أهل قرية مطروح، من عمل فحص البلوط المجاور لقرطبة فقام برياستهم.

وكان على مصر يومئذ عبد اللّه بن طاهر فزحف إليهم، وحصرهم بالإسكندرية فاستأمنوا له فأمنهم وبعثهم إلى جزيرة أقريطش فعمروها وأميرهم أبو حفص البلوطي.

وتداولها بنوه من بعده مدة من مائة وأربعين سنة إلى أن ملكها أريانوس بن قسطنطين ملك القسطنطينية من يد عبد العزيز بن شعيب من أعقابه سنة خمس وثلاثمائة، وأخرجوا المسلمين منها واللّه يعيد الكرة ويذهب آثار الكفرة، واللّه سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

أخبار اليمن والدول الاسلامية التي كانت فيه للعباسيين والعبيديين وسائر ملوك العرب وابتداء ذلك وتصاريفه على الجملة ثم تفصيل ذلك على مدنه وممالكه واحدة بعد واحدة

قد كنا قدمنا في أخبار السير النبوية كيف صار اليمن في ملكة الإسلام بدخول عامله في الدعوة الإسلامية، وهو باذان عامل كسرى، وأسلم معه أهل اليمن.

وأمرّه النبي ﷺ على جميع مخاليفها، وكان منزله صنعاء كرسي التبابعة.

ولما مات بعد حجة الوداع قسم النبي ﷺ اليمن على عمال من قبله، وجعل صنعاء لابنه شهربان بن باذان.

وذكرنا خبر الأسود العنسي، وكيف أخرج عمال النبي ﷺ من اليمن وزحف إلى صنعاء فملكها.

وقتل شهربان بن باذان وتزوج إمرأته واستولى على أكثر اليمن، وارتد أكثر أهله.

وكتب النبي ﷺ إلى أصحابه وعماله وإلى من ثبت على إسلامه فداخلوا زوجة شهربان بن باذان التي تزوجها في أمره، على يد ابن عمها فيروز.

وتولى كبر ذلك قيس بن عبد يغوث المرادي، فبيّته هو وفيروز وذاذويه بإذن زوجته فقتلوه.

ورجع عمال النبي ﷺ إلى أعمالهم، وذلك قبيل الوفاة.

واستبد قيس بصنعاء وجمع الفل من جند الأسود فولى أبو بكر على اليمن فيروز فيمن إليه من الأبناء، وأمر الناس بطاعته فقاتل قيس بن مكشوح وهزمه ثم ولى أبو بكر المهاجر بن أبي أمية فقاتل أهل الردة باليمن، وكذلك عكرمة بن أبي جهل، وأمره أن يبدأ بالمرتده ثم دعته عائشة، فسار معها وحضر حرب الجمل.

وولي على اليمن عبيد اللّه بن عباس، ثم أخاه عبد اللّه.

ثم ولى معاوية على صنعاء فيروز الديلمي، ومات سنة ثلاث وخمسين.

ثم جعل عبد الملك اليمن في ولاية الحجاج لما بعثه لحرب ابن الزبير سنة اثنتين وسبعين.

ولما جاءت دولة بني العباس، ولى السفاح على اليمن عمه داود بن علي حتى إذا توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة، ولى مكانه محمد بن يزيد بن عبيد الله بن عبد الملك عبد الدار.

ثم تعاقب الولاة على اليمن، وكانوا ينزلون صنعاء حتى انتهت الخلافة إلى المأمون، وظهرت دعاة الطالبيين بالنواحي، وبايع أبو السرايا من بني شيبان بالعراق لمحمد بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم أخو المهدي، النفس الزكية، محمد بن عبد الله بن حسن.

وكثر الهرج وفرق العمال في الجهات، ثم قتل وبويع محمد بن جعفر الصادق بالحجاز.

وظهر باليمن إبراهيم بن موسى الكاظم سنة مائتين، ولم يتم أمره، وكان يعرف بالجزار لسفكه الدماء وبعث المأمون عساكره إلى اليمن فدوخوا نواحيه وحملوا كثيراً من وجوه الناس فاستقام أمر اليمن كما نذكره.

دعوة زياد بالدعوة العباسية

ولما وفد وجوه أهل اليمن على المأمون، كان فيهم محمد زياد ولد عبد الله بن زياد بن أبي سفيان فاستعطف المأمون وضمن له حياطة اليمن من العلويين فوصله، وولاه على اليمن، وقدمها سنة ثلاث ومائتين.

وفتح تهامة اليمن وهي البلد التي على ساحل البحر الغربي، واختط بها مدينة زبيد، ونزلها وأصارها كرسياً لتلك المملكة، وولى على الجبال مولاه جعفراً، وفتح تهامة بعد حروب من العرب، واشترط على عرب تهامة أن لا يركبوا الخيل، واستولى على اليمن أجمع، ودخلت في طاعته أعمال حضرموت والشحر وديار كندة، وصار في مرتبة التبابعة.

وكان في صنعاء قاعدة اليمن بنو جعفر من حمير بقية الملوك التبابعة استبدوا بها مقيمين بالدعوة العباسية، ولهم مع صنعاء سحان ونجران وجرش.

وكان أخوهم أسعد بن يعفر، ثم أخوه قد دخلوا في طاعة ابن زياد، وولي بعده ابنه إبراهيم ثم ابنه زياد بن إبراهيم، ثم أخوه أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم، وطالت مدته إلى أن أسن وبلغ الثمانين.

وقال عمارة: ملك ثمانين سنة باليمن وحضرموت والجزائر البحرية، ولما بلغه قتل المتوكل وخلع المستعين، واستبداد الموالي على الخلفاء مع ارتفاع اليمن ركب بالمظلة شأن سلاطين العجم المستبدين.

وفي أيامه خرج باليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي بن إبراهيم بن طباطبا بدعوة الزيدية، جاء بها من السند، وكان جده القاسم قد فر إلى السند بعد خروج أخيه محمد مع أبي السرايا، ومهلكه كما مر فلحق القاسم بالسند.

وأعقب بها الحسين ثم ابنه يحيى باليمن سنة ثمان وثمانين، ونزل صعدة وأظهر دعوة الزيدية، وزحف إلى صنعاء فملكها من يد أسعد بن يعفر، ثم استردها منه بنو أسعد ورجع إلى صعدة.

وكان شيعته يسمونه الإمام، وعقبه الآن بها، وقد تقدم خبرهم.

وفي أيام أبي الجيش بن زياد أيضاً ظهرت دعوة العبيديين باليمن، فأقام بها محمد بن الفضل بعدن لاعة وجبال اليمن إلى جبال المديحرة سنة أربعين وثلاثمائة.

وبقي له باليمن من السرجة إلى عدن عشرون مرحلة، ومن مخلافة إلى صنعاء خمس مراحل.

ولما غلبه محمد بن الفضل بهذه الدعوة امتنع أصحاب الأطراف عليه، مثل بني أسعد بن يعفر بصنعاء، وسليمان بن طرف بعثر، والإمام الرسي بصعدة فسلك معهم طريق المهادنة.

ثم هلك أبو الجيش سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة بعد أن اتسعت جبايته وعظم ملكه.

قال ابن سعيد: رأيت مبلغ جبايته وهو ألف ألف مكررة مرتين، وثلاثمائة ألف وستة وستون ألفاً من الدنانير العشرية ما عدا ضرائبه على مراكب السند، وعلى العنبر الواصل بباب المندب وعدن أبين، وعلى مغائص اللؤلؤ، وعلى جزيرة دهلك، ومن بعضها وصائف.

وكانت ملوك الحبشة من وراء البحر يهادونه ويخطبون مواصلته.

ولما مات خلف صبياً صغيراً اسمه عبد الله، وقيل: إبراهيم وقيل: زياد، وكفلته أخته ومولاه رشيد الحبشي واستبد عليهم إلى أن انقرضت دولتهم سنة سبع وأربعمائة، ثم هلك هذا الطفل، فولوا طفلاً آخر من بني زياد أصغر منه.

وقال ابن سعيد: لم يعرف عمارة إسمه لتوالي الحجبة عليه، ويعني عمارة مؤرخ اليمن، وقيل: هذا الطفل الأخير اسمه إبراهيم، وكفلته عمته ومرجان من موالي الحسن بن سلامة.

واستبد بأمرهم ودولتهم، وكان له موليان اسم أحدهما قيس، والآخر نجاح، فجعل الطفل المملك في كفالته وأنزله معه بزبيد، وولى نجاحاً على سائر الأعمال خارج زبيد ومنها الكرارة واللجم.

كان يؤثر قيساً على نجاح، ووقع بينهما تنافر، ورفع لقيس أن عمة الطفل تميل إلى نجاح وتكاتبه دونه فقبض عليها بإذن مولاه مرجان ودفنها حية، واستبد وركب بالمظلة، وضرب السكة، وانتقض نجاح لذلك فزحف في العساكر وبرز قيس للقائه، فكانت بينهما حروب ووقائع، انهزم قيس في آخرها وقتل في خمسة آلاف من عسكره.

وملك نجاح زبيد سنة عشرة وأربعمائة ودفن قيساً ومولاه مرجاناً مكان الطفل والعمة، واستبد وضرب السكة باسمه، وكاتب ديوان الخلافة ببغداد فعقد له على اليمن.

ولم يزل مالكاً لتهامة قاهراً لأهل الجبال، وانتزع الجبال كلها من مولاه الحسن بن سلامة.

ولم تزل الملوك تتقي صولته إلى أن قتله علي الصليحي القائم بدعوة العبيديين على يد جارية بعث بها إليه سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة، فقام بالأمر بعده زبيد مولاه كهلان.

ثم استولى الصليحي على زبيد وملكها من يده كما يذكر.

الخبر عن بني الصليحي القائمين بدعوة العبيديين باليمن

كان القاضي محمد بن علي الهمداني ثم الصليحي رئيس حران من بلاد همذان، وينتسب في بني يام، ونشأ له ولد اسمه علي، وكان صاحب الدعوة يومئذ عامر بن عبد الله الزوايي نسبة إلى زواية من قرى حران، ويقال: إنه كان عنده كتاب «الجعفر» من ذخائر أبيهم بزعمهم، فزعموا أن علي ابن القاضي محمد مذكور فيه، فقرأ على علي عامل الداعي، وأخذ عنه، ولما توسم فيه الأهلية أراه مكان إسمه في «الجفر» وأوصافه، وقال لأبيه القاضي: احتفظ بابنك فيملك جميع اليمن.

ونشأ فقيهاً صالحاً، وجعل يحج بالناس على طريق الطائف والسروات خمس عشرة سنة فطار ذكره، وعظمت شهرته، وألقى على ألسنة الناس أنه سلطان اليمن، ومات الداعي عامر الزوايي، فأوصى له بكتبه، وعهد إليه بالدعوة.

ثم حج بالناس سنة ثمان وعشرين وأربعمائة على عادته، واجتمع بجماعة من قومه همدان كانوا معه، فدعاهم إلى النصرة والقيام معه فأجابوه وبايعوه، وكانوا ستين رجلاً من رجالات قومهم، فلما عادوا قام في مسار وهو حصن بذروة جبل حمام، وحصن ذلك الحصن، ولم يزل أمره ينمى.

وكتب إلى المستنصر صاحب مصر يسأله الإذن في إظهار الدعوة فأذن له، وأظهرها وملك اليمن كله.

ونزل صنعاء واختط بها القصور وأسكن عنده ملوك اليمن الذين غلب عليهم، وهزم بني طرف ملوك عثرة وتهامة، وأعمل الحيلة في قتل نجاح مولى بني زياد ملك زبيد، حتى تم له ذلك على يد جارية أهداها إليه كما ذكرناه سنة اثنتين وخمسين.

ثم سار إلى مكة بأمر المستنصر صاحب مصر ليمحو منها الدعوة العباسية والأمارة الحسنية.

واستخلف على صنعاء ابنه المكرم أحمد، وحمل معه زوجته أسماء بنت شهاب، قد سباها سعيد بن نجاح ليلة البيات فكتبت إلى ابنها المكرم: إني حبلى من العبد الأحول فأدركني قبل أن أضع، وإلا فهو العار الذي لا يمحوه الدهر، فسار المكرم من صنعاء سنة خمس وسبعين في ثلاثة آلاف، ولقي الحبشة في عشرين ألفاً فهزمهم.

ولحق سعيد بن نجاح بجزيرة دهلك، ودخل المكرم إلى أمه وهي جالسة بالطاق الذي عنده رأس الصليحي وأخيه فأنزلهما ودفنهما ورفع السيف، وولى خاله أسعد بن شهاب على أعمال تهامة كما كان، وأنزله بزبيد منها، وارتحل بأمه إلى صنعاء وكانت تدبر ملكه.

ثم جمع أسعد بن شهاب أموال تهامة وبعث بها مع وزيره أحمد بن سالم ففرقتها أسماء على وفود العرب.

ثم هلكت أسماء سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وخرجت زبيد من يد المكرم، واستردها سعيد بن نجاح سنة تسع وسبعين وأربعمائة، ثم انتقل المكرم إلى ذي جبلة سنة ثمانين وأربعمائة، وولى على صنعاء عمران بن الفضل الهمداني فاستبد بها، وتوارثها عقبه، وتسمّى ابنه أحمد باسم السلطان واشتهر به، وبعده ابنه حاتم بن أحمد، وليس بعده بصنعاء من له ذكر حتى ملكها بنو سليمان لما غلبهم الهواشم على مكة كما مر في أخبارهم.

ولما انتقل المكرم إلى ذي جبلة وهي مدينة اختطها عبد الله بن محمد الصليحي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وكان انتقاله بإشارة زوجه سيدة بنت أحمد التي صار إليها تدبير ملكه بعد أمه أسماء فنزلها، وبنى فيها دار العز، وتحيل على قتل سعيد بن نجاح

فتم له كما نذكر في أخبار ابن نجاح، وكان مشغولاً بلذاته محجوباً بزوجته.

ولما حضرته الوفاة سنة أربع وثمانين عهد إلى ابن عمه المنصور بن أحمد المظفر بن علي الصليحي صاحب معقل أشيح، وأقام بمعقله وسيدة بنت أحمد بذي جبلة، وخطبها المنصور سبا وامتنعت منه فحاصرها بذي جبلة، وجاءها أخوها لأمها سليمان بن عامر وأخبرها أن المستنصر زوجك منه، وأبلغها أمره بذلك، وتلا عليها: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

وأن أمير المؤمنين زوجك من الداعي المنصور أبي حمير سبا بن أحمد بن المظفر على مائة ألف دينار، وخمسين ألفاً من أصناف التحف واللطائف فانعقد النكاح، وسار إليها من معقل أشيح إلى ذي جبلة، ودخل إليها بدار العز، ويقال: إنها شبهت بجارية من جواريها فقامت على رأسه ليلها كله، وهو لا يرفع الطرف إليها حتى أصبح فرجع إلى معقله، وأقامت هي بذي جبلة، وكان المتولي عليها المفضل بن أبي البركات من بني تام رهط الصليحي، واستدعى عشيرته جنيا، وأنزلهم عنده بذي جبلة فكان يسطو بهم، وكانت سيدة تأتي التعكر في الصيف، وبه ذخائرها وخزائنها، فإذا جاء الشتاء رجعت إلى ذي جبلة.

ثم انفرد المفضل لقتال نجاح فرتب في حصن التعكر فقيهاً يلقب بالجمل، مع جماعة من الفقهاء أحدهم إبراهيم بن زيد بن عمر عمارة الشاعر، فبايعوا الجمل على أن يمحو الدعوة الإمامية فرجع المفضل من طريقه وحاصرهم، وجاءت خولان لنصرتهم، وضايقهم المفضل وهلك في حصارهم سنة أربع وخمسمائة، فجاءت بعده الحرة سيدة وأنزلتهم على عهد فنزلوا، ووفت لهم به وكفلت عقب المفضل وولده، وصار معقل التعكر في يد عمران بن الذر الخولاني وأخيه سليمان، واستولى عمران على الحرة سيدة مكان المفضل.

ولما ماتت استبد عمران وأخوه بحصن التعكر، واستولى منصور بن المفضل بن أبي البركات على ذي جبلة حتى باعه من الداعي الذريعي صاحب عدن كما يأتي، واعتصم بمعقل أشيح الذي كان للداعي المنصور سبا بن أحمد، وذلك أن المنصور توفي سنة ست وثمانين وأربعمائة، واختلف أولاده من بعده، وغلب ابنه علي منهم على المعقل، وكان ينازع المفضل بن أبي البركات والحرة سيدة، وأعياهما أمره، فتحيل المفضل بسم أودعه سفرجلاً أهداه إليه فمات منه، واستولى بنو أبي البركات على بني المظفر في أشيح وحصونه، ثم باع حصن ذي جبلة من الداعي الزريعي صاحب عدن بمائة ألف دينار.

ولم يزل يبيع معاقله حصناً حصناً حتى لم يبق له غير معقل تعز، أخذه منه علي بن مهدي بعد أن ملك ثمانين سنة، وبلغ من العمر مائة سنة، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

الخبر عن دولة بني نجاح بزبيد موالي بني زياد ومبادىء أمورهم وتصاريف أحوالهم

ولما استولى الصليحي على زبيد من يد كهلان بعد أن أهلكه بالسم على يد الجارية التي بعثها إليه سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة كما مر.

وكان لنجاح ثلاثة من الولد معارك وسعيد وجياش: فقتل معارك نفسه، ولحق سعيد وجياش بجزيرة دهلك وأقاما هنالك يتعلمان القرآن والآداب.

ثم رجع سعيد إلى زبيد مغاضباً لأخيه جياش، واختفى بها في نفق احتفره تحت الأرض، ثم استقدم أخاه جياشاً فقدم وأقاما هنالك في الاختفاء.

ثم إن المستنصر العبيدي الخليفة بمصر قطع دعوته بمكة محمد بن جعفر أميرها من الهواشم، فكتب إلى الصليحي يأمره بقتاله وحمله على إقامة الدعوة العلوية بمكة، فسار علي الصليحي لذلك من صنعاء، وظهر سعيد وأخوه من الاختفاء وبلغ خبرهم الصليحي فبعث عسكراً نحواً من خمسة آلاف فارس، وأمرهم بقتلهما.

وقد كان سعيد وجياش خالفا العسكر وسارا في اتباع الصليحي وهو في عساكره فبيتوه في اللجم وهو متوجه إلى مكة فانتقض عسكره وقتل. وتولى قتله جياش بيده سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة.

ثم قتل عبد الله الصليحي أخا علي في مائة وسبعين من بني الصليحي، وأسر زوجته أسماء بنت عمه شهاب في مائة وخمس وثلاثين من ملوك القحطانيين الذين غلبوا باليمن.

وبعث إلى العسكر الذين ساروا لقتل سعيد وجياش فأمنهم واستخدمهم، ورحل إلى زبيد وعليها أسعد بن شهاب أخو زوجة الصليحي، ففر أسعد إلى صنعاء ودخل سعيد إلى زبيد، وأسماء زوجة الصليحي أمامه في هودج، ورأس الصليحي وأخيه عند هودجها، وأنزلها بدارها ونصب الرأسين قبالة طاقها في الدار، وامتلأت القلوب منه رعباً، وتلقب نصير الدولة، وتغلب ولاة

الحصون على ما بأيديهم.

ودس المكرم بن الصليحي بن سعيد بن نجاح بصنعاء على لسان بعض أهل الثغور، وضمن له الظفر، فجاء سعيد لذلك في عشرين ألفاً من الحبشة.

وسار إليه المكرم من صنعاء وهزمه وحال بينه وبين زبيد فهرب إلى جزيرة دهلك، ودخل المكرم زبيد وجاء إلى أمه وهي جالسة بالطاق وعندها رأس الصليحي وأخيه فأنزلهما ودفنهما. وولى على زبيد خاله أسعد سنة سبع وتسعين وأربعمائة.

وكتب المكرم إلى عبد اللّه بن يعفر صاحب حصن الشعر بأن يغري سعيداً بالمكرم، وانتزاع ذي جبلة من يده لاشتغاله بلذاته، واستيلاء زوجه سيدة بنت أحمد عليه.

وأنه بلُخّ فتمت الحيلة فسار سعيد في ثلاثين ألفاً من الحبشة وأكمن له المكرم تحت حصن الشعر فثاروا به هنالك، وانهزمت عساكره وقتل ونصب رأسه عند الطاق الذي كان فيها رأس الصليحي بزبيد، واستولى عليها المكرم وانقطع منها ملك الحبشة، وهرب جياش ومعه وزير أخيه خلف بن أبي الظاهر المرواني، ودخلا عدن متنكرين.

ثم لحقا بالهند وأقاما بها ستة أشهر، ولقيا هنالك كاهناً جاء من سمرقند فبشرهما بما يكون لهما فرجعا إلى اليمن، وتقدم خلف الوزير إلى زبيد، وأشاع موت جياش واستأمن لنفسه، ولحق جياش فأقاما هنالك مختفيين، وعلى زبيد يومئذ أسعد بن شهاب خال المكرم ومعه علي بن القم وزير المكرم، وكان حنقاً على المكرم ودولته، فداخله الوزير خلف ولاعب ابنه الحسين الشطرنج، ثم انتقل إلى ملاعبة أبيه فاغتبط به، وأطلعه على رأيه في الدولة، وكان يتشيع لآل نجاح.

وانتمى بعض الأيام وهو يلاعب، فسمعه علي بن القم واستكشف أمره، فكشف له القناع واستحلفه، وجياش أثناء ذلك يجمع أشياعه من الحبشة، وينفق فيهم الأموال حتى اجتمع له خمسة آلاف، فثار بهم في زبيد سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ونزل دار الإمارة ومنّ على أسعد بن شهاب وأطلقه لزمانة كانت به.

وبقي ملكاً على زبيد يخطب للعباسيين والصليحيون يخطبون للعبيديين، والمكرم يبعث العرب للغارة على زبيد كل حين إلى أن هلك جياش على رأس المائة الخامسة، وكانت كنيته ابن القطاي. وكان موصوفاً بالعدل.

وولي بعده ابنه الفاتك صبياً لم يحتلم، ودبروا ملكه.

وجاء عمه إبراهيم لقتاله، وبرزوا له فثار عبد الواحد بالبلد، وبعث منصور إلى الفضل بن أبي البركات صاحب التعكر فجاء لنصره مضمراً للغدر به.

ثم بلغه انتقاض أهل التعكر عليه فرجع، ولم يزل منصور في ملكه بزبيد إلى أن وزر له أبو منصور عبيد اللّه فقتله مسموماً سنة سبع عشرة وخمسمائة.

ونصب فاتكاً ابنه طفلاً صغيراً واستبد عليه، وقام بضبط الملك وهان عليه التعرض لآل نجاح حتى هربت منه أم فاتك هذا، وسكنت خارج المدينة، وكان قرماً شجاعاً، وله وقائع مع الأعداء.

وحاربه ابن نجيب داعي العلوية فامتنع عليه، وهو الذي شيد المدارس للفقهاء بزبيد واعتنى بالحاج.

ثم راود مفارك بنت جياش، ولم تجد بداً من إسعافه فأمكنته حتى إذا قضى وطره مسحت ذكره بمنديل مسموم فنثر لحمه. وذلك سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

وقام بأمر فاتك بعده زريق من موالي نجاح. قال عمارة: كان شجاعاً فاتكاً قرماً، وكان من موالي أم فاتك المخصتين بها.

قال عمارة: وفي سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة توفي فاتك بن المنصور، وولي بعده ابن عمه وسميه فاتك بن محمد بن فاتك، وسرور قائم بوزارته وتدبير دولته ومحاربة أعدائه.

وكان يلازم المسجد إلى أن دس عليه علي بن مهدي الخارجي من قتله في المسجد وهو يصلي العصر يوم الجمعة ثاني عشر صفر سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وثار السلطان بالقاتل فقتل جماعة من أهل المسجد، ثم قتل واضطرب موالي نجاح بالدولة وثار عليهم ابن مهدي الخارجي وحاربهم مراراً، وحاصرهم طويلاً واستعانوا بالشريف المنصور أحمد بن حمزة السليماني، كان يملك صعدة فأغاثهم على أن يملكوه ويقتلوا سيدهم فاتك بن محمد، فقتلوه سنة ثلاث وخمسين، وملكوا عليهم الشريف أحمد، فعجز عن مقاومة ابن مهدي، وفر تحت الليل، وملكها علي بن مهدي سنة أربع وخمسين وخمسمائة وانقرض أمر آل نجاح والملك لله.

الخبر عن دولة بني الزريع بعدن من دعاة العبيديين باليمن وأولية أمرهم ومصائرهم

وعدن هذه من أمنع مدائن اليمن، وهي على ضفة البحر الهندي.

وما زالت بلد تجارة من عهد التبابعة، وأكثر بنائهم

بالأخصاص، ولذلك يطرقها تجار الحرير كثيراً، وكانت صدر الإسلام دار ملك لبني معن ينتسبون إلى معن بن زائدة، ملكوها من أيام المأمون، وامتنعوا على بني زياد، وقنعوا منهم بالخطبة والسكة.

ولما استولى الداعي علي بن محمد الصليحي رعى لهم ذمام العروبية، وقرر عليهم ضريبة يعطونها ثم أخرجهم منها ابنه أحمد المكرم.

وولى عليها بني المكرم من عشيرة جسم بن يام من همدان، وكانوا أقرب عشائره إليه، فأقامت في ولايتهم زمناً.

ثم حدثت بينهم الفتنة وانقسموا إلى فئتين بني مسعود بن المكرم وبني الزريع بن العباس بن المكرم. وغلب بنو الزريع بعد حروب عظيمة.

قال ابن سعيد: وأول مذكور منهم الداعي بن أبي السعود بن الزريع، أول من اجتمع له الملك بعد بني الصليحي، وورثه عنه بنوه، وحاربه ابن عمه علي بن أبي الغارات بن مسعود بن المكرم صاحب الزعازع، فاستولى على عدن من يده بعد مقاساة ونفقات فى الأعراب.

ومات بعد فتحها بسبعة أشهر سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة.

وولي ابنه الأغر وكان مقيماً بحصن الدملوة المعقل الذي لا يرام.

وامتنع عليه بعده ابن بلال بن الزريع من مواليه، وخشي محمد بن سبا على نفسه ففر إلى منصور بن المفضل من ملوك الجبال الصليحيين بذي جبلة.

ثم مات الأغر قريباً فبعث بلال بن محمد بن سبا فوصل إلى عدن، وكان التقليد جاء من مصر باسم الأغر، فكتب مكانه محمد بن سبا وكان نعوته الداعي المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين فوقعت كلها عليها.

وزوجه بلال بنته ومكنه من الأموال التي كانت في خزائنه.

ثم مات بلال عن مال عظيم، وورثه محمد بن سبا وأنفقه في سبيل الكرم والمرؤات.

واشترى حصن ذي جبلة من منصور بن المفضل بن أبي البركات كما ذكرناه.

واستولى عليه وهو دار ملك الصليحيين، وتزوج سيدة بنت عبد الله الصليحي، وتوفي سنة ثمان وأربعين.

وولي ابنه عمران بن محمد بن سبا.

وكان ياسر بن بلال يدبر دولته، وتوفي سنة ستين وخمسمائة، وترك ولدين صغيرين، وهما محمد وأبو السعود فحبسهما ياسر بن بلال في القصر، واستبد بالأمر وكان ياسر محمد كثير العطية للشعراء وممن وفد عليه ومدحه ابن قلاقس شاعر الإسكندرية ومن قصائده في مدحه:

سافر إذا حاولت قدرا ... سار الهلال فصار بدراً

وهو آخر ملوك الزريعيين. ولما دخل سيف الدولة أخو صلاح الدين إلى اليمن سنة ست وستين وستمائة، واستولى عليها جاء إلى عدن فملكها وقبض على ياسر بن بلال، وانقطعت دولة بني زريع.

وصار اليمن للمعز، وفيه ولاتهم بنو أيوب كما نذكر في أخبارهم.

وكانت مدينة الحديدة قرب عدن اختطفها ملوك الزريعيين، فلما جاءت دولة بني أيوب تركوها ونزلوا تعز من الجبال كما يأتي ذكره.

أخبار ابن مهدي الخارجي وبنيه وذكر دولتهم باليمن وبدايتها وانقراضها

هذا الرجل من أهل العثر من سواحل زبيد، وهو علي بن مهدي الحميري.

كان أبوه مهدي معروفاً بالصلاح والدين، ونشأ ابنه على طريقته فاعتزل ونسك، ثم حج ولقي علماء العراق وأخذ الوعظ من وعاظهم، وعاد إلى اليمن واعتزل ولزم الوعظ.

وكان حافظاً فصيحاً، ويخبر بحوادث أحواله فيصدق، فمال إليه الناس واغتبطوا به، وصار يتردد للحج سنة إحدى وستين، ويعظ الناس في البوادي.

فإذا حضر الموسم ركب على نجيب له ووعظ الناس ولما استولت أم فاتك على بني جياش أيام ابنها فاتك بن منصور، أحسنت فيه المعتقد وأطلقت له ولقرابته وأصهاره خرجهم فحسنت أحوالهم، وآثروا وركبوا الخيول.

وكان يقول في وعظه: دنا الوقت! يشير إلى وقت ظهوره.

واشتهر ذلك عنه، وكانت أم فاتك تصل أهل الدولة عنه، فلما ماتت سنة خمس وأربعين جاءه أهل الجبال وحالفوه على

النصرة.

وخرج من تهامة سنة ثمان وثلاثين وقصد الكودا فانهزم وعاد إلى الجبال، وأقام إلى سنة إحدى وأربعين.

ثم أعادته الحرة أم فاتك إلى وطنه، وماتت سنة خمس وأربعين فخرج إلى هوازن، ونزل ببطن منهم يقال له حيوان في حصن يسمى الشرف، وهو حصن صعب ليس يرتقى على مسيرة يوم من سفح الجبل، في طريقه أوعار في واد ضيق عقبة كؤود.

وأصحابه سماهم الأنصار، وسمى كل من صعد معه من تهامة المهاجرين.

وأمر للأنصار رجلا اسمه سبا وللمهاجرين آخر اسمه شيخ الإسلام، وإسمه النوبة واحتجب عمن سواهما.

وجعل يشن الغارات على أرض تهامة، وأعانه على ذلك خراب النواحي بزبيد فأخرب سابلتها ونواحيها، وانتهى إلى حصن الدائر على نصف مرحلة من زبيد، وأعمل الحيل في قتل مسرور مدبر الدولة فقتل كما مر، وأقام يخيف زبيد بالزحوف.

قال عمارة: زاحفها سبعين زحفاً، وحاصرها طويلاً، واستمدوا الشريف أحمد بن حمزة السليماني صاحب صعدة فأمدهم وشرط عليهم قتل سيدهم فاتك فقتلوه سنة ثلاث وخمسين. وملك عليهم الشريف ثم عجز وهرب عنهم.

واستولى علي بن مهدي عليها في رجب سنة أربع وخمسين، ومات لثلاثة أشهر من ولايته وكان يخطب له بالإمام المهدي أمير المؤمنين، وقامع الكفرة والملحدين، وكان على رأي الخوارج يتبرأ من علي وعثمان ويكفر بالذنوب، وله قواعد وقواميس في مذهبه يطول ذكرها وكان يقتل على شرب الخمر.

قال عمارة: كان يقتل من خالفه من أهل القبلة، ويبيح نساءهم وأولادهم، وكانوا يعتقدون فيه العصمة، وكانت أموالهم تحت يده ينفقها عليهم في مؤنهم ولا يملكون معه مالاً ولا فرساً ولا سلاحاً.

وكان يقتل المنهزم من أصحابه ويقتل الزاني وشارب الخمر وسامع الغناء، ويقتل من تأخر عن صلاة الجماعة ومن تأخر عن وعظه يوم الاثنين والخميس وكان حنفياً في الفروع.

ولما توفي تولى بعده ابنه عبد النبي، وخرج من زبيد واستولى على اليمن أجمع، وبه يومئذ خمس وعشرون دولة فاستولى على جميعها ولم يبق له سوى عدن ففرض عليها الجزية.

ولما دخل شمس الدولة تورشاه بن أيوب أخو صلاح الدين سنة ست وستين وخمسمائة، واستولى على الدولة التي كانت باليمن، فقبض على عبد النبي وامتحنه وأخذ منه أموالاً عظيمة، وحمله إلى عدن فاستولى عليها ثم نزل زبيد واتخذها كرسياً لملكه.

ثم استوخمها وسار في الجبال ومعه الأطباء يتخير مكاناً صحيح الهواء ليتخذ فيه سكناه، فوقع اختيارهم على مكان تعز، فاختط به المدينة ونزلها، وبقيت كرسياً لملكه وبنيه ومواليهم بني رسول كما نذكر في أخبارهم.

وبانقراض دولة بني المهدي انقرض ملك العرب من اليمن وصار للغز ومواليهم.

قواعد اليمن

ولنذكر الآن طرفاً من الكلام على قواعد اليمن ومدنه واحدة واحدة كما أشار إليه ابن سعيد:

(اليمن): من جزيرة العرب يشتمل على كراسي سبعة للملك تهامة والجبال، وفي تهامة مملكتان: مملكة زبيد ومملكة عدن.

ومعنى تهامة: ما انخفض من بلاد اليمن مع ساحل البحر من البرين من جهة الحجاز إلى آخر أعمال عدن دورة البحر الهندي.

قال ابن سعيد: وجزيرة العرب في الإقليم الأول ويحيط بها البحر الهندي من جنوبها، وبحر السويس من غربها، وبحر فارس من شرقها.

وكانت اليمن قديماً للتابعة وهي أخصب من الحجاز، وأكثر أهلها القحطانية، وفيها من عرب وائل وملكها لهذا العهد لبني رسول موالي بني أيوب، ودار ملكهم تعز، بعد أن نزلوا الحرة أولاً، وبصعدة من اليمن أئمة الزيدية، وبزبيد وهي مملكة اليمن شمالها الحجاز وجنوبها البحر الهندي وغربها بحر السويس، اختطها محمد بن زياد أيام المأمون سنة أربع ومائتين، وهي مدينة مسورة تدخلها عين جارية، تحلها الملوك، وعليها غيطان يسكنونها أيام الغلة، وهي الآن من ممالك بني رسول، وبها كان ملك بني زياد ومواليهم، ثم غلب عليها بنو الصليحي وقد مر خبرهم.

(عثر وحلى والسرجة): من أعمال زبيد في شمالها، وتعرف بأعمال ابن طرف، مسيرة سبعة أيام في يومين من السرجة إلى حلى، ومكة ثمانية أيام.

وعثر هي منبر الملك وهي على البحر، وكان سليمان بن طرف ممتنعاً بها على أبي الجيش بن زياد.

وكان مبلغ ارتفاعه خمسمائة ألف دينار، ثم دخل في طاعته وخطب له وحمل المال.

ثم صارت هذه المملكة للسليمانيين من بني الحسن من أمراء مكة حين طردهم الهواشم عن مكة، وكان غالب بن يحيى منهم يؤدي الأتاوة لصاحب زبيد وبه استعان محمد مفلح الفاتكي من سرور، ثم هلك بعدها، ثم عيسى بن حمزة من بنيه.

ولما ملك الغز اليمن، أخذ يحيى أخو عيسى أسيراً وسيق إلى العراق فحاول عليه عيسى فتخلصه من الأسر، ورجع إلى اليمن فقتل أخاه عيسى وولى مكانه المهجم من أعمال زبيد على ثلاثة مراحل عليها، وعربها من العسيرة من حكم وجعفر قبيلتين منهم. ويجلب منها الزنجبيل.

(السرير): آخر أعمال تهامة من اليمن وهي على البحر دون سور، وبيوتها أخصاص وملكها راجع بن قتادة سلطان مكة أعوام الخمسين وستمائة، وله قلعة على نصف مرحلة منها.

(الزرائب): من الأعمال الشمالية من زبيد، وكانت لابن طرف واجتمع له فيها عشرون ألفاً من الحبشة الذين معه جميعاً.

وقال ابن سعيد: في أعمال زبيد والأعمال التي في الطريق الوسطى بين البحر والجبال.

وهي في خط زبيد في شمالها، وهي الجادة إلى مكة.

قال عمارة: هي الجادة السلطانية منها إلى البحر يوم أو دونه، وكذلك إلى الجبال، ويجتمع الطريقان الوسطى والساحلية في السرير ويفترقان.

(عدن): من ممالك اليمن في جوف زبيد وهي كرسي عملها، وهي على ضفة البحر الهندي.

وكانت بلد تجارة منذ أيام التبابعة، وبعدها عن خط الاستواء ثلاث عشرة درجة، ولا تنبت زرعاً ولا شجراً ومعاشهم السمك، وهي ركاب الهند من اليمن وأول ملكها لبني معن بن زائدة، استقاموا لبني زياد وأعطوهم الأتاوة، ولما ملك الصليحيون أقرهم الداعي، ثم أخرجهم ابنه أحمد المكرم وولاها بني المكرم من جشم بن يام رهطه بهمدان، وصفا الملك فيها لبني الزريع منهم، وقنع منهم بالأتاوة حتى ملكها من أيديهم شمس الدولة بن أيوب كما تقدم.

(عدن أبين): من بينات المدن وهي إلى جهة الشحر.

(الزعزاع): باودية ابن أيوب عدن، وكانت لبني مسعود بن المكرم المقارعين لبني الزريع.

(الجوة): اختطها ملوك الزريعيين قرب عدن، ونزلها بنو أيوب ثم انتقلوا إلى تعز.

(حصن ذي جبلة): من حصون مخلاف جعفر اختطه عبد اللّه الصليحي أخو الداعي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وانتقل إليه ابنه المكرم من حصن صنعاء، وزوجه سيدة بنت أحمد المستبدة عليه، وهي التي تحكمت سنة ثمانين.

ومات المكرم وقد فوض الأمر في الملك والدعوة إلى سبا بن أحمد بن المظفر الصليحي، وكان في معقل أشيح، وكانت تستظهر بقبيل جنب، وكانوا خاملين في الجاهلية فظهروا بمخلاف جعفر.

ثم وصل من مصر ابن نجيب الدولة داعياً ونزل مدينة جند، واعتضد بهمدان فحاربته السيدة بجنب وخولان إلى أن ركب البحر وغرق.

وكان يتولى أمورها المفضل بن أبي البركات بعد زوجها المكرم، واستولى عليها.

(التعكر): من مخلاف جعفر، كان لبني الصليحي، ثم لسيدة من بعدهم ثم طلبه منها المفضل بن أبي البركات فسلمته إليه، وأقام فيه إلى أن سار إلى زبيد وحاصر فيها بني نجاح، وطالت غيبته فثار بالتعكر جماعة من الفقهاء وقتلوا نائبه وبايعوا لإبراهيم بن زيدان منهم، وهو عمّ عمارة الشاعر.

واستظهروا بخولان فرجع المفضل وحاصرهم كما ذكرنا ذلك من قبل.

(حصن خدد): كان لعبد اللّه بن يعلى الصليحي وهو من مخلاف جعفر، وكان المفضل قد أدخل من خولان في حصون المخلاف عدداً كثيراً في بني بحر وبني منبه ورواح وشعب.

فلما مات المفضل وفي كفالته سيدة كما مر، وثب مسلم بن الذر من خولان في حصن خدد وملكه من يد عبد اللّه بن يعلى الصليحي، ولحق عبد اللّه بحصن مصدود ورشحته سيدة لمكان المفضل، واستخلصته الدولة من مدينة الجند ومن اليمن بأمرها.

(حصن مصدود): من حصون مخلاف جعفر وهي خمسة: ذو جبلة والتعكر وحصن خدد.

ولما غلبت خولان على حصن خدد من يد عبد اللّه الصليحي، ولحق بحصن مصدود واستولى عليه منهم زكريا بن شكير البحري، وكان بنو الكردي من حمير ملوكاً قبل بني الصليحي باليمن، وانتزع بنو الصليحي ملكهم، وكان لهم بمخلاف بحصونة ومخلاف مغافر ومخلاف الجند، وحصن سمندان.

ثم استقرت لمنصور بن المفضل بن أبي البركات وباعها من بني الزريع كما مر.

(صنعاء): قاعدة التبابعة قبل الإسلام، وأول مدينة اختطت باليمن، وبنتها فيما يقال عاد، وكانت تسمى أوال من الأولية بلغتهم.

وقصر غمدان قريب منها أحد البيوت السبعة، بناه الضحاك باسم الزهرة، وحجت إليه الأمم، وهدمه عثمان.

وصنعاء أشهر حواضر اليمن، وهي فيما يقال معتدلة، وكان فيها أول المائة الرابعة بنو يعفر من التبابعة ودار ملكهم كحلان، ولم يكن لها نباهة في الملك إلى أن سكنها بنو الصليحي وغلب عليها الزيدية، ثم السليمانيون من بعد بني الصليحي.

(قلعة كحلان): من أعمال صنعاء لبني يعفر من التبابعة بناها قرب صنعاء إبراهيم وكانت له صعدة ونجران.

واعتصم بنو يعفر بقلعة كحلان، وقال البيهقي: سيد قلعة كحلان أسعد بن يعفر، وحارب بني الرسي وبني زياد أيام أبي الجيش.

(حصن الصمدان): من أعمال صنعاء كانت فيه خزائن بني الكردي الحميريين إلى أن ملكه علي الصليحي ورد عليهم المكرم بعض حصونهم إلى أن انقرض أمرهم على يد علي بن مهدي.

وكان لهم مخلاف جعفر الذي منه مدينة ذي جبلة، ومعقل التعكر وهو مخلاف الجند، ومخلاف معافر مقر ملكهم السمدان وهو أحصن من الدمولة.

(قلعة منهاب): من قلاع صنعاء بالجبال ملكها بنو زريع واستبد بها منهم الفضل بن علي بن راضي بن الداعي محمد بن سبا بن زريع، نعته صاحب الجزيرة بالسلطان، وقال: كانت له قلعة منهاب وكان حياً سنة ست وثمانين وخمسمائة، وصارت بعده لأخيه الأغر أبي علي.

(جبل الدبجرة): وهو بقرب صنعاء وقد اختط جعفر مولى بني زياد سلطان اليمن مخلاف جعفر فنسب إليه.

(عدن لاعة): بجانب الدبجرة، أول موضع ظهرت فيه دعوة الشيعة باليمن، ومنها محمد بن المفضل الداعي.

ووصل إليها أبو عبد الله الشيعي صاحب الدعوة بالمغرب، وفيها قرأ على علي بن محمد الصليحي صبياً وهي دار دعوة اليمن.

كان محمد بن المفضل داعياً على عهد أبي الجيش بن زياد وأسعد بن يعفر.

(بيجان): ذكرها عمارة في المخاليف الجبلية وملكها نستوان بن سعيد القحطاني.

(تعمر): من أجل معاقل الجبال المطلة على تهامة، مازال حصناً للملوك، وهو اليوم كرسي لبني رسول ومعدود في الأمصار، وكان به من ملوك اليمن منصور بن المفضل بن أبي البركات، وبنو المظفر، وورثها عنه ابنه منصور، ثم باعها حصناً حصناً من الداعي بن المظفر والداعي الزريعي، إلى أن بقي بيده حصن تعمر فأخذه منه ابن مهدي.

(معقل أشيح): من أعظم حصون الجبال وفيه خزائن بني المظفر من الصليحيين صارت له بعهد المكرم ابن عمه صاحب ذي جبلة، وقلده المستنصر الدعوة وتوفي سنة ست وثمانين وأربعمائة.

وغلب ابنه علي على معقل الملك أشيح، وأعيا المفضل أمره إلى أن تحيل عليه وقتله بالسم، وصارت حصون بني المظفر إلى بني أبي البركات.

ثم مات المفضل وخلف ابنه منصوراً، واستقل بملك أبيه بعد حين وباع جميع الحصون تباع ذا جبلة من الداعي الزريعي صاحب عدن بمائة ألف دينار، وحصن صنبر بعد أن كان حلف بالطلاق من زوجته أنه يستبقيه، وطلق زوجته الحرة وتزوجها الزريعي، وطال عمره.

ملك ابن عشرين وبقي في الملك ثمانين، وأخذ منه معقل علي بن مهدي.

(صعدة): مملكتها تلو مملكة صنعاء، وهي في شرقيها، وفي هذه المملكة ثلاثة قواعد: صعدة وجبل تطابة وحصن تلا وحصون أخرى، وتعرف كلها ببني الرسي، وقد تقدم ذكر خبره.

وأما حصن تلا فمنه كان ظهور الموطىء الذي أعاد إمامة الزيدية لبني الرضا، بعد أن استولى عليها بنو سليمان، فأوى إلى جبل قطابة، ثم بايعوا لأحمد الموطىء سنة خمس وأربعين وستمائة، وكان فقيهاً عابداً وحاصره نور الدين بن رسول في هذا الحصن سنة جمر عليه عسكراً للحصار.

ثم مات ابن رسول سنة ثمان وأربعين واشتغل ابنه المظفر بحصار حصن الدمولة، فتمكن الموطىء وملك حصون اليمن، وزحف إلى صعدة وبايعه السليمانيون وإمامهم أحمد المتوكل كما مر في أخبار بني الرسي، وأما قطابة فهو جبل شاهق مشرف على صعدة إلى أن كان ما ذكرناه.

(حران ومسار): أما حرّان فهو إقليم من بلاد همدان، وحران بطن من بطونهم، كان منهم الصليحي، وحصن مسار هو الذي ظهر فيه الصليحي وهو من إقليم حران.

قال البيهقي: بلادهم شرقية بجبال اليمن وتفرقوا في الإسلام ولم يبق لهم قبيلة وفرقة إلا في اليمن، وهو أعظم قبائل اليمن وبهم قام الموطىء، وملكوا جملة من حصون الجبال، ولهم بها إقليم بكيل وإقليم حاشد، وهما ابنا جشم بن حيوان وأنوق بن همدان قال ابن حزم: ومن بكيل وحاشد افترقت قبائل همدان انتهى.

ومن همدان بنو الزريع أصحاب السلطنة والدعوة في عدن والجوة، ومنهم بنو يام من قبائل همدان انتهى.

ومن همدان بنو الزريع سبعة وهم الآن في نهاية من التشيع ببلادهم وأكثرهم زيدية.

(بلاد خولان): قال البيهقي: هي شرقية من جبال اليمن، ومتصلة ببلاد همدان، وهي حصون خدد والتعكر وغيرهما وهم أعظم قبائل اليمن مع همدان ولهم بطون كثيرة.

وافترقوا على بلاد الإسلام ولم يبق منهم وبرية إلا باليمن.

(مخلاف بني أصبح): هو بوادي سحول وذو أصبح الذي ينسبون إليه قد تقدم ذكره في أنساب حمير من التبابعة والأقيال، ومخلاف يحصب مجاور له وهو أخو أصبح.

(مخلاف بني وائل): مدينة هذا المخلاف شاحط وصاحبها أسعد بن وائل وبنو وائل بطن من ذي الكلاع.

وذو الكلاع من سبا تغلبوا على هذه البلاد عند مهلك الحسن بن سلامة، حتى عادوا إلى الطاعة واختط مدينة الكدد على مخلاف سهام، ومدينة المعقل على وادي دوال، ومات سنة اثنتين وأربعمائة.

(بلاد كندة): وهي من جبال اليمن مما يلي حضرموت، وجبال الرمل وكان لهم بها ملوك وقاعدتهم دمون ذكرها امرؤ القيس في شعره.

(بلاد مذحج): موالي جهات الجند من الجبال وينزلها من مذحج عنس وزبيد ومراد.

ومن عنس بإفريقية فرقة وبرية مع ظواعن أهلها، ومن زبيد بالحجاز بنو حرب بين مكة والمدينة.

وبنو زبيد الذين بالشام والجزيرة فهم من طيء وليسوا من هؤلاء.

(بلاد بني نهد): في أجواف السروات وتبالة والسروات بين تهامة والجبال ونجد من اليمن والحجاز كسوأة الفرس.

وبنو نهد من قضاعة سكنوا اليمن جوار خثعم وهم كالوحوش، والعامة تسميهم السرو، وأكثرهم أخلاط من جبلة وخثعم.

ومن بلادهم تبالة يسكنها قوم من نهر وائل ولهم بها صولة، وهي التي وليها الحجاج واستحقرها فتركها.

(البلاد المضافة إلى اليمن): أولها الثمامة.

قال البيهقي: هو بلد منقطع بعمله والتحقيق أنه من الحجاز كما هي نجران من اليمن.

وكذا قال ابن حوقل وهي دونها في المملكة، وأرضها تسمى العروض لاعتراضها بين الحجاز والبحرين.

وفي شرقيها البحرين وغربيها أطراف اليمن والحجاز، وجنوبها نجران، وشمالها نجد من الحجاز، وفي أطرافها عشرون مرحلة، وهي على أربعة أميال من مكة. وقاعدتها حجر بالفتح.

وبلد اليمامة كانت مقراً لملوك بني حنيفة. ثم اتخذ بنو حنيفة حجراً وبينهما يوم وليلة، وبظواهرها أحياء من بني يربوع من تميم، وأحياء من بني عجل.

قال البكري: واسمها جو، وسميت باسم زرقاء اليمامة، سمّاها بذلك تبع الآخر، وهي في الإقليم الثاني مع مكة، وبعدهما عن خط الاستواء واحد، منازلها توضيح وقرقرا.

وقال الطبري: إن رمل عالج من اليمامة والشحر وهي من أرض وبار.

وكانت اليمامة والطائف لبني مزان بن يعفر والسكسك، وغلبتهم عليها طسم وجديس.

ثم غلبتهم بنو مزان آخراً وملكوا اليمامة وطسم وجديس في تبعهم، وآخر ملوك بني طسم عمليق.

ثم غلبت جديس ومنهم باليمامة التي سميت مدينة جو بها، وأخبارها معروفة.

ثم استولى على اليمامة بعد طسم وجديس بنو حنيفة، وكان منهم هوذة بن علي ملك اليمامة وتتوج.

ويقال: إنما كانت خرزات هوذة بن علي ملك اليمامة، على عهد النبوة، وأسر وأسلم وثبت عند الردة.

وكان منهم مسيلمة وأخباره معروفة، قال ابن سعيد:

وسألت عرب البحرين وبعض مذحج لمن اليمامة اليوم؟ فقالوا: لعرب من قيس عيلان، وليس لبني حنيفة بها ذكر.

(بلاد حضرموت): قال ابن حوقل: هي في شرقي عدن في بالبحر ومدينتها صغيرة، ولها أعمال عريضة، وبينها وبين عمان من الجهة الأخرى رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وكانت مواطن لعاد.

وبها قبر هود عليه السلام، وفي وسطها جبل بشام، وهي في الإقليم الأول، وبعدها عن خط الاستواء اثنتا عشرة درجة، وهي معدودة من اليمن، بلد نخل وشجر ومزارع، وأكثر أهلها يحكمون بأحكام علي وفاطمة، ويبغضون علياً للتحكيم.

وأكبر مدينة بها الآن قلعة بشام فيها خيل الملك، وكانت لعاد مع الشحر وعمان، وغلبهم عليها بنو يعرب بن قحطان ويقال: إن الذي دل عاداً على جزيرة العرب هو رقيم بن إرم، كان سبق إليها مع بني هود فرجع إلى عاد ودلهم عليها، وعلى دخولها بالجوار، فلما دخلوا غلبوا على من فيها.

ثم غلبهم بنو يعرب بن قحطان بعد ذلك، وولى على البلاد فكانت ولاية ابنه حضرموت على هذه البلاد، وبه سميت الشحر من ممالك جزيرة العرب مثل الحجاز واليمن.

وكان معقلاً عن حضرموت وعمان والذي يسمى الشحر قصبته، ولا زرع فيه ولا نخل، إنما أموالهم الإبل والمعز، ومعاشهم من اللحوم والألبان، ومن السمك الصغار، ويعلفونها للدواب.

وتسمى هذه البلاد أيضاً بلاد مهرة، وبها الإبل المهريّة، وقد يضاف الشحر إلى عمان وهو ملاصق لحضرموت، وقيل: هو بسائطها.

وفي هذه البلاد يوجد اللبان، وفي ساحله العنبر الشحري وهو متصل في جهة الشرق، ومن غربيها ساحل البحر الهندي الذي عليه عدن، وفي شرقيها بلاد عمان وجنوبها بحر الهند مستطيلة عليه، وشمالها حضرموت كأنها ساحل لها، ويكونان معاً لملك واحد وهي في الإقليم الأول وأشد حراً من حضرموت.

وكانت في القديم لعاد وسكنها بعدهم مهرة من حضرموت أو من قضاعة، وهم كالوحوش في تلك الرمال ودينهم الخارجية على رأي الإباضية منهم.

وأول من نزل بالشحر من القحطانية مالك بن حمير، وخرج على أخيه مالك وهو ملك بقصر غمدان فحاربه طويلاً، ومات مالك فولي بعده ابنه قضاعة بن مالك فلم يزل السكسك يحاربه إلى أن قهره، واقتصر قضاعة على بلاد مهرة.

وملك بعده ابنه أطاب ثم مالك بن الحاف، وانتقل إلى عمان وبها كان سلطانه.

قال البيهقي: وملك مهرة بن حيدان بن الحاف بلاد قضاعة وحارب عمه مالك بن الحاف صاحب عمان حتى غلبهم عليها، وليس لهم اليوم في غير بلادهم ذكر.

وببلاد الشحر مدينة مرياط وضِفان على وزن نزال وضفان دار ملك التبابعة، ومرياط بساحل الشحر، وقد خربت هاتان المدينتان.

وكان أحمد بن محمد بن محمود الحميري، ولقبه الناخودة، وكان تاجراً كثير المال يعبر إلى صاحب مرياط بالتجارة، ثم استوزره ثم هلك فملك أحمد الناخودة، ثم خربها وخرب ضفان سنة تسع عشرة وستمائة، وبنى على ساحل مدينة ضفان بضم الضاد المعجمة وسماها الأحمدية باسمه، وخرب القديمة لأنها لم يكن لها مرسى.

(نجران): قال صاحب الكمائم: هي صقع منفرد عن اليمن، وقال غيره: هي من اليمن. قال البيهقي: مسافتها عشرون مرحلة وهي شرقي صنعاء وشماليها وتوالي الحجاز وفيها مدينتان: نجران وجرش، متقاربتان في القدر والعادية غالبة عليها، وسكانها كالأعراب، وبها كعبة نجران بنيت على هيئة عمدان كعبة اليمن، وكانت طائفة من العرب تحج إليها وتنهر عندها، وتسمى الدير. وبها قس بن ساعدة، كان يتعبد فيها.

ونزلها من القحطانية طائفة من جرهم ثم غلبهم عليها حمير. وصاروا ولاة للتبابعة.

وكان كل ملك منهم يسمى الأفعى. وكان منهم أفعى نجران واسمه القُلَمُس بن عمرو بن همدان بن مالك بن شهاب بن زيد بن وائل بن حمير، وكان كاهناً، وهو الذي حكم بين أولاد نزار لما أتوه حسبما هو مذكور.

وكان والياً على نجران لبلقيس، فبعثته إلى سليمان عليه السلام، وآمن وبث دين اليهودية فى قومه وطال عمره.

ويقال: إن البحرين والمسلّل كانتا له قال البيهقي: ثم نزل نجران بنو مذحج، واستولوا عليها ومنهم الحارث بنو كعب.

وقال غيره: لما خربت اليمانية في سيل العرم مروا بنجران فحاربتهم مذحج ومنها افترقوا.

قال ابن حزم: ونزل فى جوار مذحج بالصلح الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد، ثم غلبوا عليها

مذحجاً وصارت لهم رياستها.

ودخلت النصرانية نجران من قيمون، وخبره معروف في كتب السير، وانتهت رياسة بني الحارث فيها إلى بني الريان ثم صارت إلى بني عبد المدان.

وكان يزيد منهم على عهد النبي ﷺ، وأسلم على يد خالد بن الوليد، ووفد مع قومه ولم يذكره ابن عبد المؤمن وهو مستدرك عليه، وابن أخيه زياد بن عبد الرحمن بن عبد المدان خال السفاح، ولاه نجران واليمامة، وخلف ابنيه محمداً ويحيى.

ودخلت المائة الرابعة والملك بها لبني أبي الجود بن عبد المدان، واتصل فيهم وكان بينهم وبين الفاطميين حروب وربما يغلبونهم بعض الأحيان على نجران وكان آخرهم عبد القيس الذي أخذ علي بن مهدي الملك من يده، ذكره عمارة وأثنى عليه والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

الخبر عن دولة بني حمدان المستبدين بالدعوة العباسية من العرب بالموصل والجزيرة والشام ومبادىء أمورهم وتصاريف أحوالهم

كان بنو ثعلب بن وائل من أعظم بطون ربيعة بن نزار، ولهم محل في الكثرة والعدد، وكانت مواطنهم بالجزيرة في ديار ربيعة، وكانوا على دين النصرانية في الجاهلية، وصاغيتهم مع قيصر.

وحاربوا المسلمين مع غسان وهرقل أيام الفتوحات في نصارى العرب يومئذ من غسان وإياد وقضاعة وزابلة وسائر نصارى العرب، ثم ارتحلوا مع هرقل إلى بلاد الروم، ثم رجعوا إلى بلادهم، وفرض عليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجزية.

فقالوا: يا أمير المؤمنين لا تذلنا بين العرب باسم الجزية، واجعلها صدقة مضاعفة ففعل.

وكان قائدهم يومئذ حنظلة بن قيس بن هرير من بني مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن ثعلب وكان من رهطه عمرو بن بسطام صاحب السند أيام بني أمية.

ثم كان منهم بعد ذلك في الإسلام ثلاثة بيوت: آل عمر بن الخطاب العدوي، وآل هارون المغمر، وآل حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن أسد، ولم يذكر ابن حزم هؤلاء البيوت الثلاثة في بطون بني ثعلب في كتاب الجمهرة.

ووقفت على حاشية في هذا الموضع من كتابه فيها ذكر هؤلاء الثلاثة كالاستلحاق عليه، وقال في بني حمدان: وقيل إنهم موالي بني أسد. ثم قال: آخر الحاشية إنه من خط المصنف يعني ابن حزم.

ولما فشا دين الخارجية بالجزيرة أيام مروان بن الحكم، فرّق جموعه ومحا آثار تلك الدعوة.

ثم ظهر في الجزيرة بعد حين أثر من تلك الدعوة، وخرج مساور بن عبد الله بن مساور البجلي من السرات أيام الفتنة بعد مقتل المتوكل واستولى على أكثر أعمال الموصل، وجعل دار هجرته الحُديثة.

وكان على الموصل يومئذ عقبة بن محمد بن جعفر بن محمد بن الأشعث الخزاعي الذي ولى المنصور جده محمداً على إفريقية، وعليه خرج مساور.

ثم ولي على الموصل أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب الثعلبي سنة أربع وخمسين، واستخلف عليه ابنه الحسن فسار إلى مساور في جموع قومه، وفيهم حمدون بن الحارث فهزموا الخوارج وفرقوا جمعهم.

ثم ولي أيام المهتدي عبد الله بن سليمان بن عمران الأزدي فغلبه الخوارج، وملك مساور الموصل ورجع إلى الحديثة.

ثم انتقض أهل الموصل أيام المعتمد سنة تسع وخمسين، وأخرجوا العامل وهو ابن أساتكين الهيثم بن عبد الله بن المعتمد العدوي من بني ثعلب، فامتنعوا عليه وولوا مكانه إسحاق بن أيوب من آل الخطاب، فزحف ومعه حمدان بن حمدون وحاصرها مدة.

ثم كانت فتنة إسحاق بن كنداجق وانتقاضه على المعتمد، واجتمع لمدافعته علي بن داود صاحب الموصل، وحمدان بن حمدون وإسحاق بن أيوب فهزمهم إسحاق بن كنداجق، وافترقوا فاتبع إسحاق بن أيوب إلى نصيبين ثم إلى آمد.

واستجار فيها بعيسى بن الشيخ الشيباني وبعث إلى المعز موسى بن زرارة صاحب أرزن فامتنع بأنجادهما.

ثم ولى المعتمد ابن كنداجق على الموصل سنة سبع وستين فاجتمع لحربه إسحاق بن أيوب وعيسى بن الشيخ وأبو العز بن زرارة وحمدان بن حمدون في ربيعة وثعلب فهزمهم ابن كنداجق، وحاصره هو ولجؤوا إلى آمد عند عيسى بن الشيخ الشيباني،

وحاصرهم بها وتوالت عليهم الحروب وهلك مساور الخارجي أثناء هذه الفتن في حربه مع العساكر سنة ثلاث وستين.

واجتمع الخوارج بعده على هارون بن عبد اللّه البجلي واستولى على الموصل وكثر تابعه.

وخرج عليه محمد بن خردان من أصحابه فغلبه على الموصل، فقصد حمدان بن حمدون مستنجداً به، فسار معه ورده إلى الموصل ولحق محمد بالحديثة، ورجع أصحابه إلى هارون، ثم سار هارون من الموصل إلى محمد فأوقع به وقتله وعاث في الأكراد الجلالية أصحابه، وغلب على القرى والرساتيق، وجعل رجله يأخذ الزكاة والعشر.

ثم زحف بنو شيبان لقتاله سنة اثنتين وسبعين، فاستنجد بحمدان بن حمدون، وانهزم قبل وصوله إليه.

ثم كانت الفتنة بين إسحاق بن كنداجق ويوسف بن أبي الساج، وأخذ ابن أبي الساج بدعوة ابن طولون، وغلب على الجزيرة والموصل، ثم عاد وملكها لابن كنداجق وولى عليها هارون بن سيما سنة تسع وسبعين ومائتين، فطرده أهلها، واستنجد ببني شيبان فساروا معه إلى الموصل، واستمد أهلها الخوارج وبني ثعلب فسار لإمدادهم هارون الساري وحمدان فهزمهم بنو شيبان، وخاف أهل الموصل من ابن سيما فبعثوا إلى بغداد، وولى عليهم المعتمد علي بن داود الأزدي.

ولما بلغ المعتضد ممالأة حمدان بن حمدون لهارون الساري، وما فعله بنو شيبان، وقد كان خرج لإصلاح الجزيرة، وأعطاه بنو شيبان رهنهم على الطاعة، زحف إلى حمدان وهزمه فلحق بماردين وترك بها ابنه الحسين.

وهرب فسار مع وصيف ونصر القسوري، ومروا بدير الزعفران وبه الحسين بن حمدان فاستأمن لهم، وبعثوا به إلى المعتضد وأمر بهدم القلعة، ولقي وصيف حمدان فهزمه، وعبر إلى الجانب الغربي.

ثم سار إلى معسكر المعتضد، وكان إسحاق بن أيوب الثعلبي قد سبق إلى طاعة السلطان وهو في معسكره، فقصد خيمته ملقياً بنفسه عليه، فأحضره عند المعتضد فحبسه.

ثم سار نصر القسوري في أتباع هارون فهزم الخوارج، ولحق بأذربيجان، واستأمن آخرون إلى المعتضد ودخل هارون البرية.

ثم سار المعتضد سنة ثلاث وثمانين في طلب هارون وبعث في مقدمته وصيفاً وسرح معه الحسين بن حمدان بن يكرين، واشترط له إطلاق ابنه إن جاء بهارون.

فاتبعه وأسره وجاء به إلى المعتضد فخلع عليه وعلى إخوته وطوقه وفك القيود عن حمدان ووعده بإطلاقه.

ومات إسحاق بن أيوب العدوي وكان على ديار ربيعة، فولى المعتضد مكانه عبد اللّه بن الهيثم بن عبد اللّه بن المعتمد.

مبدأ لدولة وولاية أبي الهيجاء عبد اللّه بن حمدان على الموصل

ولما ولي المكتفي عقد لأبي الهيجاء عبد اللّه بن حمدان على الموصل وأعمالها، وكان الأكراد الهدبانية قد عاثوا في نواحيها ومقدمهم محمد بن سلال فقاتلهم وعبر وراءهم إلى الجانب الشرقي، وقاتلهم على الخازر، وقتل مولاه سيما ورجع.

ثم أمده الخليفة فسار في أثرهم سنة أربع وتسعين وقاتلهم على أذربيجان وهزم محمد بن سلال بأهله وولده، واستباحهم ابن حمدان.

ثم استأمن محمد وجاءه إلى الموصل، واستأمن سائر الأكراد الحميدية، واستقام أمر أبي الهيجاء.

ثم كانت فتنة الخلع ببغداد سنة ست وتسعين، وقتل الوزير العباس بن الحسن، وخلع المقتدر وبويع عبد اللّه بن المعتز يوماً أو بعض يوم، وعاد المقتدر كما مر ذلك كله في أخبار الدولة العباسية.

وكان الحسين بن حمدان على ديار ربيعة وكان ممن تولى كبر هذه الفتنة مع القواد، وباشر قتل الوزير مع من قتله فهرب، وطلبه المقتدر وبعث في طلبه القاسم بن سيما وجماعة من القواد فلم يظفروا به، فكتب إلى أبي الهيجاء وهو على الموصل فسار مع القاسم ولقيهم الحسين عند تكريت فانهزم واستأمن فأمّنه المقتدر، وخلع عليه وولاه أعمال قم وقاشان. ثم رده بعد ذلك إلى ديار ربيعة.

انتقاض أبي الهيجاء ثم الحسين بن حمدان

ولما كانت سنة تسع وتسعين ومائتين خالف أبو الهيجاء بالموصل إلى سنة اثنتين وثلاثمائة، وكان الحسين بن حمدان على ديار ربيعة كما قدمناه، فطالبه الوزير عيسى بن عيسى بحمل المال فدافعه، فأمره بتسليم البلاد إلى العمال فامتنع، فجهز إليه الجيش

فهزمهم.

فكتب إلى مؤنس العجلي، وهو بمصر يقاتل عساكر العلوية، بأن يسير إلى قتال الحسين بعد فراغه من أمره، فسار إليه سنة ثلاث وثلاثمائة، فارتحل بأهله إلى أرمينية وترك البلاد.

وبعث مؤنس العساكر في أثره فأدركوه، وقاتلوه فهزموه وأسر هو وابنه عبد الوهاب وأهله وأصحابه، وعاد به إلى بغداد فأدخل على جمل، وقبض المقتدر يومئذ على أبي الهيجاء وجميع بني حمدان فحبسهم جميعاً.

ثم أطلق أبا الهيجاء سنة خمس وثلاثمائة بعدها وقتل الحسين سنة ست، وولّى إبراهيم بن حمدان سنة سبع على ديار ربيعة، وولّى مكانه داود بن حمدان.

ولاية أبي الهيجاء ثانية على الموصل ثم مقتله

ثم ولى المقتدر أبا الهيجاء عبد اللّه بن حمدان على الموصل سنة أربع عشرة وثلاثمائة فبعث ابنه ناصر الدولة الحسين عليها، وأقام هو ببغداد.

ثم بلغه إفساد العرب والأكراد في نواحيها وفي نواحي عمله الآخر بخراسان، فبعث إلى أبيه ناصر الدولة فأوقع بالعرب في الجزيرة ونكل بهم.

وجاءه في العساكر إلى تكريت فخرج ورحل بهم إلى شهرزور، وأوقع بالأكراد الجلالية حتى استقاموا على الطاعة.

ثم كان خلع المقتدر سنة سبع عشرة وثلاثمائة بأخيه القاهر.

ثم عاد ثاني يوم وأحيط بالقاهر في قصره فتذمم بأبي الهيجاء، وكان عنده يومئذ، وأطال المقام يحاول على النجاة به فلم يتمكن من ذلك، وانقض الناس على القاهر ومضى أبو الهيجاء يفتش عن بعض المنافق في القصر يتخلص منه فاتبعه جماعة وفتكوا به وقتلوه منتصف المحرم من السنة.

وولى المقتدر مولاه تحريراً على الموصل.

ولاية سعيد ونصر بني حمدان على الموصل

ثم ان أبا العلاء سعيد بن حمدان ضمن الموصل وديار ربيعة، وما بيد ناصر الدولة فولاه الراضي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وسار إلى الموصل فخرج ناصر الدولة لتلقيه، وخالفه أبو العلاء إلى بيته وقعد ينتظره، فأنفذ ناصر الدولة جماعة من غلمانه فقتلوه.

وبلغ الخبر إلى الراضي فأعظم ذلك، وأمر الوزير ابن مقلة بالمسير إلى الموصل فسار إليها، وارتحل ناصر الدولة واتبعه الوزير إلى جبل السن، ورجع عنه، وأقام بالموصل.

واحتال بعض أصحاب ابن حمدان ببغداد على ابن الوزير وبذل له عشرة آلاف دينار على أن يستحث أباه ففعل، وكتب إليه بأمور أزعجته فاستعمل على الموصل من وثق به من أهل الدولة، ورجع إلى بغداد في منتصف شوال.

ورجع ناصر الدولة إلى الموصل فاستولى عليها وكتب إلى الراضي في الصفح، وأن يضمن البلاد فأجيب إلى ذلك واستقر في ولايته.

مسير الراضي إلى الموصل

وفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة تأخر ضمان البلاد من ناصر الدولة فغضب الراضي، وسار ومدبر دولته تحكم.

وسار إلى الموصل، وتقدم تحكم إلى تكريت فخرج إليه ناصر الدولة فانهزم أصحابه، وسار إلى نصيبين، واتبعه تحكم فلحق به وكتب تحكم إلى الراضي بالفتح فسار في السفن يريد الموصل.

وكان ابن رائق مختفياً ببغداد منذ غلبه ابن البريدي على الدولة، فظهر عند ذلك واستولى على بغداد.

وبلغ الخبر إلى الراضي فأصعد من الماء إلى البر، واستقدم تحكم من نصيبين واستعاد ناصر الدولة ديار ربيعة وهو يعلم بخبر ابن رائق، وبعث في الصلح على تعجيل خمسمائة ألف درهم فأجابه إلى ذلك.

وسار الراضي وتحكم إلى بغداد، ولقيهم أبو جعفر محمد بن يحيى بن سريق رسولاً من ابن رائق في الصلح، وعلى أن يولي ديار مضر، وهي حران والرها والرقة.

وتضاف إليها قنسرين والعواصم فأجيب إلى ذلك وسار عن بغداد إلى ولايته ودخل الراضي وتحكم بغداد ورجع ناصر الدولة بن حمدان إلى الموصل.

مسير المتقي إلى الموصل وولاية ناصر الدولة إمارة الأمراء

كان ابن رائق بعد مسيره إلى ديار مضر والعواصم سار إلى الشام وملك دمشق من يد الإخشيد، ثم الرملة ثم لقيه الإخشيد على عريش مصر وهزمه، ورجع إلى دمشق ثم اصطلحا على أن يجعلا الرملة تخماً بين الشام ومصر وذلك سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

ثم توفي الراضي سنة تسع وعشرين، وولي المتقي وقتل تحكم وجاء البريدي إلى بغداد، وهرب الأتراك التحكمية إلى الموصل، وفيهم تورون وجحجح.

ثم لحقوا بأبي بكر محمد بن رائق واستحثوه إلى العراق، وغلب بعدهم على الخلافة الأتراك الديلمية، وجاء أبو الحسن البريدي من واسط فأقام ببغداد أربعة وعشرين يوماً أمير الأمراء.

ثم شغب عليه الجند فرجع إلى واسط وغلب كورتكين.

ثم حجر المتقي وكتب إلى ابن رائق يستدعيه فسار من دمشق في رمضان سنة تسع وعشرين، واستخلف عليها أبا الحسن أحمد بن علي بن حمدان على أن يحمل إليه مائة ألف دينار، وسار ابن رائق إلى بغداد، وغلب كورتكين والديلمية وحبس كورتكين بدار الخلافة.

ثم شغب عليه الجند وبعث أبو عبد الله البريدي أخاه أبا الحسن إلى بغداد في العساكر فغلبوا عليها، وهرب المتقي وابنه أبو منصور، وزاد في المبرة فنثر الدراهم على ابن الخليفة، وبالغ في مبرته حتى ركب للانصراف.

وأمسك ابن رائق للحديث معه فاستدعاه المتقي، وخلع عليه، ولقبه ناصر الدولة، وجعله أمير الأمراء، وخلع على أخيه أبي الحسن ولقبه سيف الدولة.

وكان قتل ابن رائق لتسع بقين من رجب، وولاية ناصر الدولة مستهل شعبان من سنة ثمانين، ثم سار الأخشيدي من مصر إلى دمشق فملكها من يد عامل ابن رائق، وسار ناصر الدولة مع المتقي إلى بغداد.

أخبار بني حمدان ببغداد

ولما قتل ابن رائق وأبو الحسن البريدي على بغداد، وقد سخطه العامة والخاصة فهرب جحجح إلى المتقي، وأجمع تورون وأصحابه إلى الموصل، واستحثوا المتقي وناصر الدولة فأنجدوهم إلى بغداد، وولى على الخراج والضياع بديار مضر وهي الرها وحران والرقة أبا الحسن علي بن خلف بن طياب، وكان عليها أبو الحسن علي بن أحمد بن مقاتل من قبل ابن رائق، فقاتله ابن طياب وقتله.

ولما قرب المتقي وناصر الدولة من بغداد هرب أبو الحسن بن البريدي إلى واسط بعد مقامه مائة يوم وعشرة أيام، ودخل المتقي بغداد ومعه بنو حمدان، وقلد تورون شرطة جانبي بغداد وذلك في شوال من السنة.

ثم سار بنو حمدان إلى واسط فنزل ناصر الدولة بالمدائن، وبعث أخاه سيف الدولة إلى قتال البريدي، وقد سار من واسط إليهم فقاتلوه تحت المدائن ومعهم تورون وجحجح والأتراك فانهزموا أولاً.

ثم أمدهم ناصر الدولة بمن كان معه من المدائن فانهزم البريدي إلى واسط، وعاد ناصر الدولة إلى بغداد منتصف ذي الحجة وبين يديه الأسرى من أصحاب البريدي.

وأقام سيف الدولة بموضع المعركة حتى اندملت جراحه وذهب وهنه.

ثم سار إلى واسط فلحق البريدي بالبصرة، واستولى على واسط فأقام بها معتزماً على اتباع البريدي إلى البصرة، واستمد أخاه ناصر الدولة في المال فلم يمده، وكان للأتراك عليه استطالة وخصوصاً تورون وجحجح ثم جاء أبو عبد الله الكوفي بالمال من قبل ناصر الدولة ليفرقه في الأتراك فاعترضه تورون وجحجح، وأراد البطش به فأخفاه سيف الدولة عنهما ورده إلى أخيه.

ثم ثار الأتراك بسيف الدولة سلخ شعبان فهرب من معسكره إلى بغداد ونهب سواده قتل جماعة من أصحابه وكان أبو عبد الله الكوفي لما وصل إلى ناصر الدولة وأخبره خبر أخيه، أراد أن يسير إلى الموصل فركب المتقي إليه واستمهله، وعاد إلى قصره فأغذ السير إلى الموصل بعد ثلاثة عشر شهراً من إمارته، وثار الديلم والأتراك ونهبوا داره.

ولما هرب سيف الدولة من معسكره بواسط عاد الأتراك إلى معسكرهم، وولوا تورون أميراً وجحجح صاحب جيش، ولحق سيف الدولة ببغداد منتصف رمضان بعد مسير أخيه، وبلغه خبر تورون.

ثم اختلف الأتراك وقبض تورون على جحجح وسمله، وسار سيف الدولة ولحق بأخيه بالموصل وولي تورون إمارة

الأمراء ببغداد.

خبر عدل التحكمي بالرحبة

كان عدل هذا مولى تحكم، ثم صارمع ابن رائق وأصعد معه إلى الموصل، ولما قتل ابن رائق صار في جملة ناصر الدولة بن حمدان فبعثه مع علي بن خلف بن طياب إلى ديار مضر فاستولى ابن طياب عليها، وقتل نائب ابن رائق وكان بالرحبة من ديار مضر رجل من قبل ابن رائق يقال له مسافر بن الحسين فامتنع بها، وجبى خراجها واستولى على تلك الناحية، فأرسل إليه ابن طياب عدلاً التحكمي فاستولى عليها، وفر مسافر عنها.

واجتمع التحكمية إلى عدل واستولى على طريق الفرات وبعض الخابور ثم استنصر مسافر بجمع من بني نمير وسار إلى قرقيسيا وملكها وارتجعها عدل من يده.

ثم اعتزم عدل على ملك الخابور وانتصر أهله ببني نمير فأعرض عدل عن ذلك حيناً حتى أمنوا.

ثم أسرى إلى فسيح سمصاب وهي من أعظم قرى خابور فقاتلها ونقب السور وملكها ثم ملك غيرها، وأقام في الخابور ستة أشهر وجبى الأموال وقوي جمعه واتسعت حاله.

ثم طمع في ملك بني حمدان، فسار يريد نصيبين لغيبة سيف الدولة عن الموصل وبلاد الجزيرة، ونكب عن الرحبة وحران لأن يأنس المؤنسي كان بها في عسكر، ومعه جمع من بني نمير فحاد عنها إلى رأس عين، ومنها إلى نصيبين، وبلغ الخبر إلى أبي عبد اللّه الحسين بن سعيد بن حمدان فجمع وسار إليه، فلما التقى الجمعان استأمن من أصحاب عدل إلى ابن حمدان، ولم يبقى معه إلا القليل فقبض عليه وسمله، وبعث به مع ابنه إلى بغداد في آخر شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

مسير المتقي إلى الموصل وعوده

ولما انصرف ناصر الدولة وسيف الدولة عن المتقي من بغداد جاء تورون من واسط واستولى على الدولة، ثم رجع إلى واسط ووقعت بينه وبين ابن البريدي بالبصرة مواصلة وصهر استوحش لها المتقي.

وكان بعض أصحاب تورون منافراً له، فأكثر فيه السعاية عند المتقي والوزير ابن مقلة، وخوفهما اتصال يده بابن البريدي.

وقارن ذلك اتصال ابن شيرزاده بتورون ومسيره إليه بواسط، فذكروا الخليفة بما فعل ابن البريدي معه في المرة الأخرى وخوفوه عاقبة أمرهم، فكتب إلى ابن حمدان أن ينفذ إليه عسكراً يسير صحبته إليهم فأنفذ مع ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان، ووصلوا إلى بغداد سنة اثنتين وثلاثين وخرج المتقي معهم بأهله وأعيان دولته، ومعه الوزير ابن مقلة، وانتهى إلى تكريت فلقيه سيف الدولة هنالك.

وجاء ناصر الدولة فأصعد المتقي إلى الموصل.

ولما بلغ الخبر إلى تورون سار نحو تكريت فلقيه سيف الدولة عندها فقاتله ثلاثة أيام، ثم هزمه تورون ونهب سواده وسواد أخيه، وسار سيف الدولة إلى الموصل وتوزون في اتباعه، فخرج ناصر الدولة والمتقي وجملته إلى نصيبين، ثم إلى الرقة، ولحقهم سيف الدولة إليها.

وملك تورون الموصل.

وبعث إليه المتقي يعاتبه على اتصاله بابن البريدي، وأنه إنما استوحش من ذلك فإن آثر رضاه واصل ابن حمدان فأجاب تورون إلى ذلك، وعقد الضمان لناصر الدولة على ما بيده من البلاد لثلاث سنين، كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف، وعاد تورون إلى بغداد وأقام المتقي بالرقة، ثم أحس من ابن حمدان ضجرا به، وبلغ سيف الدولة أن محمد بن نيال الترجمان أغرى المتقي بسيف الدولة، وهو الذي كان أفسد بين المتقي وتورون فقبض عليه سيف الدولة وقتله، وارتاب المتقي بذلك فكتب إلى تورون يستصلحه.

وكتب إلى الإخشيد محمد بن طغج صاحب مصر يستقدمه، فسار إليه الإخشيد.

ولما وصل إلى حلب وعليها من قبل سيف الدولة ابن عمهم أبو عبد اللّه سعيد بن حمدان فرحل عنها، وتخلف عنه ابن مقاتل الذي كان بدمشق مع ابن رائق.

ولما وصل الإخشيد إلى حلب لقيه ابن مقاتل فأكرمه واستعمله على خراج مصر.

ثم سار إلى المتقي بالرقة فلقيه منتصف ثلاث وثلاثين فبالغ المتقي في إكرامه وبالغ هو في الأدب معه، وحمل إليه الهدايا وإلى وزيره وحاشيته، وسأله المسير إلى مصر أو الشام فأبى، فأشار عليه أن لا يرجع إلى تورون فأبى.

وأشار على ابن مقلة أن يسير معه إلى مصر ليحكمه في دولته، وخوفه من تورون فلم يعمل، وجاءهم رسل تورون في

الصلح وأنهم استحلفوه للخليفة والوزير، فانحدر المتقي إلى بغداد آخر المحرم، وعاد الإخشيد إلى مصر.

ولما وصل المتقي إلى هيت لقيه تورون فقبل الأرض ورأى أنه تحلل عن يمينه بتلك الطاعة، ثم وكل به وسمل المتقي ورجع، إلى بغداد فبايع للمستكفي.

ولما ارتحل المتقي عن الرقة ولى عليها ناصر الدولة ابن عمه أبا عبد الله بن سعيد بن حمدان، وعلى طريق الفرات وديار مضر وقنسرين وجند والعواصم وحمص.

فلما وصل إلى الرقة طمع أهلها فيه فقاتلهم وظفر بهم ورجع إلى حلب وقد كان ولى على هذه البلاد قبله أبا بكر محمد بن علي بن مقاتل.

استيلاء سيف الدولة على حلب وحمص

ولما ارتحل المتقي من الرقة، وانصرف الإخشيد إلى الشام بقي يأنس المؤنسي بحلب فقصده سيف الدولة وملكها من يده، ثم سار إلى حمص فلقيه بها كافور مولى الإخشيد فهزمه سيف الدولة وسار إلى دمشق فامتنعوا عليه فرجع، وجاء الإخشيد من مصر إلى الشام، وسار في اتباع سيف الدولة فاصطفا بقنسرين، ثم تحاجزوا ورجع سيف الدولة إلى الجزيرة والإخشيد إلى دمشق.

ثم سار سيف الدولة إلى حلب فملكها وسارت عساكر الروم إليها فقاتلهم وظفر بهم.

ثم بلغ ناصر الدولة بن حمدان ما فعله تورون من سمل المتقي وبيعة المستكفي، فامتنع من حمل المال وهرب إليه غلمان تورون فاستخدمهم ونقض الشرط في ذلك.

وخرج تورون والمستكفي قاصدين الموصل، وترددت الرسل بينهما في الصلح، فتم ذلك آخر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وعاد المستكفي وتوزون إلى بغداد فتوفى تورون إثر عوده، وولي الأمور بعده ابن شيرزاده، واستعمل على واسط قائداً، وعلى تكريت آخر.

فأما الذي على واسط فكاتب معز الدولة ابن بويه، واستقدمه فقدم بغداد واستولى على الدولة، فخلع المستكفي وبايع للمطيع، وأما الذي على تكريت فسار إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل وسار معه وولاه عليها من قبله.

الفتنة بين ابن حمدان وابن بويه

ولما خلع معز الدولة بن بويه المستكفي عند استيلائه على بغداد امتعض ناصر الدولة بن حمدان لذلك وسار من الموصل إلى العراق، وبعث معز الدولة بن بويه قواده، فالتقى الجمعان بعكبرا، واقتتلوا وخرج معز الدولة مع المطيع إلى عكبرا وكان ابن شيرزاده ببغداد وأقام بها، ولحق بناصر الدولة بن حمدان، وجاء بعساكره إلى بغداد فنزلوا بالجانب الغربي، وناصر الدولة بالجانب الشرقي، ووقع الغلاء في معسكر معز الدولة، والخليفة لانقطاع الميرة، وبقي عسكر ابن حمدان في رخاء من العيش لاتصال الميرة من الموصل.

واستعان ابن شيرزاده بالعامة والعيارين على حرب معز الدولة والديلم، وضاق الأمر بمعز الدولة حتى اعتزم على الرجوع إلى الاهواز.

ثم أمر أصحابه بالعبور من قطربال بأعلى دجلة، وتسابق أصحاب ناصر الدولة إلى مدافعتهم ومنعهم، وبقي في خف من الناس، فأجاز إليه شجعان الديلم من أقرب الأماكن فهزموه، وملك معز الدولة الجانب الشرقي، وأعاد المطيع إلى داره في محرم سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

ورجع ناصر الدولة إلى عكبرا وأرسل في الصلح، فوقف الأتراك التورونية الذين معه على خبر رسالته فهموا بقتله، فأغذ السير إلى الموصل ومعه ابن شيرزاده وأحكم الصلح مع معز الدولة.

استيلاء سيف الدولة على دمشق

وفي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة توفي الإخشيد أبو بكر محمد بن طغج صاحب مصر والشام، فنصب للأمر بعده ابنه أبو القاسم أنوجور، واستولى عليه كافور الأسود وخادم أبيه، وسار بهما إلى مصر.

وجاء سيف الدولة إلى دمشق فملكها، وارتاب به أهلها فاستدعوا كافوراً فجاءهم، وخرج سيف الدولة إلى حلب، ثم اتبعوه فعبر إلى الجزيرة وأقام أنوجور على حلب.

ثم اتفقوا واصطلحوا، وعاد أنوجور إلى مصر وسيف الدولة إلى حلب، وأقام كافور بدمشق قليلاً، ثم عاد إلى مصر واستعمل على دمشق بدراً الإخشيد ويعرف ببدير، ثم عزله بعد سنة وولى أبا المظفر طغج.

الفتنة بين ناصر الدولة بن حمدان وبين تكين والأتراك

كان مع ناصر الدولة جماعة من الأتراك أصحاب تورون فروا إليه كما قدمنا، فلما وقعت المراسلة بينه وبين معز الدولة في الصلح ثاروا به، وهرب منهم وعبر إلى الجانب الغربي ونزل الموصل واستجار القرامطة فأجاروه، وبعثوا معه إلى مأمنه، في جملته ابن شيرزاده فقبض ناصر الدولة عليه، واجتمع الأتراك بعده فقدموا عليهم تكين الشيرازي، وقبضوا على من تخلف من أصحاب ناصر الدولة واتبعوه إلى الموصل فسار عنها إلى نصيبين ودخل الأتراك الموصل.

وبعث ناصر الدولة إلى معز الدوله يستصرخه، فبعث إليه الجيوش مع وزيره أبي جعفر الصيمري وخرج الأتراك من الموصل في اتباع ناصر الدولة إلى نصيبين فمضى إلى سنجار ثم إلى الحديثة إلى السن، وهم في اتباعه، وبقي هنالك العساكر فقاتلوا الأتراك وهزموهم، وسيق قائدهم تكين إلى ناصر الدولة فسمله لوقته ثم حبسه.

وسار مع الصيمري إلى الموصل فأعطاه ابن شيرزاده وارتحل به إلى بغداد.

انتقاض جمان بالرحبة ومهلكه

كان جمان هذا من أصحاب تورون وسار إلى ناصر الدولة بن حمدان، فلما كان في محاربة معز الدولة ببغداد، استراب بمن معه من الديلم وجمعهم على جمان هذا، وأخرجه إلى الرحبة والياً فعظم أمره، وانتقض سنة ست وثلاثين وثلاثمائة على ناصر الدولة، وحدثته نفسه بالتغلب على ديار مضر، فسار إلى الرقة وحاصرها سبعة عشر يوماً، وانهزم عنها.

ووثب أهل الرحبة بأصحابه وعماله فقتلوهم لسوء سيرتهم، وجاء من الرقة فأثخن فيهم وبعث ناصر الدولة بن حمدان حاجبه باروخ مع عسكر فاقتتلوا على الفرات وانهزم جمان فغرق في الفرات واستأمن أصحابه إلى باروخ فأمنهم ورجع إلى ناصر الدولة.

فتنة ناصر الدولة مع معز الدولة

ثم وقعت الفتنة بين ناصر الدولة بن حمدان ومعز الدولة بن بويه وسار إليه معز الدولة من بغداد سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فسار هو من الموصل إلى نصيبين وملك معز الدولة الموصل فظلم الرعايا وأخذ أموالهم، وأجمع الاستيلاء على بلاد ابن حمدان كلها، فجاءه الخبر بأن عساكر خراسان قصدت جرجان والري، وبعث أخوه ركن الدولة يستمده فصالح ناصر الدولة عن الموصل والجزيرة والشام على ثمانية آلاف ألف درهم كل سنة، وعلى أن يخطب له ولأخويه عماد الدولة وركن الدولة، وعاد إلى بغداد في ذي الحجة آخر سبع وثلاثين وثلاثمائة.

غزوات سيف الدولة

كان أمر الثغور راجعاً إلى سيف الدولة بن حمدان ووقع الفداء سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة في ألفين من الأسرى على يد نصر النملي، ودخل الروم سنة اثنتين وثلاثين مدينة واسرغين ونهبوها وسبوها وأقاموا بها ثلاثاً وهم في ثمانين ألفاً مع الدمستق ثم سار سيف الدولة سنة سبع وثلاثين غازياً إلى بلاد الروم فقاتلوه وهزموه.

ونزل الروم على مرعش فأخذوها وأوقعوا بأهل طرسوس.

ثم دخل سنة ثمان وثلاثين وتوغل في بلاد الروم وفتح حصوناً كثيرة وغنم وسبا.

ولما قفل أخذت الروم عليه المضايق وأثخنوا في المسلمين قتلاً وأسراً واستردوا ما غنموه، ونجا سيف الدولة في فل قليل ثم ملك الروم سنة إحدى وأربعين مدينة سروج واستباحوها.

ثم دخل سيف الدولة سنة ثلاث وأربعين إلى بلاد الروم فأثخن فيها وغنم وقتل قسطنطين بن الدمستق فيمن قتل، فجمع الدمستق عساكر الروم والروس وبلغار وقصد الثغور، فسار إليه سيف الدولة بن حمدان والتقوا عند الحارث فانهزم الروم واستباحهم المسلمون قتلاً وأسراً، وأسر صهر الدمستق، وبعض أسباطه وكثير من بطارقته ورجع سيف الدولة بالظفر والغنيمة.

ثم دخل بلاد الروم النصرانية ثم رجع إلى أذنة، وأقام بها حتى جاءه نائبه على طرسوس فخلع عليه، وعاد إلى حلب وامتعض الروم لذلك فرجعوا إلى بلادهم.

ثم غزا الروم طرسوس والرها وعاثوا في نواحيها سبياً وأسراً ورجعوا.

ثم غزا سيف الدولة بلاد الروم سنة ست وأربعين وأثخن فيها وفتح عدة حصون وامتلأت أيدي عسكره من الغنائم

والسبي، وانتهى إلى أسروشنة ورجع وقد أخذت الروم عليه المضايق، فقال له أهل طرسوس: ارجع معنا فإن الدروب التي دخلت منها قد ملكها الروم عليك فلم يرجع إليهم، وكان معجباً برأيه فظهر الروم عليه في الدرب واستردوا ما أخذوا منهم ونجا في فل قليل يناهزون الثلاثمائة ثم دخل سنة خمسين قائد من موالي سيف الدولة إلى بلاد الروم من ناحية ميافارقين فغنم وسبا وخرج سالماً.

الفتنة بين ناصر الدولة ومعز الدولة بن بويه

قد تقدم لنا ما وقع من الصلح بين ناصر الدولة وبين معز الدولة بن بويه، وطالبه في المال فانتقض.

وسار إليه معز الدولة إلى الموصل منتصف السنة وملكها، وفارقها ناصر الدولة إلى نصيبين وحمل نوابه ومن يعرف وجوه المال وحمايته، وأنزلهم في قلاعه مثل الزعفراني وكواشي ودس إلى العرب بقطع الميرة عن عسكر معز الدولة فضاقت عليهم الأقوات، فرحل معز الدولة إلى نصيبين لما بها من الغرت السلطانية، واستخلف سبكتكين الحاجب الكبير على الموصل، وبلغه في طريقه أن أبا الرجاء وعبد الله ابني ناصر الدولة مقيمان بسنجار فقصدهما فهربا، وخلفا أثقالهما وانتهب العسكر خيامهما.

ثم عادا إلى معسكر معزالدولة وهم غازون فنالوا منهم، ورجعوا إلى سنجار، وسار معز الدولة إلى نصيبين ففارقها ناصر الدولة إلى ميافارقين، واستأمن كثير من أصحابه إلى معز الدولة، فسار ناصر الدولة إلى أخيه سيف الدولة بحلب، فقام بخدمته وباشرها بنفسه، وأرسل إلى معز الدولة في الصلح بينه وبين أخيه، فامتنع معز الدولة من قبول ناصر الدولة لانتقاضه وإخلافه، فضمن سيف الدولة البلاد بألفي ألف وتسعمائة ألف درهم، وأطلق معز الدولة أسرى أصحابهم.

وتم ذلك في محرم سنة ثمان وأربعين ورجع معز الدولة إلى العراق وناصر الدولة إلى الموصل.

استيلاء الروم على عين زربة ثم على مدينة حلب

وفي المحرم من سنة إحدى وخمسين نزل الدمستق في جموع الروم على عين زربة وملك الجبل المطل عليها، وضيق عليها حصارها ونصب عليها المنجنيقات، وشرع في النقب فاستأمنوا ودخل المدينة، ثم ندم على تأمينهم لما رأى من اختلال أحوالهم، فنادى فيهم أن يخرجوا بجميع أهاليهم إلى المسجد فمات منهم في الأبواب بكض الزحام خلق، ومات آخرون في الطرقات، وقتل من وجدوا آخر النهار، واستولى الروم على أموالهم وأمتعتهم وهدموا سور المدينة، وفتحوا في نواحي عين زربة أربعة وخمسين حصناً.

ورحل الدمستق بعد عشرين يوماً بنية العود، وخلف بجيشه بقيسارية وكان ابن الزيات صاحب طرسوس قد قطع الخطبة لسيف الدولة بن حمدان، واعترضه الدمستق في بعض مذاهبه فأوقع به، وقتل أخاه وأعاد أهل البلد الخطبة لسيف الدولة، وألقى ابن الزيات نفسه في النهر فغرق.

ثم رجع الدمستق إلى بلاد الثغور، وأغذ السير إلى مدينة حلب، وأعجل سيف الدولة عن الاحتشاد فقاتله في خف من أصحابه فانهزم سيف الدولة، واستلحم آل حمدان واستولى الدمستق على ما في داره خارج حلب من خزائن الأموال والسلاح وخرب الدار وحصر المدينة، وأحس أهل حلب مدافعته فتأخر إلى جبل حيوش.

ثم انطلقت أيدي الدعار بالبلد على النهب، وقاتلهم الناس على متاعهم، وخربت الأسوار لخلوها من الحامية فجاء الروم ودخلوها عليهم وبادر الأسرى الذين كانوا في حلب وأثخنوا في الناس، وسبي من البلد بضعة عشر ألفاً ما بين صبي وصبية واحتمل الروم ما قدروا عليه وأحرقوا الباقي.

ولجأ المسلمون إلى قصبة البلد فامتنعوا بها، وتقدم ابن أخت الملك إلى القلعة يحاصرها فرُمي بحجر منجنيق فمات وقتل الدمستق به من كان معه من أسرى المسلمين وكانوا ألفاً ومائتين.

وارتحل الدمستق عنهم ولم يعرض لسواد حلب وأمرهم بالعمارة على أنه يعود ابن عمه عن قريب فخيب الله ظنه.

وأعاد سيف الدولة عين زربة وأصلح أسوارها وغزا حاجبه مع أهل طرسوس إلى بلاد الروم فأثخنوا فيها ورجعوا، فجاء الروم إلى حصن سبة فملكوه وملكوا أيضا حصن دلوكة وثلاثة حصون مجاورة لهم، ثم سار نجا غلام سيف الدولة إلى حصن زياد فلقيهم جمع من الروم فانهزم الروم وأسر منهم خمسمائة رجل.

وفي هذه السنة أسر أبو فراس بن سعيد بن حمدان وكان عاملاً على منبج وفيها سار جيش من الروم في البحر إلى جزيرة

إقريطش، وبعث إليهم المعز بالمدد فأسر الروم وانهزم من بقي منهم، ثم ثار الروم في اثنتين وخمسين بعدها بملكهم فقتلوه وملكوا غيره وصار ابن السميسرة دمستقاً.

انتقاض أهل حران

كان سيف الدولة قد ولى هبة اللّه ابن أخيه ناصر الدولة غيرها من ديار مضر، فساء أثره فيهم وطرح الأمتعة على التجار وبالغ في الظلم فانتظروا به غيبته عند عمه سيف الدولة وثاروا بعماله ونوابه فطردوهم، فسار هبة اللّه إليهم وحاصرهم شهرين وأفحش في القتل فيهم.

ثم سار سيف الدولة فراجعوا الطاعة وداخلوا هبة اللّه وأفحش في القتل واستقاموا.

انتقاض هبة اللّه

وفي هذه السنة بعث سيف الدولة الصوائف إلى بلاد الروم، فدخل أهل طرسوس من درب ومولاه نجا من درب، وأقام هو ببعض الدروب لأنه كان أصابه الفالج قبل ذلك بسنتين، فكان يعاني منه شدة إذا عاوده وجعه، وتوغل أهل طرسوس في غزوتهم وبلغوا قونية، وعادوا فعاد سيف الدولة إلى حلب واشتد وجعه، فأرجف الناس بموته فوثب هبة اللّه ابن أخيه، وقتل ابن دنجا النصراني من غلمان سيف الدولة ولما تيقن حياة عمه رحل إلى حران وامتنع بها، وبعث سيف الدولة غلامه فجاء إلى حران في طلبه، فلحق هبة اللّه بأبيه بالموصل ونزل نجا على حران آخر شوال من سنة اثنتين وخمسين، وصادر أهلها على ألف ألف درهم وأخذها منهم في خمسة أيام بالضرب والنكال، وباعوا فيها ذخائرهم حتى أملقوا، وصاروا إلى ميافارقين ونزلها شاغرة فتسلط العيارون على أهلها.

انتقاض نجا بميافارقين وأرمينية واستيلاء سيف الدولة عليها

ولما فعل نجا بأهل حران ما فعل، واستولى على أموالهم فقوي بها وبطر، وسار إلى ميافارقين، وقصد بلاد أرمينية، وكان قد استولى على أكثرها رجل من العراق يعرف بأبي الورد فغلبه نجا على ما ملك منها، وأخذ قلاعه وبلاده فملك خلاط وملاذكرد وأخذ كثيراً من أموال أبي الورد وقتله، ثم انتقض على سيف الدولة.

واتفق أن معز الدولة بن بويه استولى على الموصل ونصيبين فكاتبه نجا يعده المساعدة على بني حمدان، ثم صالحه ناصرالدولة، ورجع إلى بغداد فسار سيف الدولة إلى نجا فهرب منه بين يديه واستولى على جميع البلاد التي ملكها من أبي الورد واستأمن إليه نجا وأخوه وأصحابه، فأمنهم وأعاد نجا إلى مرتبته، ثم وثب عليه غلمانه وقتلوه في داره بميافارقين في ربيع سنة ثلاث وخمسين.

مسير معز الدولة إلى الموصل وحروبه مع ناصر الدولة

كان الصلح قد استقر بين ناصر الدولة ومعز الدولة على ألف ألف درهم في كل سنة.

ثم طلب ناصر الدولة دخول ولده أبي ثعلب المظفر في اليمن على زيادة بذلها، وامتنع سيف الدولة من ذلك وسار إلى الموصل منتصف سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ولحق ناصر الدولة بنصيبين وملك معز الدولة الموصل، وسار عنها في أتباع ناصر الدولة بعد أن استخلف على الموصل في الجباية والحرب فلم يثبت ناصر الدولة، وفارق نصيبين وملكها معز الدولة.

وخالفه أبو ثعلب إلى الموصل وعاث في نواحيها، وهزمه قواد معز الدولة بالموصل فسكنت نفس معز الدولة.

وأقام ببر قعيد يترقب أخباره، وخالف ناصر الدولة إلى الموصل فأوقع بأصحابه وقتلهم، وأسر قواده واستولى على مخلفه من المال والسلاح وحمل ذلك كله إلى قلعة كواشي.

وبلغ الخبر إلى معز الدولة فلحق بالنواب، وأعيا معز الدولة أمرهم.

ثم أرسلوا إليه في الصلح فأجاب، وعقد لناصر الدولة على الموصل وديار ربيعة، وجميع أعماله بمقرها المعلوم، وعلى أن يطلق الأسرى الذين عنده من أصحاب معز الدولة ورجع معز الدولة إلى بغداد.

حصار المصيصة وطرسوس واستيلاء الروم عليها

وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة خرج الدمستق في جموع

الروم فنازل المصيصة، وشد حصارها وأحرق رساتيقها، وبلغ إلى نقب السور فدافعه أهلها أشد مدافعتهم.

ثم رحل إلى أذنة وطرسوس، وطال عيثه في نواحيها، وأكثر القتل في المسلمين، وغلت الأسعار في البلاد، وقلت الأقوات.

وعاود سيف الدولة مرضٌ فمنعه من النهوض إليهم، وجاء من خراسان خمسة آلاف رجل غزاة فبلغوا إلى سيف الدولة، فارتحل بسببهم للمدافعة فوجد الروم انصرفوا ففرق هؤلاء الغزاة في الثغور من أجل الغلاء، وكان الروم قد انصرفوا بعد خمسة عشر يوماً.

وبعث الدمستق إلى أهل المصيصة وأذنه وطرسوس يتهددهم بالعود، ويأمرهم بالرحيل من البلاد.

ثم عاد إليهم وحاصر طرسوس فقاتلهم أشد قتال وأسروا بطريقاً من بطارقته وسقط الدمستق إلى أهل المصيصة ورجعوا إلى بلادهم.

ثم سار نقفور ملك الروم من القسطنطينية سنة أربع وخمسين إلى الثغور، وبنى بقيسارية مدينة ونزلها، وجهز عليها العساكر وبعث أهل المصيصة وطرسوس في الصلح فامتنع، وسار بنفسه إلى المصيصة فدخلها عنوة واستباحها، ونقل أهلها إلى بلاد الروم وكانوا نحواً من مائتي ألف.

ثم سار إلى طرسوس واستنزل أهلها على الأمان، وعلى أن يحملوا من أموالهم وسلاحهم ما قدروا عليه، وبعث معهم حامية من الروم يبلغونهم أنطاكية، وأخذ في عمارة طرسوس وتحصينها وجلب الميرة إليها.

ثم عاد إلى القسطنطينية وأراد الدمستق بن شمسيق أن يقصد سيف الدولة في ميافارقين ومنعه الملك من ذلك.

انتقاض أهل أنطاكية وحمص

ولما استولى الروم على طرطوس لحق الرشيق النعيمي من قوادهم وأولي الرأي فيهم بأنطاكية في عدد وقوة، فاتصل به ابن أبي الأهوازي من الجباة بأنطاكية، وحسن له العصيان وأراه أن سيف الدولة بميافارقين عاجز عن العود إلى الشام بما هو فيه من الزمانة، وأعانه بما كان عنده من مال الجباة، فأجمع رشيق الانتقاض، وملك أنطاكية وسار إلى حلب وبها عرقوبة وجاء الخبر إلى سيف الدولة بأن رشيقاً أجمع الانتقاض، ونجا ابن الأهوازي إلى أنطاكية فأقام في إمارتها رجلاً من الديلم اسمه وزير ولقبه الأمير وأوهم أنه علوي وتسمى هو بالأشاد وأساء السيرة في أهل أنطاكية، وقصدهم عرقوبة من حلب فهزموه.

ثم جاء سيف الدولة من ميافارقين إلى حلب وخرج إلى أنطاكية، وقاتل وزيراً وابن الأهوازي أياماً.

وجيء بهما إليه أسيرين فقتل وزيراً وحبس ابن الأهوازي أياماً وقتله، وصلح أمر أنطاكية.

ثم ثار بحمص مروان القرمطي كان من متابعة القرامطة، وكان يتقلد السواحل لسيف الدولة، فلما تمكن ثار بحمص فملكها وملك غيرها في غيبة سيف الدولة بميافارقين، وبعث إليه عرقوبة مولاه بدراً بالعساكر فكانت بينهما عدة حروب أصيب فيها مروان بسهم فأثبت، وبقي أياماً يجود بنفسه والقتال بين أصحابه وبين بدر، وأسر بدر في بعض تلك الحروب فقتله مروان وعاش بعده أياماً ثم مات وصلح أمرهم.

خروج الروم إلى الثغور واستيلاؤهم على دارا

وفي سنة خمس وخمسين وثلاثمائة خرجت جموع الروم إلى الثغور فحاصروا آمد ونالوا من أهلها قتلاً وأسراً فامتنعت عليهم فانصرفوا إلى دارا قريباً من ميافارقين فأخذوها، وهرب الناس إلى نصيبين وسيف الدولة يومئذ بها فهمّ بالهروب، وبعث عن العرب ليخرج معهم ثم انصرف الروم وأقام هو بمكانه، ساروا إلى أنطاكية فحاصروها مدة، وعاثوا في جهاتها فامتنعت فعاد الروم إلى طرسوس.

وفاة سيف الدولة ومحبس أخيه ناصر الدولة

وفي صفر من سنة خمس وخمسين وثلاثمائة توفي سيف الدولة أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان بحلب، وحمل إلى ميافارقين فدفن بها وولي مكانه بعده ابنه أبو المعالي شريف.

ثم في جمادى الأولى منها حبس ناصر الدولة أخوه بقلعة الموصل، حبسه ابنه أبو ثعلب فضل الله الغضنفر وكان كبير ولده، وكان سبب ذلك أنه كبر وساءت أخلاقه، وخالف أولاده وأصحابه في المصالح، وضيق عليهم فضجروا منه، ولما بلغهم معز

الدولة بن بويه اعتزم أولاده على قصد العراق فنهاهم ناصر الدولة، وقال لهم: اصبروا حتى ينفق بختيار ما خلف أبوه معز الدولة من الذخيرة فتظفروا به، وإلا استظهر عليكم وظفر بكم فلجوا في ذلك، ووثب به أبو ثعلب بموافقة البطانة، وحبسه بالقلعة، ووكل بخدمته، وخالفه بعض إخوته في ذلك واضطرب أمره، واضطر إلى مداراة بختيار بن معز الدولة، وأرسل له في تجديد الضمان ليحتج به على إخوته فضمنه بألفي ألف درهم في كل سنة.

ولاية أبي المعالي بن سيف الدولة بحلب ومقتل أبي فراس

ولما مات سيف الدولة كما ذكرناه ولي بعده ابنة أبو المعالي شريف، وكان سيف الدولة قد ولى أبا فراس بن أبي العلاء سعد بن حمدان عندما خلصه من الأسر الذي أسره الروم في منبج فاستفداه في الفداء الذي بينه وبين الروم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وولاه على حمص.

فلما مات سيف الدولة استوحش من أبي المعالي بعده ففارق حمص، ونزل في صدد قرية في طرف البرية قريباً من حمص، فجمع أبو المعالي الأعراب من بني كلاب وغيرهم، وبعثهم مع عرقوبة في طلبه فجاء إلى صدد، واستأمن له أصحاب أبي فراس، وكان في جملتهم فأمر به عرقوبة فقتل، واحتمل رأسه إلى أبي المعالي وكان أبو فراس خاله.

أخبار أبي ثعلب مع إخوته بالموصل

كان لناصر الدولة بن حمدان زوجة تسمى فاطمة بنت أحمد الكردية، وهي أم أبي ثعلب وهي التي دبرت مع ابنها أبي ثعلب على أبيه، فلما حبس ناصر الدولة، كاتب ابنه حمدان يستدعيه ليخلصه مما هو فيه.

وظفر أبو ثعلب بالكتاب، فنقل أباه إلى قلعة كواشي واتصل ذلك بحمدان، وكان قد سار عند وفاة عمه سيف الدولة من الرحبة إلى الرقة فملكها.

ولما اتصل به شأن الكتاب سار إلى نصيبين وجمع الجموع، وبعث إلى إخوته في الإفراج عن أبيهم فسار أبو ثعلب لحربه، وانهزم حمدان قبل اللقاء للرقة فحاصره أبو ثعلب أشهراً، ثم اصطلحا وعاد كل منهما إلى مكانه.

ثم مات ناصر الدولة في محبسه سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ودفن بالموصل.

وبعث أبو ثعلب أخاه أبا البركات إلى حمدان بالرحبة فافترق عنه أصحابه، وقصد العراق مستجيراً ببختيار، فدخل بغداد في شهر رمضان من سنته، وحمل إليه الهدايا.

وبعث بختيار إلى أبي ثعلب النقيب أبا أحمد والد الشريف الرضي في الصلح مع أخيه حمدان فصالحه، وعاد إلى الرحبة منتصف سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وفارقه أبو البركات، ثم استقدمه أبو ثعلب فامتنع من القدوم عليه، فبعث إليه أخاه أبا البركات ثانياً في العساكر، فخرج حمدان إلى البرية، وترك الرحبة فملكها أبو البركات واستعمل عليها، وسار إلى الرقة، ثم إلى عرابان.

وخالفه حمدان إلى الرحبة فكبسها وقتل أصحاب أبي ثعلب بها فرجع إليه أبو البركات، وتقاتلا فضرب أبا البركات على رأسه فشجه، ثم ألقاه إلى الأرض وأسره ومات من يومه.

وحمل إلى الموصل فدفن بها عند أبيه.

وجهز أبو ثعلب إلى حمدان وقدم أخاه أبا فراس محمداً إلى نصيبين، ثم عزله عنها لأنه داخل حمدان ومالأه عليه، فاستدعاه وقبض عليه وحبسه بقلعة ملاشي من بلاد الموصل فاستوحش أخوه إبراهيم والحسن، ولحقا بأخيهما حمدان في شهر رمضان، وساروا جميعاً إلى سنجار.

وسار أبو ثعلب من الموصل في أثرهم في شهر رمضان سنة ستين وثلاثمائة فخاموا عن لقائه، واستأمن إليه أخواه إبراهيم والحسن خديعة ومكراً فأمنهما، ولم يعلم، وتبعهما كثير من أصحاب حمدان، وعاد حمدان من سنجار إلى عرابان وأطلع أبو ثعلب على خديعة أخويه فهربا منه.

ثم استأمن الحسن ورجع إليه، وكان حمدان أقام نائباً بالرحبة غلامه نجا، فاستولى على أمواله وهرب بها إلى حران وبها سلامة البرقعيدي من قبل أبي ثعلب فرجع حمدان إلى الرحبة، وسار أبو ثعلب إلى قرقيسيا، وبعث العساكر إلى الرحبة فعبروا الفرات، واستولوا عليها، ونجا حمدان بنفسه، ولحق بسنجار مستجيراً به، ومعه أخوه إبراهيم فأكرمهما ووصلهما وأقاما عنده.

ورجع أبو ثعلب إلى الموصل وذلك كله آخر سنة ستين وثلاثمائة.

خروج الروم إلى الجزيرة والشام

وفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة دخل ملك الروم الشام فسار في نواحيها، ولم يجد من يدافعه فعاث في نواحي طرابلس، وكان أهلها قد أخرجوا عاملهم إلى عرقة لسوء سيرته فنهب الروم أمواله، ثم حاصر الروم عرقة فملكوها ونهبوها.

ثم قصدوا حمص وقد انتقل أهلها عنها فأحرقوها، ورجعوا إلى بلاد السواحل وملكوا منها ثمانية عشر بلداً، واستباحوا عامة القرى، وساروا في جميع نواحي الشام ولا مدافع لهم، إلا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطرافهم.

ثم رجع ملك الروم مجمعاً حصار حلب وأنطاكية، وبلغه استعدادهم فرحل عنهم إلى بلاده ومعه من السبي مائة ألف رأس.

وكان بحلب قرعوية مولى سيف الدولة فمانعهم، وبعث ملك الروم سراياه إلى الجزيرة فبلغوا كفرتوثا وعاثوا في نواحيها، ولم يكن من أبي ثعلب مدافعة لهم.

استبداد قرعويه بحلب

كان قرعويه غلام سيف الدولة، وهو الذي أخذ البيعة لابنه أبي المعالي بعد موته، فلما كان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة انتقض على أبي المعالي وأخرجه من حلب واستبد بملكها.

وسار أبو المعالي إلى حران فمنعه أهلها، فسار إلى والدته بميافارقين وهي بنت سعيد بن حمدان أخت أبي فراس.

ولحق أصحابه بأبي ثعلب، وبلغ أمه بميافارقين وهي بنت سعيد بن حمدان أخت أبي فراس أنه يريد القبض عليها فمنعته أياماً من الدخول، حتى استوثقت لنفسها وأذنت له ولمن رضيته، وأطلقت لهم الأرزاق ومنعت الباقين وسار أبو المعالي لقتال قرعويه بحلب فامتنع عليه، ثم لحق أبو المعالي بحماة، وأقام بها وبقيت الخطبة بحران له ولا والي عليهم من قبله، فقدموا عليهم من يحكم بينهم.

مسير أبي ثعلب من الموصل إلى ميافارقين

ولما سمع أبو ثعلب بخروج أبي المعالي من ميافارقين إلى حلب لقتال قرعويه، سار إليها وامتنعت زوجة سيف الدولة منه، واستقر الأمر بينهما على أن تحمل إليه مائتي ألف درهم.

ثم نمي إليها أنه يحاول على ملك البلد فكبسته ليلاً، ونالت من معسكره فبعث إليها يلاطفها فأعادت إليه بعض ما نهب، وحملت إليه مائة ألف درهم وأطلقت الأسارى فرجع عنها.

استيلاء الروم على أنطاكية ثم حلب ثم ملاذكرد

وفي سنة تسع وخمسين خرج الروم إلى أنطاكية فمروا بحصن الوفاء بقربها، وهم نصارى فحاصروهم، واتفقوا على أن يرحلوا إلى أنطاكية، فإذا نزل الروم عليها ثاروا من داخل.

وانتقل أهل الوفاء ونزلوا بجبل أنطاكية.

وجاء بعد شهرين أخو نقفور ملك الروم في أربعين ألفاً من جموع الروم، ونازل أنطاكية فأخلى له أهل الوفاء السور من ناحيتهم، وملكوا البلد وسبوا منها عشرين ألفاً.

ثم أنفذ ملك الروم جيشاً كثيفاً إلى حلب، وأبو المعالي بن سيف الدولة عليها يحاصرها ففارقها أبو المعالي، وقصد البرية وملك الروم حلب.

وتحصن قرعويه وأهل البلد بالقلعة فحاصروها مدة، ثم ضربوا الهدنة بينهم على مال يحمله قرعويه، وعلى أن الروم إذا أرادوا الميرة من قرى الفرات لا يمنعونهم منها.

ودخل في هذه الهدنة حمص وكفرطاب والمعرة وأفامية وشيزر، وما بين ذلك من الحصون والقرى، وأعطاهم رهنهم على ذلك الروم، وأفرج الروم عن حلب.

وكان ملك الروم قد بعث جيشاً إلى ملاذكرد من أعمال أرمينية فحاصروها وفتحوها عنوة، ورعب أهل الثغور منهم في كل ناحية.

مقتل نقفور ملك الروم

كان نقفور ملكاً بالقسطنطينية، وهي البلاد التي يد بني عثمان لهذا العهد، وكان من يليها يسمى الدمستق.

وكان نقفور هذا شديداً على المسلمين، وهو الذي أخذ حلب أيام سيف الدولة، وملك طرسوس والمسيسة وعين زربه، وكان قتل الملك قبله وتزوج امرأته، وكان له منها ابنان فكفلهما نقفور وكان كثيراً ما يطرق بلاد المسلمين ويدوخها في ثغور الشام والجزيرة، حتى هابه المسلمون وخافوه على بلادهم.

ثم أراد أن يجب ربيبيه ليقطع نسلهما ففرقت أمهما من

ذلك، وأرسلت إلى الدمستق بن الشميشق وداخلته في قتله وكان شديد الخوف من نقفور.

وهذا كان أبوه مسلماً من أهل طرسوس يعرف بابن العفاش تنصر ولحق بالقسطنطينية، ولم يزل يترقى في الأطوار إلى أن نال من الملك ما ناله.

وهذه غلطة ينبغي للعقلاء أن يتنزهوا عنها، ولا ينال الملك من كان عريقاً في السوقة، وفقيداً للعصابة بالكلية وبعيداً عن نسب أهل الدولة، فقد تقدم من ذلك في مقدمة الكتاب ما فيه كفاية.

استيلاء أبي ثعلب على حران

وفي منتصف سنة تسع وخمسين وثلاثمائة سار أبو ثعلب إلى حران وحاصرها نحواً من شهر، ثم جنح أهلها إلى مصالحته واضطربوا في ذلك، ثم توافقوا عليه وخرجوا إلى أبي ثعلب وأعطوه الطاعة، ودخل في إخوانه وأصحابه فصلى الجمعة ورجع إلى معسكره.

واستعمل عليهم سلامة البرقعيدي، وكان من أكابر أصحاب بني حمدان.

وبلغه الخبر بأن نميراً عاثوا في بلاد الموصل وقتلوا العامل ببرقعيد فأسرع العود.

مصالحة قرعويه لأبي المعالي

قد تقدم لنا استبداد قرعويه بحلب سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وخروج أبي المعالي ابن سيف الدولة منها، وأنه لحق بأمه بميافارقين، ثم رجع لحصار قرعويه بحلب.

ثم رجع إلى حلب ونزل بها ثم وقع الاتفاق بينه وبين قرعويه على أن يخطب له بحلب ويخطبان جميعاً للمعز العلوي صاحب مصر.

مسير الروم إلى بلاد الجزيرة

وفي سنة إحدى وستين سار الدمستق في جموع الروم إلى الجزيرة فأغار على الرها ونواحيها، ثم تنقل في نواحي الجزيرة، ثم بلغ نصيبين واستباحها ودوخها، ثم سار في ديار بكر ففعل فيها مثل ذلك.

ولم يكن لأبي ثعلب في مدافعتهم أكثر من حمل المال إليهم، وسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنفرين، وجلسوا إلى الناس في المساجد والمشاهد يصفون ما جرى على المسلمين، وخوفوهم عاقبة أمرهم فتقدمهم أهل بغداد إلى دار الطائع الخليفة، وأرادوا الهجوم عليه فأغلقت دونهم الأبواب فأعلنوا بشتمه، ولحق آخرون من أهل بغداد ببختيار وهو بنواحي الكوفة يستغيثونه من الروم، فوعدهم بالجهاد، وأرسل إلى الحاجب سبكتكين يأمره بالتجهيز للغزو، وأن يستنفر العامة، وكتب إلى أبي ثعلب بن حمدان بإعداد الميرة والعلوفات والتجهيز، وأنه عازم على الغزو.

ووقعت بسبب ذلك فتنة في بغداد من قبل اشتغال العامة بذلك أدت إلى القتل والنهب بين عصائب الفتيان والعيارين.

أسر الدمستق وموته

ولما فعل الدمستق في ديار مضر والجزيرة ما فعل، قوي طمعه في فتح آمد فسار إليه أبو ثعلب، وقدم أخاه أبا القاسم هبة الله، واجتمعا على حرب الدمستق ولقياه في رمضان سنة اثنتين وستين.

وكانت الجولة في مضيق لا تتحرك فيه الخيل، وكان الروم على غير أهبة فانهزموا، وأخذ الدمستق أسيراً، فلم يزل محبوساً عند أبي ثعلب إلى أن مرض سنة ثلاث وستين وبالغ في علاجه وجمع له الأطباء فلم ينتفع بذلك ومات.

استيلاء بختيار بن معز الدولة على الموصل وماكان بينه وبين أبي ثعلب

قد تقدم لنا ما كان بين أبي ثعلب وأخويه حمدان وإبراهيم من الحروب، وأنهما سارا إلى بختيار بن معز الدولة صريخين فوعدهما بالنصرة، وشغل عن ذلك بما كان فيه فأبطأ عليهما أمره، وهرب إبراهيم ورجع إلى أخيه أبي ثعلب فتحرك عزم بختيار على قصد الموصل، وأغراه وزيره ابن بقية لتقصيره في خطابه فسار، ووصل إلى الموصل في ربيع سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ولحق أبو ثعلب بسنجار وأخلى الموصل من الميرة ومن الدواوين.

وخالف بختيار إلى بغداد، ولم يحدث فيها حدثاً من نهب ولا غيره، وإنما قاتل أهل بغداد فحدثت فيها الفتنة بسبب ذلك بين عامتها، واضطرب أمرهم وخصوصاً الجانب الغربي.

وسمع بختيار بذلك فبعث في أثره وزيره ابن بقية

وسبكتكين، فدخل ابن بقية بغداد وأقام سبكتكين في الضاحية، وتأخر أبو ثعلب عن بغداد وحاربه يسيراً، ثم داخله في الانتقاض واستيلاء سبكتكين على الأمر.

ثم أقصر سبكتكين عن ذلك وخرج إليه ابن بقية، وراسلوا أبا ثعلب في الصلح على مال يضمنه ويرد على أخيه حمدان إقطاعه ما سوى ماردين، وكتبوا بذلك إلى بختيار.

وارتحل أبو ثعلب إلى الموصل وأشار ابن بقية على سبكتكين باللحاق ببختيار فتقاعد، ثم سار.

وارتحل بختيار عن الموصل بعد أن جهد منه أهل البلد بما نالهم من ظلمه وعسفه، وطلب منه أبو ثعلب الإذن في لقب سلطاني وأن يحط عنه من الضمان فأجابه وسار.

ثم بلغه في طريقه أن أبا ثعلب نقض وقتل بعضاً من أصحاب بختيار عادوا إلى الموصل لنقل أهاليهم، فاستشاط بختيار واستدعى ابن بقية وسبكتكين في العساكر، وعادوا جميعاً إلى الموصل.

وفارقها أبو ثعلب وبعث أصحابه بالاعتذار والحلف على إنكار ما بلغه فقبل، وبعث الشريف أبا أحمد الموسوي لاستحلافه.

وتم الصلح ورجع بختيار إلى بغداد فجهز ابنته إلى أبي ثعلب وقد كان عقد له عليها من قبل.

عود أبي المعالي بن سيف الدولة إلى حلب

قد تقدم لنا أن قرعويه مولى أبيه سيف الدولة كان تغلب عليه، وأخرجه من حلب سنة سبع وخمسين وثلاثمائة، فسار إلى والدته بميافارقين، ثم إلى حماة فنزلها وكانت الروم قد أمنت حمص، وكثر أهلها.

وكان قرعوية قد استناب بحلب مولاه بكجور فقوي عليه وحبسه في قلعة حلب، وملكها سنين فكتب أصحاب قرعويه إلى أبي المعالي واستدعوه، فسار وحاصرها أربعة أشهر، وملكها وأصلح أحوالها، وازدادت عمارتها حتى انتقل إلى ولاية دمشق كما يذكر.

استيلاء عضد الدولة بن بويه على الموصل وسائر ملوك بني حمدان

ولما ملك عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه بغداد، وهزم بختيار ابن عمه معز الدولة، سار بختيار في الفل إلى الشام ومعه حمدان بن ناصر الدولة أخو أبي ثعلب فحسن له قصد الموصل على الشام، وقد كان عضد الدولة عاهده أن لا يتعرض لأبي ثعلب لمودة بينهما فنكث وقصدها.

ولما انتهى إلى تكريت أتته رسل أبي ثعلب بالصلح، وأن يسير إليه بنفسه وعساكره، ويعيده على ملك بغداد على أن يسلم إليه أخاه حمدان فسلمه إلى رسل أبي ثعلب فحبسه، وسار بختيار إلى الحديثة ولقي أبا ثعلب وسار معه إلى العراق في عشرين ألف مقاتل.

وزحف نحوهما عضد الدولة، والتقوا بنواحي تكريت في شوال سنة ست وستين فهزمهما عضد الدولة، وقتل بختيار ونجا أبو ثعلب إلى الموصل فاتبعه عضد الدولة، وملك الموصل في ذي القعدة، وحمل معه الميرة والعلوفات للإقامة، وبث السرايا في طلب أبي ثعلب ومعه المرزبان بن بختيار وأخواله أبو إسحاق وظاهر ابنا معز الدولة ووالدتهم.

وسار لذلك أبو الوفاء ظاهر بن إسماعيل من أصحابه. وسار حاجبه أبو ظاهر طغان إلى جزيرة ابن عمر ولحق أبو ثعلب بنصيبين.

ثم انتقل إلى ميافارقين فأقام بها، وبلغه مسير أبي الوفاء إليه ففارقها إلى تفليس وجاء أبو الوفاء إلى ميافارقين فامتنعت عليه فتركها وطلب أبا ثعلب فخرج من أرزن الروم إلى الحسينية من أعمال الجزيرة، وصعد إلى قلعة كواشي وغيرها من قلاعه، ونقل منها ذخيرته، وعاد فعاد أبو الوفاء إلى ميافارقين وحاصرها.

واتصل بعضد الدولة مجيئه إلى القلاع، فسار إليه ولم يدركه، واستأمن إليه كثير من أصحابه.

وعاد إلى الموصل وبعث قائده طغان إلى تفليس فهرب منها أبو ثعلب واتصل بملكهم المعروف بورد الرومي، وكان منازعاً لملكهم الأعظم في الملك، فوصل ورد يده بيد أبي ثعلب، وصاهره ليستعين به واتبعه في مسيره عسكر عضد الدولة، وأدركوه فهزمهم وأثخن فيهم، ونجا فلهم إلى حصن زياد ويسمى خرت برت.

وأرسل إلى ورد يستمده فاعتذر بما هو فيه ووعده بالنصر.

ثم انهزم ورد أمام ملك الروم فأيس أبو ثعلب من نصره، وعاد إلى بلاد الإسلام ونزل بآمد حتى جاء خبر ميافارقين.

وكان أبو الوفاء لما رجع من طلب أبي ثعلب حاصر ميافارقين، والوالي عليها هزارمرد فضبط البلد ودافع أبا الوفاء ثلاثة أشهر.

ثم مات وولى أبوثعلب مكانه مؤنساً من موالي الحمدانية، ودس أبو الوفاء إلى بعض أعيان البلد فاستماله فبعث له في الناس رغبة.

وشعر بذلك مؤنس فلم يطق مخالفتهم فانقاد واستأمن، وملك أبو الوفاء البلد وكان في أيام حصاره قد افتتح سائر حصونه فاستولى على سائر ديار بكر وأمن أصحاب أبي ثعلب وأحسن إليهم ورجع إلى الموصل.

وبلغ الخبر إلى أبي ثعلب منقلبه من دار الحرب فقصد الرحبة، وبعث إلى عضد الدولة يستعطفه فشرط عليه المسير إليه فامتنع.

ثم استولى عضد الدولة على ديار مضر وكان عليها من قبل أبي ثعلب سلامة البرقعيدي من كبار أصحاب بني حمدان وكان أبو المعالي بن سيف الدولة بعث إليها جيشاً من حلب فحاربوها وامتنعت عليهم، وبعث أبو المعالي إلى عضد الدولة وعرض بنفسه عليه فبعث عضد الدولة النقيب أبا أحمد الموسوي إلى سلامة البرقعيدي، وتسلمها بعد حروب، وأخذ لنفسه منها الرقة، ورد باقيها على سعد الدولة فصارت له.

ثم استولى عضد الدولة على الرحبة، وتفرغ بعد ذلك لفتح قلاعه وحصونه.

واستولى على جميع أعماله واستخلف أبا الوفاء على الموصل، ورجع إلى بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وستين.

ثم بعث عضد الدولة جيشاً إلى الأكراد الهكارية من أعمال الموصل فحاصروهم حتى استقاموا وسلموا قلاعهم، ونزلوا إلى الموصل فحال الثلج بينهم وبين بلادهم فقتلهم قائد الجيش، وصلبهم على جانبي طريق الموصل.

مقتل أبي ثعلب بن حمدان

ولما أيس أبو ثعلب بن حمدان من إصلاح عضد الدولة، والرجوع إلى ملكه بالموصل سار إلى الشام، وكان على دمشق قسام داعية العزيز العلوي غلب عليها بعد أفتكين وقد تقدم ذلك، وكيف ولي أفتكين على دمشق، فخاف قسام من أبي ثعلب ومنعه من دخول البلد فأقام بظاهرها، وكاتب العزيز، وجاءه الخبر بأنه يستقدمه، فرحل إلى طبرية بعد مناوشة حرب بينه وبين قسام.

وجاء الفضل قائد العزيز لحصار قسام بدمشق، ومر بأبي ثعلب ووعده عن العزيز بكل جميل.

ثم حدثت الفتنة بين دغفل وقسام وأخرجهم، وانتصروا بأبي ثعلب فنزل بجوارهم مخافة دغفل والفضل القائد الذي يحاصر دمشق.

ثم ثار أبو ثعلب في بني عقيل إلى الرملة في محرم سنة تسع وتسعين، فاستراب به الفضل ودغفل وجمعوا لحربه ففر بنو عقيل عنه، وبقي في سبعمائة من غلمانه وغلمان أبيه، وولى منهزماً فلحقه الطلب فوقف يقاتل، فضرب وأسر وحمل إلى دغفل، وأراد الفضل حمله إلى العزيز فخاف دغفل أن يصطنعه كما فعل بأفتكين فقتله، وبعث الفضل بالرأس إلى مصر، وحمل بنو عقيل أخته جميلة وزوجته بنت سيف الدولة إلى أبي المعالي بحلب فبعث بجميلة إلى الموصل وبعث بها أبو الوفاء إلى عضد الدولة ببغداد فاعتقلها.

وصول ورد المنازع لملك الروم إلى ديار بكر مستجيراً

كان ملك الروم أرمانوس لما توفي خلف ولدين صغيرين وهما بسيل وقسطنطين، ونصب أحدهما للملك وعاد حينئذ الدمستق نقفور من بلاد الإسلام بعد أن عاث في نواحيها وبالغ في النكاية، فاجتمع إليه الروم ونصبوه للنيابة عن ابني أرمانوس فداخلت أمهما ابن الشميشق على الدمشقية، وقبض على لاوون أخي دمستق وعلى ابنه ورديس بن لاوون واعتقلهما في بعض القلاع.

وسار إلى بلاد الشام وأعظم فيها النكاية ومر بطرابلس فحاصرها، وكان لوالده الملك أخ خصي وهو يومئذ وزير، فوضع على ابن الشميشق من سقاه السم، وأحس به من نفسه فأغذ السير إلى القسطنطينية فمات في طريقه.

وكان ورد بن منير من عظماء البطارقة في الأمر، وصاهر أبا ثعلب بن حمدان واستجاش بالمسلمين من الثغور، وقصد الروم ووالى عليهم الهزائم فخافه الملكان، وأطلقا ورديس بن لاوون وبعثاه على الجيوش لقتال الورد فقاتله فانهزم إلى ديار بكر سنة تسع وستين وثلاثمائة، ونزل بظاهر ميافارقين، وبعث أخاه إلى عضد الدولة مستنصراً به.

وبعث ملكا الروم بالقسطنطينية إلى عضد الدولة فاستمالاه فرجح جانبهما، وأمر بالقبض على ورد وأصحابه فقبض عليه أبو علي التميمي عامل ديار بكر، وعلى ولده وأخيه وأصحابه وأودعهم السجن بميافارقين ثم بعثهم إلى بغداد فحبسوا بها إلى أن

أطلقهم بهاء الدولة بن عضد الدولة سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وشرط عليه إطلاق عدد من المسلمين وإسلام سبعة من الحصون برساتيقها، وأن لا يتعرض لبلاد المسلمين ما عاش وجهزه فسار وملك في طريقه ملطية وقوي بما فيه وصالحه ورديس بن لاوون على أن يكون قسطنطينية وجانب الشمال من الخليج له وحاصر قسطنطينية، وبها الملكان ابنا أرمانوس وهما بسيل وقسطنطين في ملكها، وأقرا ورداً على ما بيده قليلاً.

ثم مات وتقدم بسيل في الملك ودام عليه ملكه وحارب البلغار خمساً وثلاثين سنة، وظفر بهم وأجلاهما عن بلادهم وأسكنها الروم.

ولاية بكجور على دمشق

قدمنا ولاية بكجور على حمص لأبي المعالي بن سيف الدولة وأنه عمرها وكان أهل دمشق ينتقلون إليها لما نالهم من جور قسام، وما وقع بها من الغلاء والوباء، وكان بكجور يحمل الأقوات من حمص تقرباً إلى العزيز صاحب مصر، وكاتبه في ولايته فوعده بذلك.

ثم استوحش من أبي المعالي سنة ثلاث وسبعين، وأرسل إلى العزيز يستنجز وعده في ولاية دمشق فمنع الوزير بن كلس من ولايته ريبة به، وكان بدمشق من قبل العزيز القائد بلكين بعثه فمنع الوزير بعد قسام وساء أثر ابن كلس في الدولة، واجتمع الكتاميون بمصر على التوثب بابن كلس ودعته الضرورة لاستقدام بلكين من دمشق فأمر العزيز باستقدامه، وولى بكجور مكانه فدخلها في رجب سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وأساء السيرة فيها وعاث في أصحاب الوزير بن كلس وأقام على ذلك ستاً.

وعجز أهل دمشق منه وجهزت العساكر من مصر مع القائد منير الخادم، وكوتب نزال والي طرابلس بمعاضدته فسار في العساكر، وجمع بكجور عسكراً من العرب وغيرهم، وخرج للقائه فهزمه منير واستأمن إليه بكجور على أن يرحل عن دمشق فأمنه، ورحل إلى الرقة واستولى عليها، وتسلم منير دمشق وأقام بكجور بالرقة واستولى على الرحبة وما يجاور الرقة، وراسل بهاء الدولة بن عضد الدولة بالطاعة وباد الكردي المتغلب على ديار بكر والموصل بالمسير إليه، وأبا المعالي سعد الدولة صاحب حلب بالعود إلى طاعته على أن يقطعه حمص، فلم يجبه أحد إلى شيء فأقام بالرقة يراسل موالي سعد الدولة أبي المعالي، ويستميلهم في الغدر به فأجابوه، وأخبروه أن أبا المعالي مشغول بلذاته فاستمد حينئذ العزيز، فكتب إلى نزال بطرابلس وغيره من ولاة الشام أن يمدوه ويكونوا في تصرفه.

ودس إليهم عيسى بن نسطورس النصراني وزير العزيز في المباعدة عنه لعداوته مع ابن كلس الوزير قبله، وتجديدها مع ابن منصور هذا فكتب نزال إلى بكجور يواعده بذلك في يوم معلوم، وأخلفه وسار بكجور من الرقة وبلغ خبر مسيره إلى أبي المعالي فسار من حلب ومعه لؤلؤ الكبير مولى أبيه، وكتب إلى بكجور يستميله ويذكره الحقوق، وأن يقطعه من الرقة إلى حمص فلم يقبل وكتب أبو المعالي إلى صاحب أنطاكية يستمده فأمده بجيش الروم، وكتب إلى العرب الذين مع بكجور يرغبهم في الأموال والإقطاع فوعدوه خذلان بكجور عند اللقاء.

فلما التقى العسكران وشغل الناس بالحرب، عطف العرب على سواد بكجور فنهبوه ولحقوا بأبي المعالي فاستمات بكجور وحمل على موقف أبي المعالي يريده، وقد أزاله لؤلؤ عن موقفه، ووقف مكانه خشية عليه، وحمل ذلك فلما انتهى بكجور لحملته برز إليه لؤلؤ وضربه فأثبته، وأحاط به أصحابه فولى منهزماً وجاء بعضهم إلى أبي المعالي فشارطه على تسليمه إليه فقبل شرطه، وأحضره فقتله وسار إلى الرقة، وبها سلامة الرشقي مولى بكجور وأولاده وأبو الحسن علي بن الحسين المغربي وزيره فاستأمنوا إليه فأمنهم ونزلوا عن الرقة فملكها واستكثر ما مع أولاد بكجور فقال له القاضي ابن أبي الحصين: هو مالك، وبكجور لا يملك شيئاً ولا حنث عليك.

فاستصفى مالهم أجمع وشفع فيهم العزيز فأساء عليه الرد، وهرب الوزير المغربي إلى مشهد علي.

خبر باد الكردي ومقتله على الموصل

كان من الأكراد الحميدية بنواحي الموصل ومن رؤسائهم رجل يعرف بباد، وقيل: باد لقب له، وأسمه أبو عبد الله الحسين بن ذوشتك، وقيل باد اسمه وكنيته أبو شجاع ابن ذوشتك، وإنما أبو عبد الله الحسين أخوه.

وكان له بأس وشدة وكان يخيف السابلة، ويبذل ما تجمع له من النهب في عشائره فكثرت جموعه، ثم سار إلى مدينة أرمينية فملك مدينة أرجيش.

ثم رجع إلى ديار بكر، فلما ملك عضد الدولة الموصل حضر عنده في جملة الوفود وخافه على نفسه فعدا وأبعد في مذهبه، وبلغ عضد الدولة أمره فطلبه فلم يظفر به.

ولما هلك عضد الدولة سار باد إلى ديار بكر فملك آمد وميافارقين.

ثم ملك نصيبين فجهز صمصام الدولة العساكر إليه مع الحاجب أبي القاسم سعيد بن محمد فلقيه على خابور الحسينية من بلاد كواشي فانهزم الحاجب وعساكره، وقتل كثير من الديلم، ولحق الحاجب سعيد بالموصل وباد في اتباعه.

وثارت عامة الموصل بالحاجب لسوء سيرته فأخرجوه، ودخل باد الموصل سنة ثلاث وسبعين وقوي أمره وسما إلى طلب بغداد وأهم صمصام الدولة أمره ونظر مع وزيره ابن سعدان في توجيه العساكر إليه وأنفذ كبير القواد زياد بن شهرا كونه، فتجهز لحربه وبالغوا في مدده وإزاحة علله فلقيهم في صفر سنة أربع وسبعين.

وانهزم باد وقتل كثير من أصحابه وأسر آخرون، وطيف بهم في بغداد.

واستولى الديلم على الموصل، وأرسل زياد القائد عسكراً إلى نصيبين فاختلفوا على مقدمهم.

وكتب ابن سعدان وزير صمصام الدولة إلى أبي المعالي بن حمدان صاحب حلب يومئذ بولاية ديار بكر، وإدخالها في عمله، فسير إليه أبو المعالي عسكره إلى ديار بكر فلم يكن لهم طاقة بأصحاب باد، فحاصروا ميافارقين أياماً ورجعوا إلى حلب.

وبعث سعد الحاجب من يتولى غدر باد فدخل عليه رجل في خيمته وضربه بالسيف على ساقه يظنها رأسه فنجا من الهلكة ثم بعث باد إلى زياد القائد، وسعد الحاجب بالموصل بطلب الصلح فأثمروا بينهم على أن تكون ديار بكر لباد، والنصف من طور عبدين.

فخلصت ديار بكر لباد من يومئذ وانحدر زياد القائد إلى بغداد، وأقام سعد الحاجب بالموصل إلى أن توفي سنة سبع وسبعين، فطمع باد في الموصل، وبعث إليها شرف الدولة بن بويه أبا نصر خواشاده في العساكر، فزحف إليه باد وتأخر المدد عن أبي نصر فبعث عن العرب من بني عقيل وبني نمير لمدافعة باد، وأقطعهم البلاد.

واستولى باد على طور عبدين آخر الجبال ولم يضجر، وأرسل أخاه في عسكر لقتال العرب فقتل، وانهزم عسكره وأقام باد قبالة خواشاده حتى جاء الخبر بموت شرف الدولة بن بويه، فزحف خواشاده إلى الموصل وقامت العرب بالصحراء وبساد بالجبال.

عود بني حمدان إلى الموصل ومقتل باد

كان أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسن ابنا ناصر الدولة بن حمدان قد لحقا بعد مهلك أخيهما أبي ثعلب بالعراق، وكانا ببغداد، واستقرا في خدمة شرف الدولة بن عضد الدولة، فلما تولى شرف الدولة وخواشاده في الموصل بعثهما إليها، ثم أنكر ذلك عليه أصحابه فكتب إلى خواشاده عامل الموصل فمنعهما، فكتب إليهما بالرجوع عنه فلم يجيبا، وأغذا السير إلى الموصل حتى نزلا بظاهرها.

وثار أهل الموصل بالديلم والأتراك الذين عندهم وخرجوا إلى بني حمدان.

وزحف الديلم لقتالهم فانهزموا وقتل منهم خلق، وامتنع باقيهم بدار الإمارة. وأراد أهل الموصل استلحامهم فمنعهم بنو حمدان وأخرجوا خواشاده ومن معه على الأمان إلى بغداد، وملكوا الموصل، وتسايل إليهم العرب من كل ناحية، وأراد أهل الموصل استلحامهم فمنعهم بنو حمدان، وأخرجوا خواشاده ومن معه على الأمان إلى بغداد وملكوا الموصل، وتسايل إليهم العرب من كل ناحية وبلغ الخبر إلى باد وهو بديار بكر بملك الموصل، وجمع فاجتمع إليه الأكراد البشنوية أصحاب قلعة فسك، وكان جمعهم كثيراً.

واستمال أهل الموصل بكتبه فأجابه بعضهم، فسار ونزل على الموصل، وبعث أبو طاهر وأبو عبد الله ابنا حمدان إلى أبي عبد الله محمد بن المسيب أمير بني عقيل يستنصرانه، وشرط عليهما جزيرة ابن عمر ونصيبين فقبلا شرطه.

وسار أبو عبد الله صريخاً، وأقام أخوه أبو طاهر بالموصل وباد يحاصره.

وزحف أبو الراود في قومه مع أبي عبد الله بن حمدان، وعبروا دجلة عند بدر، وجاؤوا إلى باد من خلفه.

وخرج أبو طاهر والحمدانية من أمامه، والتحم القتال ونكب بباد فرسه فوقع طريحاً، ولم يطق الركوب وجهض العدو عنه أصحابه فتركوه فقتله بعض العرب، وحمل رأسه إلى بني حمدان ورجعوا ظافرين إلى الموصل وذلك سنة ثمانين وثلاثمائة.

مهلك أبي طاهر بن حمدان واستيلاء بني عقيل على الموصل

لما هلك باد طمع أبو طاهر وأبو عبد اللّه ابنا حمدان في استرجاع ديار بكر، وكان أبو علي بن مروان الكردي، وهو ابن أخت باد قد خلص من المعركة، ولحق بحصن كيفا، وبه أهل باد وماله، وهو من أمنع المعاقل فتزوج امرأة خاله، واستولى على ماله وعلى الحصن، وسار في ديار بكر فملك ما كان لخاله فيها تليداً.

وبينما هو يحاصر ميافارقين زحف إليه أبو طاهر وأبو عبد اللّه ابنا حمدان يحاربانه فهزمهما وأسر عبد اللّه منهما، ثم أطلقه ولحق بأخيه أبي طاهر وهو يحاصر آمد، فزحفا لقتال ابن مروان فهزمهما وأسر أبا عبد اللّه ثانية إلى أن شفع فيه خليفة مصر فأطلقه، واستعمله الخليفة على حلب إلى أن هلك.

وأما أبو طاهر فلحق بنصيبين في فل من أصحابه، وبها أبو الدرداء محمد ابن المسيب أمير بني عقيل وسار إلى الموصل فملكها وأعمالها، وبعث إلى بهاء الدولة أن ينفذ إليه عاملاً من قبله، فبعث إليها قائداً كان تصرفه عن أبي الدرداء، ولم يكن له من الأمر شيء إلى أن استبد أبو الدرداء واستغنى عن العامل، وانقرض ملك بني حمدان من الموصل والبقاء لله.

ملك سعد الدولة بن حمدان بحلب وولاية ابنه أبي الفضائل واستبداد لؤلؤ عليه

ولما هزم سعد الدولة مولاه بكجور، وقتله حين سار إليه من الرقة، رجع إلى حلب فأصابه فالج وهلك سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وكان مولاه لؤلؤ كبير دولته فنصب ابنه أبا الفضائل، وأخذ له العهد على الأجناد، وتراجعت إليهم العساكر.

وبلغ الخبر أبا الحسن المغربي وهو بمشهد علي فسار إلى العزيز بمصر، وأغراه بملك حلب واعتصم أبو الفضائل ولؤلؤ بالقلعة فبعث إليها قائده منجوتكين في العساكر وحاصرها، ثم ملك البلد، واعتصم أبو الفضائل ولؤلؤ بالقلعة، وبعث أبو الفضائل ولؤلؤ إلى ملك الروم يستنجدانه، وكان مشغولاً بقتال البلغار، فأرسل إلى نائبه بأنطاكية أن يسير إليهم، فسار في خمسين ألفاً ونزل جسر الحديد على وادي العاصي، فنفر إليه منجوتكين في عساكر المسلمين وهزم الروم إلى أنطاكية، وأتبعهم فنهب بلادها وقراها وأحرقها.

ونزل أبو الفضائل ولؤلؤ من القلعة إلى مدينة حلب فنقل ما فيها من الغلال، وأحرق الباقي وعاد منجوتكين إلى حصارهم بحلب.

وبعث لؤلؤ إلى أبي الحسن المغربي في الوساطة لهم في الصلح فصالحهم منجوتكين، ورحل إلى دمشق حجراً من الحرب وتعذر الأقوات، ولم يراجع العزيز في ذلك فغضب العزيز، وكتب إليه يوبخه ويأمره بالعودة لحصار حلب فعاد وأقام عليها ثلاثة عشر شهراً.

فبعث أبو الفضائل ولؤلؤ مراسلة لملك الروم وحرضوه على أنطاكية، وكان قد توسط بلاد البلغار فرجع عنها وأجفل في الحشد، ورجع إلى حلب.

وبلغ الخبر إلى منجوتكين فأجفل عنها بعد أن أحرق خيامه وهدم مبانيه، وجاء ملك الروم وخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ فشكرا له ورجعا، ورحل ملك الروم إلى الشام ففتح حمص وشيزر ونهبهما، وحاصر طرابلس فامتنعت عليه فأقام بها أربعين ليلة، ثم رحل عائداً إلى بلده.

انقراض بني حمدان بحلب واستيلاء بني كلاب عليها

ثم إن أبا نصر لؤلؤاً مولى سيف الدولة عزل أبا الفضائل مولاه بحلب، وأخذ البلد منه ومحا دعوة العباسية، وخطب للحاكم العلوي بمصر ولقبه مرتضى الدولة.

ثم فسد حاله معه فطمع فيه بنو كلاب بن ربيعة وأميرهم يومئذ صالح بن مرداس وتقبض لؤلؤ على جماعة منهم دخلوا إلى حلب، كان فيهم صالح فاعتقله مدة وضيق عليه.

ثم فر من محبسه ونجا إلى أهله وزحف إلى حلب ولؤلؤ فيها وكانت بينه وبينهم حروب هزمه صالح آخرها، وأسره سنة ستين وأربعمائة.

وخلص أخوه نجا إلى حلب فحفظها وبعث إلى صالح في فدية أخيه وشرط له ما شاء فأطلقه، ورجع إلى حلب واتهم مولاه فتحاً، وكان نائبه على القلعة بالمداخلة في هزيمته فأجمع نكبته.

ونمي إليه الخبر، فكاتب الحاكم العلوي وأظهر دعوته، وانتقض على لؤلؤ فأقطعه الحاكم صيدا وبيروت، ولحق لؤلؤ بالروم في أنطاكية فأقام عندهم ولحق فتح بصيدا.

واستعمل الحاكم على حلب من قبله، وانقرض أمر بني

حمدان من الشام والجزيرة أجمع، وبقيت حلب في ملك العبيديين.

ثم غلب عليها صالح بن مرداس الكلابي، وكانت بها دولة له ولقومه، وورثها عنه بنوه كما يذكر في أخبارهم.

الخبر عن دولة بني عقيل بالموصل وابتداء أمرهم بأبي الدرداء وتصاريف أحوالهم

كان بنو عقيل وبنو كلاب وبنو نمير وبنو خفاجة، كلهم من عامر بن صعصعة وبنو طيئ من كهلان، قد انتشروا ما بين الجزيرة والشام في عدوة الفرات.

وكانوا كالرعايا لبني حمدان يؤدون إليهم الأتاوات وينفرون معهم في الحروب.

ثم استفحل أمرهم عند فشل دولة بني حمدان، وساروا إلى ملك البلاد.

ولما انهزم أبو طاهر بن حمدان أمام علي بن مروان بديار بكر كما قدمناه سنة ثمانين وثلاثمائة ولحق بنصيبين وقد استولى عليها أبو الدرداء محمد بن المسيب بن رافع بن مقلد بن جعفر بن عمر بن مهند أمير بني عقيل بن كعب بن ربيعه بن عامر، فقتل أبا طاهر وأصحابه وسار إلى الموصل فملكها.

وبعث إلى بهاء الدولة بن بويه المستبد على الخليفة بالعراق، في أن يبعث عاملاً على الموصل فبعث عاملاً من قبله، والحكم راجع لأبي الدرداء، وأقام على ذلك سنتين.

وبعث بهاء الدولة سنة اثنتين وثمانين عساكره إلى الموصل مع أبي جعفر الحجاج بن هرمز فغلب عليها أبا الدرداء، وملكها.

وزحف لحربه أبو الدرداء في قومه ومن اجتمع إليه من العرب فكانت بينهم حروب ووقائع، وكان الظفر فيها للديلم.

مهلك أبي الدرداء وولاية أخيه المقلد

ثم مات أبو الدرداء سنة ست وثمانين وولي إمارة بني عقيل مكانه أخوه علي بعد أن تطاول إليها أخوهما المقلد بن المسيب، وامتنع بنو عقيل لأن علياً كان أسن منه فصرف المقلد وجهه إلى ملك الموصل، واستمال الديلم الذين فيها مع أبي جعفر بن هرمز فمالوا إليه، وكتب إلى بهاء الدولة أن يضمنه الموصل بألفي ألف درهم كل سنة.

ثم أظهر لأخيه علي وقومه أن بهاء الدولة قد ولاه، واستمدهم فساروا معه ونزلوا على الموصل، وخرج إلى المقلد من كان استماله من الديلم واستأمن إليهم أبو جعفر قائد الديلم فأمنوه، وركب السفن إلى بغداد واتبعوه فلم يظفروا منه بشيء وتملك المقلد ملك الموصل.

فتنة المقلد مع بهاء الدولة بن بويه

كان المقلد يتولى حماية غربي الفرات وكان له ببغداد نائب فيه تهور وجرى بينه وبين أصحاب بهاء الدولة مشاجرة.

وكان بهاء الدولة مشغولاً بفتنة أخيه، فكتب نائب المقلد إليه يشكو من أصحاب بهاء الدولة، فجاء في العساكر، وأوقع بهم، ومد يده إلى جباية الأموال، وخرج نائب بهاء الدولة ببغداد، وهو أبو علي بن إسماعيل عن ضمان القصر وغيره فغالط بهاء الدولة، وأنفذ أبا جعفر الحجاج بن هرمز للقبض على أبي علي بن إسماعيل ومصالحة المقلد بن المسيب، فصالحه على أن يحمل إلى بهاء الدولة عشرة آلاف دينار ويخطب له ولأبي جعفر بعده، ويأخذ من البلاد رسم الحماية، وأن يخلع على المقلد الخلع السلطانية ويلقب حسام الدولة، ويقطع الموصل والكوفة والقصر والجامعين وجلس له ولأبي جعفر القادر باللّه فاستولى على البلاد، وقصده الأعيان والأماثل، وعظم قدره وقبض أبو جعفر على أبي علي بن إسماعيل ثم هرب ولحق بمهذب الدولة.

القبض على علي بن المسيب

كان المقلد بن المسيب قد وقعت المشاجرة بين أصحابه وأصحاب أخيه في الموصل قبل مسيره إلى العراق، فلما عاد إلى الموصل أجمع الانتقام من أصحاب أخيه، ثم نوى أنه لا يمكنه ذلك مع أخيه، فأعمل الحيلة في قبض أخيه، وأحضر عسكره من الديلم والأكراد، وورى بقصر دقوقا واستحلفهم على الطاعة.

ثم نقب دار أخيه وكانت ملاصقة له، ودخل إليه فقبض عليه وحبسه، وبعث زوجته وولديه قرواش وبدران إلى تكريت.

واستدعى رؤساء العرب وخلع عليهم وأقام فيهم العطاء فاجتمعت له زهاء ألفي فارس، وخرجت زوجة أخيه بولديها إلى أخيها الحسن بن المسيب، وكانت أحياؤه قريباً من تكريت، فاستجاش العرب على المقلد وسار إليه في عشرة آلاف، فخرج المقلد عن الموصل واستشار الناس في محاربة أخيه فأشار رافع بن محمد بن معز بالحرب، وأشار أخوه غريب بن محمد بالموادعة

وصلة الرحم.

وبينما هو في ذلك إذ جاءت أخته رميلة بنت المسيب شافعة في أخيها علي فأطلقه، ورد عليه ماله وتوادع الناس، وعاد المقلد إلى الموصل وتجهز لقتال علي بن مزيد الأسدي بواسط، لأنه كان مغضباً لأخيه الحسن، فلما قصد الحلة خالفه علي إلى الموصل فدخلها وعاد إليه المقلد، وتقدمه أخوه الحسن مشفقاً عليه من كثرة جموع المقلد فأصلح ما بينهما، ودخل المقلد إلى الموصل وأخواه معه ثم خاف علي فهرب، ثم وقع الصلح بينهما على أن يكون أحدهما بالبلد.

ثم هرب علي فقصده المقلد ومعه بنو خفاجة فهرب إلى العراق، واتبعه المقلد فلم يدركه ورجع عنه.

ثم سار المقلد إلى بلد علي بن مزيد فدخله ثانية ولحق ابن مزيد بمهذب الدولة صاحب البطيحة فأصلح ما بينهما.

استيلاء المقلد على دقوقا

ولما فرغ المقلد من شان أخويه وابن مزيد، وسار إلى دقوقا فملكها، وكانت لنصرانيين قد استعبدا أهلها وملكها من أيديهما جبريل بن محمد من شجعان بغداد، أعانه عليها مهذب الدولة صاحب البطيحة، وكان مجاهداً يحب الغزو فملكها، وقبض على النصرانيين وعدل في البلد.

ثم ملكها المقلد من يده، وملكها بعده محمد بن نحبان، ثم بعده قرواش بن المقلد.

ثم انتقلت إلى فخر الملك أبي غالب فعاد جبريل واستجاش بموشك بن حكويه من أمراء الأكراد، وغلب عليها عمال فخر الدولة.

ثم جاء بدران بن المقلد فغلب جبريل وموشك عليها وملكها.

مقتل المقلد وولاية ابنه قرواش

كان للمقلد موال من الأتراك فهربوا منه، واتبعهم فظفر بهم، واتبعهم وقتل وقطع وافحش في المثلة، فخاف إخوانهم منه، واغتنموا غفلته فقتلوه فيها بالأنبار سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة.

وكان قد عظم شأنه وطمع في ملك بغداد.

ولما قتل كان ولده الأكبر قرواش غائباً وكانت أمواله بالأنبار، فخاف نائبه فيها عبد الله بن إبراهيم بن شارويه بادرة عمه الحسن، وراسل أبا منصور بن قراد، وكان بالسندية، وقاسمه في مختلف المقلد على أن يدافع الحسن إن قصده، فأجابه إلى ذلك، وأرسل عبد الله إلى قرواش يستحثه فوصل، ووفى لابن قراد بما عاهده عليه نائبه عبد الله، وأقام ابن قراد عنده.

ثم إن الحسين بن المسيب جاء إلى مشايخ بني عقيل شاكياً مما فعله قرواش وابن قراد عنده، فسعوا بينهم في الصلح، واتفق الحسن وقراوش على الغدر بابن قراد، وأن يسير أحدهما إلى الآخر متحاربين، فإذا تلاقيا قبضا على ابن قراد ففعلا ذلك.

فلما تراءى الجمعان نمي الخبر إلى ابن قراد فهرب، واتبعه قرواش والحسن ولم يدركاه، ورجع قرواش إلى بيوته فأخذها بما فيها من الأموال، فوجه الأموال إلى أن أخذها أبو جعفر الحجاج بن هرمز.

فتنة قرواش مع بهاء الدولة بن بويه

ولما كانت سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة بعث قرواش بن المقلد جمعاً من بني عقيل إلى المدائن فحصروها، فبعث أبو جعفر بن الحجاج بن هرمز نائب بهاء الدولة ببغداد عسكراً إليهم فدفعوهم عنها، فاجتمعت عقيل وبنو أسد وأميرهم علي بن مزيد، وخرج أبو جعفر إليهم واستجاش بخفاجة، وأحضرهم من الشام فانهزم واستبيح عسكره، وقتل وأسر من الأتراك والديلم كثير.

ثم جمع العساكر ثانياً ولقيهم بنواحي الكوفة فهزمهم، وقتل وأسر وسار إلى أحياء بني مزيد، ونهب منها ما لا يقدر قدره.

ثم سار قرواش إلى الكوفة سنة سبع وتسعين، وكانت لأبي علي بن ثمال الخفاجي، وكان غائباً عنها فدخل قرواش الكوفة وصادرهم.

ثم قتل أبو علي سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وكان الحاكم صاحب مصر قد ولاه الرحبة فسار إليها، وخرج إليه عيسى بن خلاط العقيلي فقتله وملكها.

ثم ملكها بعده غيره إلى أن ولي أمرها صالح بن مرداس الكلابي صاحب حلب.

قبض قرواش على وزرائه

كان معتمد الدولة قرواش بن المقلد قد استوزره أبا القاسم

الحسين بن علي بن الحسين المغربي، وكان من خبره أن أباه من أصحاب سيف الدولة بن حمدان فذهب عنه إلى مصر وولي بها الأعمال، وولد ابنه أبا القاسم ونشأ هنالك.

ثم قتله الحاكم فلحق أبو القاسم بحسان بن مفرج بن الجراح الطائي بالشام، وأغراه بالانتقاض والبيعة لأبي الفتوح الحسن بن جعفر صاحب مكة ففعل ذلك، ولم يتم أمر أبي الفتوح ورجع إلى مكة ولحق أبو القاسم المغربي بالعراق، واتصل بفخر الملك فارتاب به القادر لانتسابه إلى العلوية فأبعده فخر الملك، فقصد قرواش بالموصل فاستوزره، ثم قبض عليه سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وصادره على مال زعم أنه ببغداد والكوفة فأحضره، وترك سبيله فعاد إلى بغداد ووزر لشرف الدولة بن بويه بعد وزيره مؤيد الملك الرخجي، وكان مداخلاً لعنبر الخادم الملقب بالأثير المستولي على الدولة يومئذ.

ثم سخطه الأتراك وسخطوا الأبهر فأشار عليه بالخروج عن بغداد فخرج الوزير وأبو القاسم معه إلى السندية وبها قرواش فأنزلهم، وساروا إلى أوانا وبعث الأتراك إلى الأثير عنبر بالاستعتاب فاستعتب، ورجع وهرب أبو القاسم المغربي إلى قرواش سنة خمس عشرة وأربعمائة لعشرة أشهر من وزارته.

ثم وقعت فتنة بالكوفة كان منشؤها من صهره ابن أبي طالب، فأرسل الخليفة إلى قرواش في إبعاده عنه، فأبعده وسار إلى ابن مروان إلى ديار بكر، وهنالك يذكر بقية خبره.

ثم قبض معتمد الدولة قرواش على أبي القاسم سليمان بن فهر عامل الموصل له ولأبيه، وكان من خبره أنه كان يكتب في حداثته بين يدي أبي إسحاق الصابي، ثم اتصل بالمقلد بن المسيب، وأصعد معه إلى الموصل واقتنى بها الضياع.

ثم استعمله قرواش على الجبايات فظلم أهلها وصادرهم فحبسه، وطالبه بالمال فعجز وقتل.

حروب قرواش مع العرب وعساكر بغداد

وفي سنة إحدى عشرة وأربعمائة اجتمع العرب على فتن قرواش، وسار إليه دبيس بن علي بن مزيد الأسدي وغريب بن معن، وجاءهم العسكر من بغداد فقاتلوه عند سر من رأى، ومعه رافع بن الحسين فانهزم ونهبت أثقاله وخزائنه، وحصل في أسرهم، وفتحوا تكريت عنوة من أعماله.

ورجعت عساكر بغداد إليها واستجار قرواش بغريب بن معن فأطلقه، ولحق بسلطان بن الحسن من عمال أمير خفاجه واتبعه عسكر من الترك وقاتلهم غربي الفرات، وانهزم هو وسلطان، وعاث العسكر في أعماله فبعث إلى بغداد بمراجعة الطاعة وقبل.

ثم كانت الفتنة بينه وبين أبي أسد وخفاجة سنة سبع عشرة وأربعمائة لأن خفاجه تعرضوا لأعماله بالسواد، فسار إليهم من الموصل وأميرهم أبو الفتيان منيع بن حسان، فاستجاش بدبيس بن علي بن مزيد فجاءه في قومه بني أسد، وعسكر من بغداد واتقوا بظاهر الكوفة، وهو يومئذ لقراوش، فخاف قرواش عن لقائهم وأجفل ليلاً للأنبار، واتبعوه فرحل عنها إلى حلله، واستولى القوم على الأنبار وملكوها، ثم فارقوها، وافترقوا فاستعادها قرواش.

ثم كانت الحرب بينه وبين بني عقيل في هذه السنة، وكان سببها أن الأثير عنبر الخادم حاكم دولة بني بويه انتقض عليه الجند، وخافهم على نفسه فلحق بقراوش فجاء قرواش وأخذ له أقطاعه وأملاكه بالقيروان، فجمع مجد الدولة بن قراد ورافع بن الحسين جمعاً كبيراً من بني عقيل وانضم إليهم بدران أخو قرواش وساروا لحربه وقد اجتمع هو وغريب بن معن والأثير عنبر، وأمدهم ابن مروان فكانوا في ثلاثة عشر ألفاً، والتقوا عند بلدهم فلما تصافوا والتحم القتال خرج بدران بن المقلد إلى أخيه قرواش فصالحه وسط المصاف، وفعل ثوران بن قراد كذلك مع غريب بن معن فتوادعوا جميعاً واصطلحوا، وأعاد قرواش إلى أخيه بدران مدينة الموصل.

ثم وقعت الحرب بين قرواش وبين خفاجه ثانياً.

وكان سببها أن منيع بن حسان أمير خفاجه وصاحب الكوفة سار إلى الجامعين بلد دبيس ونهبها فخرج دبيس في طلبه إلى الكوفة فقصد الأنبار، ونهبها هو وقومه، فسار قرواش إليهم ومعه غريب بن معن الأنبار.

ثم مضى في اتباعهم إلى القصر فخالفوه إلى الأنبار ونهبوها وأحرقوها واجتمع قرواش ودبيس في عشرة آلاف وخاموا عن لقاء خفاجة فلم يكن من قرواش إلا بناء السور على الأنبار.

ثم سار منيع بن حسان الخفاجي إلى الملك كليجار والتزم الطاعة وخطب له بالكوفة وأزال حكم بني عقيل عن سقي الفرات.

ثم سار بدران بن المقلد في جموع من العرب إلى نصيبين وحاصرها وهي لنصير الدولة بن مروان فجهز لهم الجند، وبعثهم إليها فقاتلوا بدران فانهزم أولاً، ثم عطف عليهم فانهزموا وأثخن

فيهم، وبلغه الخبر أن أخاه قرواش قد وصل إلى الموصل فأجفل خوفاً منه.

استيلاء الغز على الموصل

كان هؤلاء الغز من شعوب الترك بمفازة بخارى، وكثر فسادهم في جهاتها فأجاز إليهم محمود بن سبكتكين، وهرب صاحب بخارى وحضر عنده أميرهم أرسلان بن سلجوق فقبض عليه وحبسه بالهند، ونهب أحياءهم وقتل كثيراً منهم فهربوا إلى خراسان وأفسدوا ونهبوا فبعث إليهم العساكر فأثخنوا فيهم وأجلوهم عن خراسان.

ولحق كثير منهم بأصبهان وقاتلوا صاحبها وذلك سنة عشرين وأربعمائة.

ثم افترقوا فسارت طائفة منهم إلى جبل بكجار عند خوارزم ولحقت طائفة أخرى بأذربيجان وأميرها يومئذ وهشوذان فأكرمهم، ووصلهم ليكفوا عن فسادهم فلم يفعلوا.

وكان مقدموهم أربعة: توقا وكوكناش ومنصور ودانا فدخلوا مراغة سنة تسع وعشرين وأربعمائة، ونهبوها وأثخنوا في الأكراد الهدبانية، وسارت طائفة منهم إلى الري فحاصروها وأميرها علاء الدين بن كاكويه واقتحموا عليه البلد وأفحشوا في النهب والقتل، وفعلوا كذلك في الكرخ وقزوين.

ثم ساروا إلى أرمينية وعاثوا في نواحيها وفي أكرادها، ثم عاثوا في الدينور سنة ثلاثين.

ثم أوقع وهشوذان صاحب تبريز لجماعة منهم في بلده وكانوا ثلاثين ومقدمهم، فضعف الباقون وأكثر فيهم القتل.

واجتمع الغز الذين بأرمينية، وساروا نحو بلاد الأكراد الهكارية من أعمال الموصل فأثخنوا فيهم، وعاثوا في البلاد.

ثم كر عليهم الأكراد فنالوا منهم وافترقوا في الجبال وتمزقوا.

وبلغهم مسير نيال أخي السلطان طغرلبك وهم في الري وكانوا شاردين منه فأجفلوا من الري، وقصدوا ديار بكر والموصل سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ونزلوا جزيرة ابن عمر، ونهبوا باقردى وبازندى والحسنية وغدر سليمان بن نصير الدولة بن مروان بأمير منهم، وهو منصور بن عزعنيل فقبض عليه وحبسه، وافترق أصحابه في كل جهة وبعث نصير الدولة بن مروان عسكراً في اتباعهم، وأمدهم قرواش صاحب الموصل بعسكر آخر، وانضم إليهم الأكراد البشنوية أصحاب فتك فأدركوهم فاستمات الغز وقاتلوهم، ثم تحاجزوا.

وتوجهت العرب إلى العراق للمشتى، وأخربت الغز ديار بكر، ودخل قرواش الموصل ليدفعهم عنها لما بلغه أن طائفة منهم قصدوا بلده.

فلما نزلوا برقعيد عزم على الإغارة عليهم، فتقدموا إليه فرجع إلى مصانعتهم بالمال على ما شرطوه.

وبينما هو يجمع لهم المال وصلوا إلى الموصل فخرج قرواش في عسكره وقاتلهم عامة يومه.

وعادوا للقتال من الغد فانهزمت العرب وأهل البلد، وركب قرواش سفينة في الفرات، وخلف جميع ماله.

ودخل الغز البلد ونهبوا ما لا يحصى من المال والجوهر والحلي والأثاث، ونجا قرواش إلى السند، وبعث إلى الملك جلال الدولة يستنجده، وإلى دبيس بن علي بن مزيد وأمراء العرب والأكراد يستمدهم وأفحش الغز في أهل الموصل قتلاً ونهباً وعيثاً في الحرم، وصانع بعض الدروب والمحال منها عن أنفسهم بمال ضمنوه فكفوا عنهم وسلموا.

وفرضوا على أهل المدينة عشرين ألف دينار فقبضوها، ثم فرضوا أربعة آلاف أخر وشرعوا في تحصيلها فثار بهم أهل الموصل، وقتلوا من وجدوا منهم في البلد.

ولما سمع إخوانهم اجتمعوا ودخلوا البلد عنوة منتصف سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ووضعوا السيف في الناس واستباحوها اثني عشر يوماً، وانسدت الطرق من كثرة القتلى حتى واروهم جماعات في الحفائر.

وطلبوا الخطبة للخليفة ثم لطغرلبك، وطال مقامهم بالبلد، فكتب الملك جلال الدولة بن بويه ونصير الدولة بن مروان إلى السلطان طغرلبك يشكون منهم، فكتب إلى جلال الدولة معتذراً بأنهم كانوا عبيداً وخدماً لنا فأفسدوا في جهات الري فخافوا على أنفسهم وشردوا، ويعده بأنه يبعث العساكر إليهم، وكتب إلى نصير الدولة بن مروان يقول له: بلغني أن عبيدنا قصدوا بلادك فصانعتهم بالمال، وأنت صاحب ثغور ينبغي أن تعطي ما تستعين به على الجهاد، ويعده أنه يرسل من يدفعهم عن بلاده.

ثم سار دبيس بن مزيد إلى قرواش مدداً، واجتمعت إليه بنو عقيل، وساروا من السن إلى الموصل فتأخر الغز إلى تل أعفر، وأرسلوا إلى أصحابهم بديار بكر ومقدمتهم ناصفلي وبوقا فوصلوا إليهم وتزاحفوا مع قرواش في رمضان سنة خمس وثلاثين

وأربعمائة فقاتلوهم إلى الظهر، وكشفوا العرب عن حللهم.

ثم استماتت العرب فانهزمت الغز وأخذهم السيف ونهب العرب أحياءهم، وبعثوا برؤوس القتلى إلى بغداد واتبعهم قرواش إلى نصيبين ورجع عنهم، وقصدوا ديار بكر فنهبوها، ثم أرزن الروم كذلك ثم أذربيجان، ورجع قرواش إلى الموصل.

استيلاء بدران بن المقلد على نصيبين

قد تقدم لنا محاصرة بدران نصيبين ورحيله عنها من أخيه قرواش.

ثم اصطلحا بعد ذلك واتفقا وتزوج نصير الدولة ابنة قرواش فلم يعدل بينها وبين نسائه، وشكت إلى أبيها فبعث عنها.

ثم هرب بعض عمال ابن مروان إلى قرواش وأطمعه في الجزيرة فتعلل عليه قرواش بصداق ابنته، وهو عشرون ألف دينار.

وطلب الجزيرة ونصيبين لأخيه بدران فامتنع ابن مروان من ذلك، فبعث قرواش جيشاً لحصار الجزيرة وآخر مع أخيه بدران لحصار نصيبين.

ثم جاء بنفسه وحاصرها مع أخيه، وامتنعت عليه وتسللت العرب والأكراد إلى نصير الدولة بن مروان بميافارقين.

وطلب منه نصيبين فسلمها إليه، وأعطى قرواش من صداق ابنته خمسة عشر ألف دينار.

وكان ملك ابن مروان في دقوقا، فزحف إليه أبو الشوك من أمراء الأكراد فحاصره بها، وأخذها من يده عنوة، وعفا عن أصحابه.

ثم توفي بدران سنة خمس وعشرين وأربعمائة وجاء ابنه عمر إلى قرواش فأقره على ولاية نصيبين، وكان بنو نمير قد طمعوا فيها وحاصروه، فسار إليهم ودافعهم عنها.

الفتنة بين قرواش وغريب بن معن

كانت تكريت لأبي المسيب رافع بن الحسين من بني عقيل، فجمع غريب جمعاً من العرب والأكراد، وأمده جلال الدولة بعسكر، وسار إلى تكريت فحاصرها وكان رافع بن الحسين عند قرواش بالموصل، فسار لنصره بالعساكر، ولقيه غريب في نواحي تكريت فانهزم، واتبعه قرواش ورافع، ولم يتعرضوا لحلته وماله ثم تراسلوا واصطلحوا.

فتنة قرواش وجلال الدولة وصلحهما

كان قرواش قد بعث عسكره سنة إحدى وثلاثين لحصار خميس بن ثعلب بتكريت، واستجار خميس بجلال الدولة فبعث إليه بالكف عنه فلم يفعل، فسار بنفسه يحاصره، وكتب إلى الأتراك ببغداد يستفسدهم عن جلال الدولة.

وسار جلال الدولة إلى الأنبار فامتنعت عليه، وسار قرواش للقائه وأعوزت عساكر جلال الدولة الأقوات.

ثم اختلفت عقيل على قرواش، وبعث إلى جلال الدولة بمعاودة الطاعة، فتحالفا وعاد كل إلى بلده.

أخبار ملوك القسطنطينية لهذه العصور

كان بسيل وقسطنطين قد تزوج أبوهما أمهما في يوم عيد، ركب إلى الكنيسة فرآها في النظارة فشغف بها.

وكان أبوها من أكابر الروم فخطبها منه، وتزوجها وولدت الولدين ومات أبوهما وهما صغيران، وتزوجت بعده بمدة نقفور، وملك وتصرف وأراد أن يجب ولديها، وأغرت الدمستق بقتله فقتله وتزوجت به، وأقامت معه سنة، ثم خافها وأخرجها بولديها إلى دير بعيد فأقامت فيه سنة أخرى.

ثم دست إلى بعض الرهبان ليقتل الدمستق، فأقام بكنيسة الملك يتحيل لذلك، حتى جاء الملك واستطعمه القربان في العيد من يده، فدس له معه سماً ومات.

وجاءت هي قبل العيد بليال إلى القسطنطينية فملك ولدها بسيل واستبدت عليه لصغره.

فلما كبر سار لقتال البلغار في بلادهم، وبلغه وهو هنالك وفاتها فأمر خادماً له بتدبير الأمر في غيبته بالقسطنطينية.

وأقام في قتال البلغار أربعين سنة، ثم انهزم وعاد إلى القسطنطينية وتجهز ثانية، وعاد إليهم فظفر بهم وقتل ملكهم وملك بلادهم، ونقل أهلها إلى بلاد الروم.

قال ابن الأثير: وهؤلاء البلغار الذين ملك بلادهم بسيل غير الطائفة المسلمة منهم، وهؤلاء أقرب من أولئك إلى بلاد الروم بشهرين، وكلاهما بلغار انتهى.

وكان بسيل عادلاً حسن السيرة، وملك على الروم نيفاً وسبعين سنة.

ولما مات الملك أخوه قسطنطين، ثم مات وخلف بنات

ثلاثاً فملكت الكبرى وتزوجت بأرمانوس من بيت ملكهم، وهو الذي ملك الرها من المسلمين، وكان له من قبل الملك رجل يخدمه من السوقة الصيارفة اسمه ميخاييل فاستخلصه وحكمه في دولته، فمالت زوجة أرمانوس إليه، وأعملا الحيلة في قتل الملك أرمانوس فقتلاه خنقاً وتزوجته على كره من الروم.

ثم عرض لميخاييل هذا مرض شوه خلقته فعهد بالملك إلى ابن أخيه واسمه ميخاييل، فملك بعده وقبض على أخواله وإخوتهم وضرب الدنانير باسمه سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة.

ثم أحضر زوجته بنت الملك وحملها على الرهبانية والخروج له عن الملك، وضربها ونفاها إلى جزيرة في البحر.

ثم اعتزم على قتل البطرك للراحة من تحكمه، فأمره بالخروج إلى الدير لعمل وليمة يحضرها عنده، وأرسل جماعة من الروم وبلغار لقتله، فبذل لهم البطرك مالاً على الإبقاء، ورجع إلى بيعته، وحمل الروم على عزل ميخاييل، فأرسل إلى زوجته الملكة من الجزيرة التي نفاها إليها فلم تفعل، وأقبلت على رهبانيتها فخلعها البطرك من الملك، وملكت أختها الصغيرة بدرونة، وأقاموا من خدم أبيها من يدبر ملكها، وخلعوا ميخاييل، وقاتل أشياعه أشياع بدرونة فظفر بهم أشياع بدرونة ونهبوهم.

وفزع الروم إلى التماس ملك يدبرهم، وقارعوا بين المرشحين فخرجت القرعة على قسطنطين فملكوه وتزوجته الملكة الكبرى، ونزلت لها الصغيرة عن الملك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة.

ثم خرج خارجي من الروم اسمه ميناس وكثر جمعه وبلغ عشرين ألفاً، وجهز قسطنطين إليه العساكر فقتلوه وسيق رأسه إليه، وافترق أصحابه.

ثم ورد على القسطنطينية سنة خمس وثلاثين مراكب للروم ووقعت منها محاورات نكرها الروم فحاربوهم، وكانوا قد فارقوا مراكبهم إلى البر فأحرقوها وقتلوا الباقين.

الوحشة بين قرواش والأكراد

كان للأكراد عدة حصون تجاور الموصل، فمنها للحميدية قلعة العقر وما إليها، وصاحبها أبو الحسن بن عكشان؛ وللهدبانية قلعة إربل وأعمالها، وصاحبها أبو الحسن بن موشك، ونازعه أخوه أبو علي بن أربل فأخذها منه بإعانة ابن عكشان، وأسر أخاه أبا الحسن.

وكان قرواش وأخوه زعيم الدولة أبو كامل مشغولين بالعراق فنكرا ذلك لما بلغهما، ورجعا إلى الموصل، فطلب قرواش من الحميدي والهدباني النجدة على نصير الدولة بن مروان، فجاء الحميدي بنفسه، وبعث الهدباني أخاه، وأصلح قرواش ونصير الدولة، ثم قبض على عكشان وصالحه على إطلاق أبي الحسن بن موشك، وامتنع أخوه أبو علي وكان عكشان عوناً عليه، فأجاب ورهن في ذلك ولده.

ثم أرسل أبا علي في ذلك الأمر، وحضر بالموصل ليسلم أربل إلى أخيه أبي الحسن، وسلم قرواش إليه قلاعه.

وخرج ابن عكشان وأبو علي ليسلما إربل إلى أبي الحسن بن موشك، فغدرا به وقبضا على أصحابه، وهرب هو إلى الموصل وتأكدت الوحشة بينهما وبين قرواش.

خلع قرواش بأخيه أبي كامل ثم عوده

ثم وقعت الفتنة بين معتمد الدولة قرواش وأخيه زعيم الدولة أبي كامل، وكان سببها أن قريشاً ابن أخيهما بدران فتن عمه أبا كامل، وجمع عليه الجموع وأعانه عمه الآخر.

واستمد قرواش بنصير الدولة بن مروان فبعث إليه بابنه سليمان، وأمده الحسن بن عكشان وغيرهما من الأكراد وساروا إلى معلايا فنهبوها وأحرقوها.

ثم اقتتلوا في المحرم سنة إحدى وأربعين يوماً وثانياً، ووقفت الأكراد ناحية عن المصاف ولم يغشوا المجال.

وتسلل عن قرواش بعض جموعه من العرب إلى أخيه، وبلغه أن شيعة أخيه أبي كامل بالأنبار وثبوا فيها وملكوها فضعف أمره، وأحس من نفسه الظهور عليه ولم يبرح فركب أخوه أبو كامل وقصد حلته، فركب قرواش للقائه، وجاء به أبو كامل لحلته ثم بعث به إلى الموصل ووكل به.

وملك أبو كامل الموصل واشتط عليه العرب فخاف العجز والفضيحة أن يراجعوا طاعة أخيه فسبقهم إليها، وأعاده إلى ملكه وبايعه على الطاعة، ورجع قرواش إلى ملكه.

وكان أبو كامل قد أحدث الفتنة بين البساسيري كافل الخلافة ببغداد، وملك الأمراء بها لما فعله بنو عقيل في عراق العجم من التعرض لإقطاعه، فسار إليهم البساسيري، وجمع أبو كامل بني عقيل ولقيه فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم حاجزوا.

فلما رجع قرواش إلى ملكه نزع جماعة من أهل الأنبار إلى

البساسيري شاكرين شاكين سيرة قرواش، وطلبوا أن يبعث معهم عسكراً وعاملاً إلى بلدهم ففعل ذلك، وملكها من يد قرواش وأظهر فيهم العدل.

خلع قرواش ثانية واعتقاله

كان قرواش لما أطاعه أخوه أبو كامل بقي معه كالوزير يتصرف، إلا أن قرواش أنف من ذلك وأعمل الحيلة في التخلص منه، فخرج من الموصل سائراً إلى بغداد، وشق ذلك على أخيه أبي كامل فأرسل إليه أعيان قومه ليردوه طوعاً أو كرهاً فلاطفوه أولاً، وشعر منهم بالدخيلة فأجاب إلى العود وشرط سكنى دار الإمارة، فلما جاء إلى أبي كامل قام بمبرته وإكرامه ووكل به من يمنعه التصرف.

وفاة أبي كامل وولاية قريش بن بدران

لما ملك قريش بن بدران وحبس عمه بقلعة الجراحية، ارتحل يطلب العراق سنة أربع وأربعين وأربعمائة فانتقض عليه أخوه المقلد، وسار إلى نور الدولة دبيس بن مزيد فنهب قريش حلله، وعاد إلى الموصل، واختلف العرب عليه، ونهب عمال الملك الرحيم ما كان لقريش بنواحي العراق.

ثم استمال قريش العرب عليه، ونهب عمال الملك الرحيم ما كان لقريش بن المسيب صاحب الحظيرة مخالفاً عليه.

وبعث قريش بعض أصحابه فلقيهم، وأوقع بهم فسار إليه قريش، ولقيه فهزمه واتبعه إلى حلل بلاد ابن غريب ونهبها.

ودخل العراق وبعث إلى عمال الملك الرحيم بالطاعة وضمان ما كان عليه في أعماله فأجابوه إلى ذلك لشغل الملك الرحيم بخوزستان فاستقر أمره وقوي.

(وفاة قرواش) وفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة هذه توفي معتمد الدولة أبو منيع قرواش بن المقلد بمحبسه في قلعة الجراحية وحمل إلى الموصل ودفن بها ببلد نينوى شرقيها، وكان من رجال العرب.

استيلاء قريش على الأنبار

وفي سنة ست وأربعين وأربعمائة زحف قريش بن بدران من الموصل ففتح مدينة الأنبار وملكها من يد عمال البساسيري وسار البساسيري إلى الأنبار فاستعادها.

حرب قريش بن بدران والبساسيري ثم اتفاقهما وخطبة قريش لصاحب مصر

كان قريش بن بدران قد بعث بطاعته إلى طغرلبك وهو بالري، وخطب له بجميع أعماله، وقبض على الملك الرحيم.

وكان قريش معه فنهب معسكره واختفى، وسمع به السلطان فأمنه ووصل إليه فأكرمه ورده إلى عمله.

وكان البساسيري قد فارق الملك الرحيم عند مسيره من واسط إلى بغداد، ومسير طغرلبك من حلوان.

وقصد نور الدولة دبيس بن مزيد للمصاهرة بينهما.

وكان سبب مفارقة البساسيري للملك الرحيم كتاب القائم له بإبعاده لاطلاعه على كتابه إلى خليفة مصر، فلما وصل قريش بن بدران إلى بغداد وعظم استيلاء السلطان طغرلبك على الدولة، بعث جيشاً وزحف البساسيري للقائهم ومعه نور الدولة دبيس، فالتقوا بسنجار، فانهزم قريش وقطلمش وأصحابهما، وقتل كثير منهم وعاث أهل سنجار فيهم، وسار بهم إلى الموصل وخطب بها للمستنصر خليفة مصر، وقد كانوا بعثوا إليه بطاعتهم من قبل، فبعث إليهم بالخلع ولقريش جملتهم.

استيلاء طغرلبك على الموصل وولاية أخيه نيال عليها ومعاودة قريش الطاعة

كان السلطان طغرلبك لما طال مقامه ببغداد، ساء أثر عساكره في الرعايا، فبعث القائم وزيره رئيس الرؤساء أن يحضر عميد الملك الكندري وزير طغرلبك ويعظه في ذلك، ويهدده برحيل القائم عن بغداد فبلغه خلال ذلك شأن الموصل، فرحل إليها وحاصر تكريت ففتحها وقبل من صاحبها نصر بن عيسى من بني عقيل ما لا بد له منه.

ورحل عنه فمات نصر وولي بعده أبو الغنائم بن البحلبان فأصلح حاله مع رئيس الرؤساء، ورحل السلطان من البواريح وكان في انتظار أخيه ياقوتي بن تنكير.

ثم توجه السلطان إلى نصيبين وبعث هزارسب إلى البرية لقتال العرب وفيهم قريش ودبيس وأصحاب حران والرقة من نمير فأوقع بهم، ونال منهم وأسر جماعة فقتلهم.

وعاد إلى السلطان طغرلبك فبعث إليه قريش ودبيس بطاعتهما، وأن يتوسط لهما عند السلطان، فعفا السلطان عنهما، وقال للبساسيري: ردهما إلى الخليفة فيرى ما عندهما.

فرحل البساسيري عند ذلك إلى الرحبة وتبعه أتراك بغداد ومقبل بن المقلد وجماعة من بني عقيل، وبعث السلطان إلى قريش ودبيس هزارسب بن تنكير ليقضي ما عندهما ويحضرهما، وكان ذلك بطلبهما ثم خافا على أنفسهما، فبعث قريش أبا السيد هبة الله بن جعفر ودبيس ابنه بهاء الدولة منصوراً فقبلهما السلطان، وكتب لهما بأعمالهما، وكان لقريش من الأعمال: الموصل ونصيبين وتكريت وأوانا ونهر بيطر وهيت والأنبار وبادرونا ونهر الملك.

ثم قصد السلطان ديار بكر ووصل إليه أخوه إبراهيم نيال، وأرسل هزارسب إلى قريش ودبيس يحذرهما منه.

وسار لسنجار لأجل واقعته مع قريش ودبيس، فبعث العساكر إليها واستباحهم وقتل أميرها علي بن مرحا وخلق كثير من أهلها رجالاً ونساء، وشفع إبراهيم نيال في الباقين فكف عنهم، وأقطع سنجار والموصل وتلك الأعمال كلها لأخيه إبراهيم نيال، وعاد إلى بغداد فدخلها في ذي القعدة سنة تسع وأربعين وأربعمائة.

مقارنة نيال الموصل وما كان لقريش فيها وفي بغداد مع البساسيري وحبسهما القائم

وفي سنة خمسين وأربعمائة خرج إبراهيم نيال من الموصل إلى بلاد الروم، فخشي طغرلبك أن يكون منتقضاً، وبادر بكتابه وكتاب الخليفة إليه، فرجع وخرج الوزير الكندري للقائه.

وخالفه البساسيري وقريش إلى الموصل فملكها وحاصر القلعة حتى استأمن أهلها على يد ابن موسك وصاحب أربد فأمّناهم وهدما القلعة.

وسار السلطان طغرلبك من وقته إلى الموصل ففارقها، واتبعها إلى نصيبين ففارقه أخوه نيال في رمضان سنة خمسين وأربعمائة.

وسار السلطان طغرلبك في أثره وحاصره بهمذان، وجاء البساسيري إلى بغداد وكان هزارسب بواسط، ودبيس ببغداد قد استدعاه الخليفة للدفاع فسئم المقام، ورجع إلى بلده، وجاء البساسيري وقريش ووزير بني بويه أبو الحسن بن عبد الرحيم ونزلوا بجوانب بغداد، ونزل عميد العراق بالعسكر قبالة البساسيري ورئيس الرؤساء وزير الخليفة قبالة الآخرين.

وخطب البساسيري للمستنصر صاحب مصر بجوامع بغداد وأذن بـ «حيّ على خير العمل».

ثم استعجل رئيس الرؤساء الحرب فاستنجده القوم، ثم كروا عليه فهزموه واقتحموا حريم الخلافة، وملكوا القصور بما فها، ونهب الخليفة فوجد عميد العراق قد استأمن إلى قريش بن بدران فاستأمن هو كذلك، وأمنهما قريش وأعادهما.

وعذله البساسيري في الانفراد بذلك دونه، وقد تعاهدا على خلاف ذلك فاستعتب له بالوزير رئيس الرؤساء، ودفعه إليه وأقام الخليفة والعميد عنه، فقتل البساسيري الوزير ابن عبد الرحيم، وبعث قريش بالخليفة القائم مع ابن عمه مهارش بن نجلى إلى حديثة عانة فأنزله بها مع أهله وحرمه وحاشيته، حتى إذا فرغ السلطان، طغرلبك من أمر أخيه نيال وقتله ورجع إلى بغداد بعث البساسيري وقريش في إعادة القائم إلى داره فامتنع، وأجفل عن بغداد في ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة.

وشمل النهب مدينة بغداد وضواحيها من بني شيبان وغيرهم، وبعث السلطان طغرلبك الإمام أبا بكر محمد بن فورك إلى قريش بن بدران يشكره على فعله بالخليفة وبابنة أخته زوجة الخليفة أرسلان خاتون، وأنه بعث ابن فورك لإحضارهما، وكتب قريش إلى مهارش ابن عمه بأن يلحق به هو والخليفة في البرية.

فأبى، وسار الخليفة إلى العراق وجعل طريقه على الري، ومر ببدر بن مهلهل فخدم القائم وخرج السلطان للقاء الخليفة، وقدم إليه الأموال والآلات، وعرضه أرباب الوظائف ولقيه بالنهروان، وجاء معه إلى قصره كما تقدم في أخباره.

وبعث السلطان خبارتكين الطغرائي في العساكر لاتباع البساسيري والعرب، وجاء إلى الكوفة واستصحب سرايا ابن منيع ببني خفاجة.

وسار السلطان في أثرهم وصبحت السرية البساسيري في حلة دبيس بن يزيد فنهبوها، وفر دبيس، وقاتل البساسيري وأصحابه فقتل في المعركة.

وفاة قريش بن بدران وولاية ابنه مسلم

ثم توفي قريش بن بدران سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ودفن بنصيبين، وجاء فخر الدولة أبو نصر بن محمد بن جهير من

دارا وجمع بني عقيل على ابنه أبي المكارم مسلم بن قريش فولوه عليهم، واستقام أمره وأقطعه السلطان سنة ثمان وخمسين الأنبار وهيت وحريم والسن والبواريج، ووصل إلى بغداد فركب الوزير ابن جهير في المركب للقائه.

ثم سار سنة ستين وأربعمائة إلى الرحبة فقاتل بها بني كلاب وهم في طاعة المستنصر العلوي فهزمهم وأخذ أسلابهم، وبعث بأشلائهم وعليها سمات العلوية فطيف بها منكسة ببغداد.

استيلاء مسلم بن قريش على حلب

وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة سار شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل إلى مدينة حلب فحاصرها، ثم أفرج عنها فحاصرها تتش بن ألب أرسلان، وقد كان ملك الشام سنة إحدى وسبعين قبلها فأقام عليها أياماً.

ثم أفرج عنها وملك بزاغة والبيرة، وبعث أهل حلب إلى مسلم بن قريش بأن يمكنوه من بلدهم ورئيسها يومئذ ابن الحسين العباسي، فلما قرب منهم امتنعوا من ذلك فترصد لهم بعض التركمان وهو صاحب حصن بنواحيها، وأقام كذلك أياماً حتى صادف ابن الحسين يتصيد في ضيعته فأسره، وبعث به إلى مسلم بن قريش فأطلقه على أن يسلموا له البلد، فلما عاد إلى البلد ثمّ له ذلك، وسلم له البلد.

فدخله سنة ثلاث وسبعين، وحصر القلعة واستنزل منها سابغاً ووثاباً ابني محمد بن مرداس، وبعث ابنه إبراهيم وهو ابن عمة السلطان إلى السلطان يخبره بملك حلب وسأل أن يقدر عليه ضمانه فأجابه السلطان إلى ذلك، وأقطع ابنه محمداً مدينة بالس.

ثم سار مسلم إلى حران وأخذها من بني وثاب النميريين وأطاعه صاحب الرها ونقش السكة باسمه.

حصار مسلم بن قريش دمشق وعصيان أهل حران عليه

وفي سنة ست وسبعين وأربعمائة سار شرف الدولة إلى دمشق فحاصرها، وصاحبها تتش فخرج في عسكره وهزم مسلم بن قريش فارتحل عنها راجعاً إلى بلاده.

وقد كان استمد أهل مصر فلم يمدوه، وبلغه الخبر بأن أهل حران نقضوا الطاعة، وأن ابن عطية وقاضيها ابن حلية عازمان على تسليم البلد للترك، فبادر إلى حران وصالح في طريقه ابن ملاعب صاحب حمص، وأعطاه سليمة ورفسة، وحاصر حران وخرب أسوارها، واقتحمها عنوة وقتل القاضي وابنه.

حرب ابن جهير مع مسلم بن قريش واستيلاؤه على الموصل ثم عودها إليه

كان فخر الدولة أبو نصر محمد بن أحمد بن جهير من أهل الموصل، واتصل بخدمة بني المقلد ثم استوحش من قريش بن بدران واستجار ببعض رؤساء بني عقيل فأجاروه منه، ومضى إلى حلب فاستوزره معز الدولة أبو ثمال بن صالح، ثم فارقه إلى نصير الدولة بن مروان بديار بكر فاستوزره.

ولما عزل القائم وزيره أبا الفتح محمد بن منصور بن دارس استدعاه للوزارة، فتحيل في المسير إلى بغداد، واتبعه ابن مروان فلم يدركه.

ولما وصل إلى بغداد استوزره القائم سنة أربع وخمسين وأربعمائة وطغرلبك يومئذ هو السلطان المستبد على الخلفاء.

واستمرت وزارته وتخللها العزل في بعض المرات إلى أن مات القائم، وولي المقتدي، وصارت السلطنة إلى ملك شاه فعزله المقتدي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة بشكوى نظام الملك إلى الخليفة به، وسؤاله عزله فعزله، وسار ابنه عميد الدولة إلى نظام الملك بأصفهان واستصلحه وشفع فيه إلى المقتدي، فأعاد ابنه عميد الدولة، ثم عزله سنة ست وسبعين وأربعمائة فبعث السلطان ملك شاه ونظام الملك إلى المقتدي بتخلية سبيل بني جهير إليه فوفدوا عليه بأصفهان، ولقوا منه مبرةً وتكرمة.

وعقد السلطان ملك شاه لفخر الدولة على ديار بكر، وبعث معه العساكر وأمره أن يأخذ البلاد من ابن مروان، وأن يخطب لنفسه بعد السلطان وينقش اسمه على السكة كذلك فسار لذلك، وتوسط ديار بكر ثم أردفه السلطان سنة سبع وسبعين وأربعمائة بالعساكر مع الأمير أرتق جد الملوك بماردين لهذا العهد، وكان ابن مروان عندما أحس بمسير العساكر إليه، بعث إلى شرف الدولة مسلم بن قريش يستنجده على أن يعطيه آمد من أعماله.

فجاء إلى آمد وفخر الدولة بنواحيها، وقد ارتاب من اجتماع العرب على نصرة ابن مروان ففتر عزمه عن لقائهم، وسارت عساكر الترك الذين معه فصبحوا العرب في أحيائهم فانهزموا، وغنموا أموالهم ومواشيهم، ونجا شرف الدولة إلى آمد،

وحاصره فخر الدولة فيمن معه من العساكر.

وبعث مسلم بن قريش إلى الأمير أرتق يغضي عنه في الخروج من آمد على مال بذله له فأغضى له وخرج إلى الرقة.

وسار أحمد بن جهير إلى ميافارقين بلد ابن مروان لحصارها، ففارقه بهاء الدولة منصور بن مزيد وابنه سيف الدولة صدقة إلى العراق، وسار ابن جهير إلى خلاط وكان السلطان ملك شاه لما بلغه الحصار مسلم بن قريش بآمد، بعث عميد الدولة آقسنقر جد الملك العادل محمود في عساكر الترك، ولقيهم الأمير أرتق في طريقهم سائراً إلى العراق فعاد معهم وجاؤوا إلى الموصل فملكوها، وسار السلطان في عساكره إلى بلاد مسلم بن قريش وانتهى إلى البواريح، وقد خلص مسلم بن قريش من الحصار بآمد، ووصل إلى الرحبة، وقد ملكت عليه الموصل، وذهبت أمواله فراسل مؤيد الملك بن نظام الملك فتوسل به فتقبل وسيلته وأذن له في الوصول إلى السلطان بعد أن أعطاه من العهد ما رضي به وسار مسلم بن قريش من الرحبة فأحضره مؤيد الملك عند السلطان، وقدم هدية فاخرة من الخيل وغيرها، ومن جملتها فرسه الذي نجا عليه، وكان لا يجارى فوقع من السلطان موقعاً وصالحه وأقره على بلاده فرجع إلى الموصل وعاد السلطان إلى ما كان بسبيله.

مقتل مسلم بن قريش وولاية ابنه إبراهيم

قد قدمنا ذكر قطلمش قريب السلطان طغرلبك، وكان سار إلى بلاد الروم فملكها، واستولى على قونية وأقصراي، ومات فملك مكانه ابنه سليمان، وسار إلى أنطاكية سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وأخذها من يد الروم كما نذكر في أخباره.

وكان لشرف الدولة مسلم بن قريش، بأنطاكية جزية يؤديها إليه صاحبا القردروس من زعماء الروم، فلما ملكها سليمان بن قطلمش بعث إليه يطالبه بتلك الجزية، ويخوفه معصية السلطان فأجابه بأني على طاعة السلطان وأمري فيها غير خفي، وأما الجزية فكانت مضروبة على قوم كفار يعطونها عن رؤوسهم، وقد أدال الله منهم بالمسلمين ولا جزية عليهم فسار شرف الدولة، ونهب جهات أنطاكية.

وسار سليمان فنهب جهات حلب وشكت عليه الرعايا فرد عليهم.

ثم جمع شرف الدولة جموع العرب وجموع التركمان مع أميرهم جق، وسار إلى أنطاكية فسار سليمان للقائه والتقيا في أعمال أنطاكية في صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

ولما التقوا مال الأمير جق بمن معه من التركمان إلى سليمان فاختل مصاف مسلم بن قريش، وانهزمت العرب عنه وثبت فقتل في أربعمائة من أصحابه، وكان ملكه قد اتسع من نهر عيسى وجميع ما كان لأبيه وعمه قرواش من البلاد.

وكانت أعماله في غاية الخصب والأمن، وكان حسن السياسة كثير العدل.

ولما قتل مسلم اجتمع بنو عقيل وأخرجوا أخاه إبراهيم من محبسه، بعد أن مكث فيه سنين مقيداً حتى أفسد القيد مشيته، فأطلقوه وولوه على أنفسهم مكان أخيه مسلم.

ولما قتل مسلم سار سليمان بن قطلمش إلى أنطاكية وحاصرها شهرين فامتنعت عليه ورجع.

وفي سنة تسع وسبعين وأربعمائة بعدها بعث عميد العراق عسكراً إلى الأنبار فملكها من يد بني عقيل.

وفيها أقطع السلطان ملك شاه مدينة الرحبة وأعمالها وحران وسروج والرقة والخابور لمحمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش، وزوجه بأخته خاتون زليخة فتسلم جميع هذه البلاد، وامتنع محمد بن المشاطر من تسليم حران فأكرهه السلطان على تسليمها.

نكبة إبراهيم وتنازع محمد وعلي ابني مسلم بعده على ملك الموصل ثم استيلاء علي عليها

لم يزل إبراهيم بن قريش ملكاً بالموصل وأميراً على قومه بني عقيل، حتى استدعاه السلطان ملك شاه سنة اثنتين وثمانين فلما حضر اعتقله، وبعث فخر الدولة ابن جهير على البلاد فملك الموصل وغيرها، وأقطع السلطان عمته صفية مدينة بلد، وكانت زوجاً لمسلم بن قريش ولها منه ابنه علي، وتزوجت بعده بأخيه إبراهيم.

فلما مات ملك شاه ارتحلت صفية إلى الموصل ومعها ابنها علي بن مسلم، وجاءه أخوه محمد بن مسلم وتنازعا في ملك الموصل وانقسمت العرب عليهما، واقتتلوا على الموصل فانهزم محمد وملك علي ودخل الموصل وانتزعها من يد ابن جهير.

عود إبراهيم إلى ملك الموصل ومقتله

ولما مات ملك شاه واستبدت تركمان خاتون بعده بالأمور، وأطلقت إبراهيم من الاعتقال، فبادر إلى الموصل، فلما قاربها سمع أن علي ابن أخيه مسلم قد ملكها ومعه أمه صفية عمة ملك شاه فبعث إليها، وتلطف بها فدفعت إليه ملك الموصل فدخلها وكان تتش صاحب الشام أخو ملك شاه قد طمع في ملك العراق، واجتمع إليه الأمراء بالشام وجاء أقسنقر صاحب حلب، وسار إلى نصيبين فملكها وبعث إلى إبراهيم أن يخطب له ويسهل طريقه إلى بغداد، فامتنع إبراهيم من ذلك فسار تتش ومعه أقسنقر وجموع الترك، وخرج إبراهيم للقائه في ثلاثين ألفاً.

والتقى الفريقان بالمغيم فانهزم إبراهيم، وقتل وغنم الترك حللهم وقتل كثير من نساء العرب أنفسهن خوفاً من الفضيحة، واستولى تتش على الموصل.

ولاية علي بن مسلم على الموصل ثم استيلاء كربوقا وانتزاعه إياها من يده وانقراض أمر بني المسيب من الموصل

ولما قتل إبراهيم وملك تتش الموصل ولى عليها علي بن أخيه مسلم بن قريش فدخلها مع أمه صفية عند ملك شاه، واستقرت هي وأعمالها في ولايته.

وسار تتش إلى ديار بكر فملكها، ثم إلى أذربيجان فاستولى عليها.

وزحف إليه بركيارق وابن أخيه ملك شاه، وتقاتلا فانهزم تتش، وقام بمكانه ابنه رضوان، وملك حلب وأمره السلطان بركيارق بإطلاق كربوقا فأطلقه.

واجتمعت عليه رجال، وجاء إلى حران فملكها، وكاتبه محمد بن مسلم بن قريش وهو بنصيبين ومعه توران بن وهيب وأبو الهيجاء الكردي يستنصرونه على علي بن مسلم بن قريش بالموصل، فسار إليهم وقبض على محمد بن مسلم وسار به إلى نصيبين فملكها.

ثم سار إلى الموصل فامتنعت عليه ورجع مدينة بلد، وقتل بها محمد بن مسلم غريقاً، وعاد إلى حصار الموصل.

واستنجد علي بن مسلم بالأمير جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر فسار إليه منجداً له.

وبعث كربوقا إليه عسكراً مع أخيه التوتناش فرده مهزوماً إلى الجزيرة فتمسك بطاعة كربوقا، وجاء مدداً له على حصار الموصل.

واشتد الحصار بعلي بن مسلم فخرج من الموصل، ولحق بصدقة بن مزيد بالحلة، وملك كربوقا بلد الموصل بعد حصار تسعة أشهر.

وانقرض ملك بني المسيب من الموصل وأعمالها واستولى عليها ملوك الغز من السلجوقية أمراؤهم والبقاء لله وحده.

دولة بني صالح

الخبر عن دولة بني صالح بن مرداس بحلب وابتداء أمرهم وتصاريف أحوالهم

كان ابتداء أمر صالح بن مرداس ملك الرحبة، وهو من بني كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ومجالاتهم بضواحي حلب.

وقال ابن حزم: إنه من ولد عمرو بن كلاب، وكانت مدينة الرحبة لأبي علي بن ثمال الخفاجي، فقتله عيسى بن خلاط العقيلي وملكها من يده، وبقيت له مدة، ثم أخذها منه بدران بن المقلد.

وزحف لؤلؤ الساري نائب الحاكم بدمشق فملك الرقة، ثم الرحبة من يد بدران، وعاد إلى دمشق، وكان رئيس الرحبة ابن مجلكان فاستبد بها، وبعث إلى صالح بن مرداس يستعين به على أمره فأقام عنده مدة، ثم فسد ما بينهما، وقاتله صالح، ثم اصطلحا، وزوجه ابن مجلكان ابنته ودخل البلد، ثم انتقل ابن مجلكان إلى عانة بأهله وماله بعد أن أطاعوه وأخذ رهنهم، ثم نقضوا وأخذوا ماله وسار إليهم ابن مجلكان مع صالح فوضع عليه صالح من قتله، وسار إلى الرحبة فملكها واستولى على أموال ابن مجلكان وأقام دعوة العلويين بمصر.

ابتداء أمر صالح في ملك حلب

قد قدمنا أن لؤلؤاً مولى أبي المعالي بن سيف الدولة استبد بحلب على ابنه أبي الفضائل، وأخذ البلد منه ومحا دعوة العباسية وخطب للحاكم العلوي بمصر، ثم فسد حاله معه وطمع صالح بن مرداس في ملك حلب.

وذكرنا هنالك ما كان بين صالح ولؤلؤ من الحروب، وأنه كان له مولى اسمه فتح وضعه في قلعة حلب حافظاً لها، فاستوحش وانتقض على لؤلؤ بممالأة صالح بن مرداس، وبايع للحاكم على أن يقطعه صيدا وبيروت، وسوغه ما كان في حلب من الأموال، ولحق لؤلؤ بأنطاكية وأقام عند الروم، وخرج فتح بحرم لؤلؤ وأمه وتركهن في منبج، وترك حلب وقلعتها إلى نواب الحاكم وتداولت في أيديهم حتى وليها بعض بني حمدان من قبل الحاكم يعرف بعزيز الملك، اصطنعه الحاكم وولاه حلب ثم عصى على ابنه الظاهر، وكانت عمته بنت الملك مدبرة لدولته، فوضعت على عزيز الملك من قتله، وولوا على حلب عبد الله بن علي بن جعفر الكتامي، ويعرف بابن شعبان الكتامي وعلى القلعة صفي الدولة موصوفاً الخادم.

استيلاء صالح بن مرداس على حلب

ولما ضعف أمر العبيديين بمصر من بعد المائة الرابعة وانقرض أمر بني حمدان من الشام والجزيرة، تطاولت العرب إلى الاستيلاء على البلاد فاستولى بنو عقيل على الجزيرة، واجتمع عرب الشام فتقاسموا البلاد على أن يكون لحسان بن مفرج بن دغفل وقومه طيىء من الرملة إلى مصر، ولصالح بن مرداس وقومه بني كلاب من حلب إلى عانة ولحسان بن عليان وقومه دمشق وأعمالها وكان العامل على هذه البلاد من قبل الظاهر خليفة مصر أنوشتكين إلى عسقلان، وملكها ونهبها حسان وسار صالح بن مرداس إلى حلب فملكها من يد ابن شعبان، وسلم له أهل البلد ودخلها.

وصعد ابن شعبان إلى القلعة فحصرهم صالح بالقلعة حتى جهدهم الحصار، واستأمنوا وملك القلعة وذلك سنة أربع وعشرين وأربعمائة، واتسع ملكه ما بين بعلبك وعانة.

مقتل صالح وولاية ابنه أبي كامل

ولم يزل صالح مالكاً لحلب إلى سنة عشرين وأربعمائة فجهز الظاهر العساكر من مصر إلى الشام لقتال صالح وحسان، وعليهم أنوشتكين الدريدي فسار لذلك، ولقيهما على الأردن بطبرية، وقاتلهما فانهزما، وقتل صالح وولده الأصغر، ونجا ولده الأكبر أبو كامل نصر بن صالح إلى حلب، وكان يلقب شبل الدولة.

ولما وقعت هذه الواقعة طمع الروم أهل أنطاكية في حلب فزحفوا إليها في عدد كثير.

مسير الروم إلى حلب وهزيمتهم

ثم سار ملك الروم إلى حلب في ثلاثمائة ألف مقاتل، ونزل قريباً من حلب ومعه ابن الدوقس من أكابر الروم، وكان منافراً له، فخالفه وفارقه في عشرة آلاف مقاتل، ونمي إليه أنه يروم الفتك به، وأنه دس عليه فكر راجعاً، وقبض على ابن الدوقس واضطرب الروم واتبعهم العرب وأهل السواد الأرمن، ونهبوا أثقال الملك أربعمائة حمل، وهلك أكثر عسكره عطشاً.

ثم أشرف بعض العرب على معسكره فهربوا وتركوا سوادهم وأموالهم وأكرم الله المسلمين بالفتح.

مقتل نصر بن صالح واستيلاء الوزيري على حلب

وفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة زحف الوزيري من مصر في العساكر إلى حلب وخليفتهم يومئذ المستنصر، وبرز إليه نصر فالتقوا عند حماة، وانهزم نصر وقتل وملك الوزيري حلب في رمضان من هذه السنة.

مهلك الوزيري وولاية ثمال بن صالح

ولما ملك الوزيري حلب واستولى على الشام عظم أمره، واستكثر من الأتراك في الجند، ونمي عنه إلى المستنصر بمصر ووزيره الجرجاي أنه يروم الخلاف فدس الجرجاي إلى جانب الوزيري والجند بدمشق في الثورة به، وكشف لهم عن سوء رأي المستنصر فثاروا به، وعجز عن مدافعتهم فاحتمل أثقاله، وسار إلى حلب، ثم إلى حماة فمنع من دخولها فكاتب صاحب كفرطاب فسار إليه وتبعه إلى حلب ودخلها، وتوفي سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ولما توفي فسد أمر الشام واختل النظام وتزايد طمع العرب.

وكان معز الدولة ثمال بن صالح بالرحبة منذ مهلك أبيه وأخيه فقصد حلب، وحاصرها فملك المدينة وامتنع أصحاب الوزيري بالقلعة واستمدوا أهل مصر وشغل الوالي بدمشق بعد الوزيري، وهو الحسين بن حمدان لحرب حسان بن مفرج صاحب

فلسطين، فاستأمن أصحاب الوزيري إلى ثمال بن صالح بعد حصاره إياها حولاً فأمنهم، وملكها في صفر سنة أربع وثلاثين وأربعمائة فلم يزل مملكاً عليها إلى أن زحفت إليه العساكر من مصر مع أبي عبيدالله بن ناصر الدولة بن حمدان، وبلغت جموعهم خمسة آلاف مقاتل فخرج إليهم ثمال، وقاتلهم وأحسن دفاعهم، وأصابهم سيل كاد يذهب بهم فأفرجوا عن حلب، وعادوا إلى مصر.

ثم عادت العساكر ثانية من مصر سنة إحدى وأربعين مع رفق الخادم فقاتلهم ثمال وهزمهم، وأسر الخادم رفقاً ومات عنده.

رغبة ثمال عن حلب ورجوعها لصاحب مصر وولاية ابن ملهم عليها

لم تزل العساكر تتردد من مصر إلى حلب، وتضيق عليها حتى سئم ثمال بن صالح إمارتها، وعجز عن القيام بها، فبعث إلى المستنصر بمصر وصالحه على أن ينزل له عن حلب، فبعث عليها مكين الدولة أبا علي الحسن بن ملهم، فتسلمها آخر سنة تسع وأربعين.

وسار ثمال إلى مصر ولحق أخوه عطية بن صالح بالرحبة، واستولى ابن ملهم عليها.

ثورة أهل حلب بابن ملهم وولاية محمود بن نصر بن صالح

وأقام ابن ملهم بحلب سنتين أو نحوها، ثم بلغه عن أهل حلب انهم كاتبوا محمود بن نصر بن صالح فقبض عليه، فثار به أهل حلب وحصروه بالقلعة، وبعثوا إلى محمود فجاء منتصف اثنتين وخمسين وأربعمائة وحاصره معهم بالقلعة.

واجتمعت معه جموع العرب واستمد ابن ملهم المستنصر، فكتب إلى أبي محمد الحسن بن الحسين بن حمدان أن يسير إليه في العساكر، فسار إلى حلب وأجفل محمود عنها، ونزل ابن ملهم إلى البلد ودخلها ناصر الدولة ونهبتها عساكره، وابن ملهم.

ثم تواقع محمود وناصر الدولة بظاهر حلب فانهزم ناصر الدولة بن حمدان وأسر فرجع به محمود إلى البلد وملكها وملك القلعة في شعبان من هذه السنة، وأطلق أحمد بن حمدان وابن ملهم فعاد إلى مصر.

رجوع ثمال بن صالح إلى ملك حلب وفرار محمود بن نصر عنها

لما هزم محمود بن حمدان وأخذ القلعة من يد ابن ملهم.

وكان معز الدولة ثمال بن صالح بمصر منذ سلمها للمستنصر سنة تسع وأربعين فسرحه المستنصر الآن، وأذن له في ملك حلب من ابن أخيه، فحاصره في ذي الحجة من سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة واستنجد محمود بخاله منيع بن شبيب بن وثاب النميري صاحب حران، فأمده بنفسه، وجاء لنصره فأفرج ثمال عن حلب وسار إلى البرية في محرم سنة ثلاث وخمسين، ثم عاد منيع إلى حران وملك ثمال حلب في ربيع سنة ثلاث وخمسين وغزا بلاد الروم فظفر وغنم.

وفاة ثمال وولاية أخيه عطية

ثم توفي ثمال بحلب قريباً من استيلائه، وذلك في ذي القعدة سنة أربع وخمسين وأربعمائة وعهد بحلب لأخيه عطية بن صالح وكان بالرحبة من لدن مسير ثمال إلى مصر فسار وملكها.

عود محمود إلى حلب وملكه إياها من يد عطية

ولما ملك عطية حلب وكان ذلك عند استيلاء السلجوقية على ممالك العراق والشام وافتراقهم على العمالات، ونزل به قوم منهم فاستخدمهم وقوي بهم.

ثم خشي أصحابه غائلتهم فأشاروا بقتلهم، فسلط أهل البلد عليهم فقتلوا منهم جماعة ونجا الباقون، فقصدوا محمود بن نصر بحران فاستنهضوه لملك حلب، وجاءهم فحاصرها وملكها في رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة واستقام أمره.

ولحق عطية عمه بالرقة، فملكها إلى أن أخذها منه شرف الدولة مسلم بن قريش سنة ثلاث وستين وأربعمائة، فسار إلى بلد الروم سنة خمس وستين وأربعمائة واستقام أمر محمود بن نصر في حلب.

وبعث الترك الذين جاؤوا في خدمته مع أميرهم ابن خان سنة ستين وأربعمائة إلى بعض قلاع الروم فحاصروها وملكها.

وسار محمود إلى طرابلس فحاصرها وصالحوه على حال

فأخرج عنهم.

ثم سار إليه السلطان ألب أرسلان بعد فراغه من حصار ديار بكر وآمد والرها، ولم يظفر بشيء منها كما نذكر في أخبارهم.

وجاء إلى حلب وحاصرها وبها محمود بن نصر.

وجاءت رسالة الخليفة القائم بالرجوع إلى الدعوة العباسية فأعادها وسأل من الرسول أزهر أبو الفراس طراد الزيني أن يعفيه السلطان من الحضور عنده فأبى السلطان من ذلك، واشتد الحصار على محمود وأضربهم حجارة المجانيق، فخرج ليلاً ومعه والدته منيعة بنت وثاب متطارحين على السلطان، فخلع على محمود في حلب آخر ثمان وستين وأربعمائة وعهد لابنه شبيب إلى الترك الذين ملكوا أباه وهم بالحاضر، وقد بلغه عنهم العيث والفساد، فما دنا من حللهم تلقوه فلم يجبهم، وقاتلهم وأصيب بسهم في تلك الجولة ومات.

مهلك نصر بن محمود وولاية أخيه سابق

ولما هلك نصر ملك أخوه سابق.

قال ابن الأثير: وهو الذي أوصى له أبوه بالملك، فلم ينفذ عهده لصغره، فما ولي استدعى أحمد شاه مقدم التركمان الذين قتلوا أباه فخلع عليه، وأحسن إليه وبقي فيها ملكاً.

استيلاء مسلم بن قريش على حلب من يد سابق وانقراض دولة بني صالح بن مرداس

ولما كانت سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة زحف تتش بعد أن ملك دمشق إلى حلب فحاصرها أياماً ووجل أهل حلب من ولاية الترك فبعثوا إلى مسلم بن قريش ليملكوه ثم بدا لهم في أمره ورجع من طريقه، وكان مقدمهم يعرف بابن الحسين العباسي وخرج ولده متصيداً في ضيعة له فأرسل له بعض أهل القلاع بنواحي حلب من التركمان، وأسره وأرسله إلى مسلم بن قريش فعاهده على تمكينه من البلد، وعاد إلى أبيه فسلم البلد إلى مسلم بن قريش وملكها سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ولحق سابق بن محمود وأخوه وثاب إلى القلعة واستنزلهما بعد أيام على الأمان واستولى على نواحيها.

وبعث إلى السلطان ملك شاه بالفتح، وأن يضمن البلد على العادة فأجابه إلى ذلك، وصارت في ولاية مسلم بن قريش إلى أن ملكها السلطان من بعده.

استيلاء السلطان ملك شاه على حلب وولاية أقسنقر عليها

قد تقدم لنا أن مسلم بن قريش قتله سليمان بن قطلمش كما مر في أخبار مسلم، فلما قتله أرسل إليه ابن الحسين العباسي مقدم أهل حلب يطلب تسليمها إليه.

وكان تتش أيضاً قد حاصرها وضيق عليها يطلب ملكها فوعد كلاً منهما.

ونمي الخبر إلى تتش فسار إلى حلب، وجاءه سليمان بن قطلمش فاقتتلا، وقتل سليمان سنة تسع وسبعين وأربعمائة وبعث برأسه إلى ابن الحسين، فكتب أنه يشاور السلطان ملك شاه في ذلك، فغضب تتش وحاصره، وداخله بعض أهل البلد فغدر به وأدخله ليلاً فملك تتش مدينة حلب، وشفع الأمير أرتق بن أكسك من أمراء تتش في ابن الحثيثي وامتنع بالقلعة سالم بن مالك بن بدران ابن المقلد فحاصره تتش وكان ابن الحثيثي قد كاتب السلطان ملك شاه واستدعاه لملك حلب عندما خاف من أخيه تاج الدولة تتش، فسار إليها من أصفهان سنة تسع وأربعين وأربعمائة ومر بالموصل، ثم تسلم حران من يد ابن الشاطر، وأقطعها لمحمد بن قريش، ثم سار إلى الرها فملكها من يد الروم.

وكانوا اشتروها من ابن عطية، وسار إلى قلعة جعفر فملكها وقتل من بها من بني قشير وأخذ صاحبها جعفراً شيخاً أعمى وولدين له، وكانوا يفسدون السابلة ويرجعون إليها.

ثم سار إلى منبج فملكها وسار إلى حلب وأخوه تتش يحاصر القلعة سبعة عشر يوماً من حصارها، وعاد إلى دمشق وملك السلطان مدينة حلب وقاتل القلعة ساعة من نهار رشقاً بالسهام، فأذعن سالم بن مالك بن بدران بالطاعة والنزول عنها على أن يقطعه قلعة جعفر، فأقطعها له السلطان فلم تزل بيده وبيد بنيه إلى أن ملكها منهم نور الدين الشهيد.

وبعث نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر بالطاعة، وولى على حلب قسيم الدولة أقسنقر جد العادل نور الدين الشهيد، وارتحل عائداً إلى العراق.

وسأله أهل حلب أن يعفيهم من ابن الحثيثي فاستصلحه، وأرسله إلى ديار بكر فنزلها إلى أن توفي على حال شديدة من الفقر والإملاق.

والله مالك الأمور لا رب غيره.

الخبر عن دولة بني مزيد ملوك الحلة وابتداء أمرهم وتصاريف أحوالهم

كان بنو مزيد هؤلاء من بني أسد، وكانت محلاتهم من بغداد إلى البصرة إلى نجد وهي معروفة.

وكانت لهم النعمانية، وكانت بنو دبيس من عشائرهم في نواحي خوزستان في جزائر معروفة بهم.

وكان كبير بني مزيد أبو الحسن علي بن مزيد وأخوه أبو الغنائم.

وسار أبو الغنائم إلى بني دبيس فأقام عندهم، وفر فلم يدركوه، ولحق بناحية أبي الحسن فسار إليهم أبو الحسن، واستمد عميد الجيوش فأمده بعسكر من الديلم في البحر، ولقيهم فانهزم أبو الحسن وقتل أبو الغنائم وذلك سنة إحدى وأربعمائة.

فلما كانت سنة خمس وأربعمائة جمع أبو الحسن وسار إليهم لإدراك الثأر بأخيه، وجمع بني دبيس وهم مضر وحسان ونبهان وطراد فاجتمع إليهم العرب ومن في نواحيهم من الأكراد الشاهجان والحادانية، وتزاحفوا ثم انهزم بنو دبيس، وقتل حسان ونبهان واستولى أبو الحسن بن مزيد على أموالهم وحللهم، ولحق الفل منهم بالجزيرة وقلده فخر الدولة أمر الجزيرة الدبيسية واستثنى منها الطيب وقرقوب، وأقام أبو الحسن هناك.

ثم جمع مضر بن دبيس جمعاً وكبسه فنجا في فل يسير ولحق ببلد النيل منهزماً، واستولى مضر على أمواله وعلى الجزيرة وملكها.

وفاة علي بن مزيد وولاية ابنه دبيس

ثم توفي أبو الحسن بن مزيد سنة ثمان وأربعمائة وقام الأمر مكانه ابنه نور الدولة أبو الأغر دبيس، وقد كان أبوه عهد لأخيه في حياته، وخلع عليه سلطان الدولة، وأذن في ولايته.

فلما ولي بعد أبيه نزع أخوه المقلد إلى بني عقيل فأقام بينهم، وكانت بسبب ذلك بين دبيس وقرواش أميري بني عقيل فتن وحروب.

وجمع دبيس عليه بني خفاجة، وملك الأنبار من يده سنة سبع عشرة وأربعمائة ثم انتقض خفاجة على دبيس وأميرهم منيع بن حسان وسار إلى الجامعين فنهبها وملك الكوفة.

وصار أمر دبيس وقرواش إلى الوفاق واستوى الأمر على ذلك ومنعت خفاجة بني عقيل من سقي الفرات.

استيلاء منصور بن الحسين على الجزيرة الدبيسية

كانت الجزيرة الدبيسية قد استقرت لطراد بن دبيس، وكان منصور بن الحسين من شعوب بني أسد تغلب عليها، وأخرج طراد بن دبيس عنها سنة ثمان عشرة وأربعمائة ثم مات طراد فسار ابنه أبو الحسن إلى جلال الدولة ببغداد، وكان منصور بن الحسين قد خطب للملك أبي كاليجار، وقطع الخطبة لجلال الدولة فسأل منه علي بن طراد أن يبعث معه عسكراً ليخرج منصوراً من الجزيرة، فأنفذ معه العسكر، وسار إلى واسط.

ثم أغذ السير وكان منصور جمع للقائه، وأعانه بعض أمراء الترك، وهو أبو صالح كركبر.

وكان قد هرب من جلال الدولة إلى أبي كاليجار فأعان منصوراً على شأنه، ولقوا علي بن طراد فهزموه، وقتلوه وجماعة من الترك الذين بعثهم جلال الدولة لنصرته، واستقر ملك الجزيرة الدبيسية لمنصور بن الحسين.

فتنة دبيس مع جلال الدولة وحروبه مع قومه

كان المقلد أخو دبيس بن مزيد قد لحق ببني عقيل كما ذكرناه، وكانت بينه وبين نور الدولة دبيس عداوة، فسار إلى منيع بن حسان أمير خفاجة، واجتمعا على قتال دبيس وعلى خلافة جلال الدين، وخطب لأبي كليجار واستقدمه للعراق فجاء إلى واسط، وبها ابن جلال الدولة ففارقها وقصد النعمانية ففجر عليه البثوق من بلده.

وأرسل أبو كليجار إلى قرواش صاحب الموصل، والأثير عنبر الخادم أن ينحدروا إلى العراق فانحدروا إلى الكحيل.

ومات بها الأثير عنبر وجمع جلال الدولة عساكره واستنجد أبا الشوك صاحب بلاد الأكراد، فأنجده وانحدر إلى واسط، وأقام بها وتتابعت الأمطار والأوحال فسار جلال الدولة إلى الأهواز بلد أبي كليجار لينهبها.

وبعث أبو كليجار إليه بأن عساكر محمود بن سبكتكين قد قصدت العراق ليرده عن الأهواز فلم يلتفت إلى ذلك، وسار ونهب الأهواز، وبلغ الخبر إلى أبي كليجار فسار إلى مدافعته، وتخلف عنه دبيس خوفاً على حلله من خفاجة.

والتقى أبو كليجار وجلال الدولة فانهزم أبو كليجار وقتل من أصحابه كثير.

واستولى جلال الدولة على واسط وأعاد إليها ابنه عبد العزيز كما كان.

ولما فارق دبيس أبا كليجار وجد جماعة من عشيرته قد خالفوا عليه، وعاثوا في نواحي الجامعين فقاتلهم وظفر بهم، وأسر منهم جماعة منهم: أبو عبد الله الحسين ابن عمه أبي الغنائم، وشبيب وسرايا ووهب وبنو عمه حماد بن مزيد وحبسهم بالجوسق.

ثم جمع المقلد أخوه جموعاً من العرب واستمد جلال الدولة فأمده بعسكر، وقصدوا دبيس فانهزم وأسر جماعة من أصحابه، ونزل المعتقلون بالجوسق فنهبوا حلله.

ولحق دبيس بالشريد منهزماً فسار به إلى مجد الدولة، وضمن عنه المال المقرر في ولايته فأجيب إلى ذلك، وخلع عليه، واستقام حاله.

وذهب المقلد مع جماعة من خفاجة فنهبوا مطير أباد والنيل أقبح نهب، وعاثوا في منازلها، ولم تكن الحلة بنيت يومئذ، وعبر المقلد دجلة إلى أبي الشوك فأقام عنده حتى أصلح أمره.

الفتنة بين دبيس وأخيه ثابت

كان أبو قوام ثابت بن علي بن مزيد متصلاً بالبساسيري سنة أربع وعشرين وأربعمائة وتزحزح لهم دبيس عن البلاد وملك ثابت النيل وأعمال دبيس.

وبعث دبيس طائفة من أصحابه لقتال ثابت فانهزموا فسار دبيس عن البلاد، وتركها لثابت حتى رجع البساسيري إلى بغداد فسار في جموع بني أسد وخفاجة، ومعه أبو كامل منصور بن قراد وتركوا حللهم بين حصني خفان وجرى.

وساروا جريدة ولقيهم ثابت عند جرجرا، فاقتتلوا ملياً، ثم تحاجزوا واصطلحوا على أن يعود دبيس إلى أعماله، ويقطع أخاه ثابتاً بعض تلك الأعمال، وتحالفوا على ذلك وافترقوا وجاء البساسيري منجداً لثابت فبلغه الخبر بالنعمانية فرجع.

الفتنة بين دبيس وعسكر واسط

كان الملك الرحيم قد أقطع دبيس بن مزيد سنة إحدى وأربعين وأربعمائة حماية نهر الصلة ونهر الفضل، وهي من إقطاع جند واسط فسخطوا ذلك، واجتمعوا وبعثوا إليه بالتهديد فراجعهم إلى حكم الملك الرحيم، فغضبوا وزحفوا إليه فلقيهم وأكمن لهم فهزمهم وأثخن فيهم، وغنم أموالهم ودوابهم ورجعوا إلى واسط يستنجدون جند بغداد، ويرغبون من البساسيري في المدافعة عنهم ويعطوه نهر الصلة ونهر الفضل.

إيقاع دبيس بخفاجه

وفي سنة ست وأربعين وأربعمائة قصد بنو خفاجة الجامعين من أعمال دبيس فعاثوا فيها من غربي الفرات، وكان دبيس في شرقيه فاستنجد البساسيري فجاء بنفسه، وعبر دبيس الفرات معه وقاتل خفاجة وأجلاهم عن الجامعين فسلكوا البرية، ورجع عنهم.

ثم عادوا للفساد فعاد إليهم فدخلوا البرية فاتبعهم إلى حصن خفان فأوقع بهم، وأثخن فيهم وحاصر خفان ثم اقتحمه، وأخرجهم ورجع إلى بغداد ومعه أسارى من خفاجة فصلبوا.

ثم سار إلى جرى فحاصرها ووضع عليهم سبعة آلاف دينار فالتزموها وأمنهم.

حرب دبيس مع الغز وخطبته للعلوي صاحب مصر ومعاودته الطاعة

ولما انقرض أمر بني بويه وغلب عليهم الغز، وصارت الدولة للسلطان طغرلبك سلطان السلجوقية، وجاء السلطان طغرلبك إلى بغداد، واستولى على الخليفة، وخطب له على منابر الإسلام، وقبض على الملك الرحيم آخر ملوك بني بويه حسبما ذلك كله مذكور في أخبارهم.

وكان البساسيري قد فارق الملك الرحيم قبل مسيره من واسط إلى بغداد للقاء طغرلبك مجمعاً على الخلاف على الغز مع قطلمش ابن عم طغرلبك جد الملوك ببلاد الروم أولاد قليج أرسلان، ومعه متمم الدولة أبو الفتح عمر، وسار معهم قريش بن بدران صاحب الموصل فلقيهم دبيس والبساسيري على سنجار، وهزمهم ورجع قريش إلى دبيس جريحاً فخلع عليه، وسار معهم

وذهب بهم إلى الموصل.

وخرج دبيس وقريش والبساسيري إلى البرية، ومعهم جماعة من بني نمير أصحاب حران والرقة.

واتبعهم عساكر السلطان مع هزارسب من أمراء السلجوقية فأوقع بهم، ورجع بالغنائم والأسرى.

وأرسل دبيس وقريش إلى هزارسب أن يستعطف بهم السلطان ففعل.

وبعث دبيس ابنه بهاء الدولة مع وافد قريش فأكرمهما السلطان طغرلبك.

ثم انتقض عليه أخوه نيال بهمذان فسار لحربه، وترك بغداد وخالفه البساسيري إليها وبعث الخليفة القائم عن دبيس ليقيم عنده ببغداد، فاعتذر بأن العرب لا تقيم، وطلب الخليفة في الخروج إليه حتى يجتمع عليه هو وهزارسب، ويدافعوا عن بغداد.

وجاء البساسيري ودخل بغداد ومعه قريش بن بدران فملكها سنة خمسين وأربعمائة وخطب فيها للعلويين واستدم الخليفة القائم بقريش بن بدران فأذمه، وبعثه إلى عانة عند مهاوش العقيلي من بني عمه وفعل البساسيري وجموعه في بغداد الأفاعيل، وأطاعه دبيس بن علي بن مزيد وصدقة بن منصور بن الحسين صاحب الجزيرة الدبيسية، وكان ولي بعد أبيه وقد تقدم ذكر هذا كله.

ثم رجع السلطان من همذان بعد قتل أخيه، وقضى أشغاله فأجفل البساسيري وأصحابه من بغداد، ولحق ببلاد دبيس وفارقه صدقة بن منصور إلى هزارسب بواسط.

وأعاد طغرلبك الخليفة إلى داره، وسار السلطان في اتباعه وفي مقدمته خمارتكين الطغرائي في ألفي فارس، ومعه سرايا بن منيع الخفاجي فصبحت المقدمة دبيس بن مزيد والبساسيري، فهرب دبيس ووقف البساسيري فقتل وذلك سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ورجع السلطان إلى بغداد ثم انحدر إلى واسط.

وجاءه هزارسب بن تنكين فأصلح عنده حال دبيس بن مزيد وصدقة بن منصور بن الحسين، وحضرا عند السلطان وجاءا في ركابه إلى بغداد فخلع عليهما وردهما إلى عمالتهما.

وفاة دبيس وإمارة ابنه منصور

ولم يزل دبيس على أعماله إلى أن توفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة لسبع وخمسين سنة من إمارته، وكان ممدوحاً، ورثاه الشعراء بعد وفاته بأكثر مما مدحوه في حياته.

ولما مات ولي في أعماله وعلى بني أسد ابنه أبو كامل منصور، ولقب بهاء الدولة.

وسار إلى السلطان ملك شاه فأقره على أعماله وعاد في صفر سنة خمس وسبعين وأربعمائة فأحسن السيرة.

وفاة منصور بن دبيس وولاية ابنه صدقة

ثم توفي بهاء الدولة أبو كامل منصور بن دبيس بن علي بن مزيد صاحب الحلة والنيل وغيرهما في ربيع الأول سنة تسع وسبعين، فأرسل الخليفة نقيب العلويين أبا الغنائم إلى ابنه سيف الدولة صدقة يعزيه، وسار صدقة إلى السلطان ملك شاه فخلع عليه وولاه مكان أبيه.

انتقاض صدقة بن منصور بن دبيس على السلطان بركيارق

وكان السلطان بركيارق قد خرج عليه أخوه محمود بن ملك شاه ينازعه في الملك، وكانت بينهما عدة وقعات، ولم يزل صدقة بن منصور على طاعته ويحضر حروبه تارة بنفسه، وتارة يبعث إليه العساكر مع ابنه سنة أربع وتسعين وأربعمائة.

فبعث إليه وزير السلطان بركيارق وهو الأغر أبو المحاسن الدهستاني يطلبه فيما تخلف عنده من المال، وهو ألف ألف دينار، ويتهدده عليه فقطع صدقة الخطبة لبركيارق، وعاد إلى بغداد في هذه السنة منهزماً أمام أخويه محمد وسنجر، فبعث الأمير أياز من أكبر أصحابه، وطرد نائب السلطان عن الحكومة واستضافها إليه.

استيلاء صدقة على واسط وهيت

كان السلطان محمد في سنة ست وتسعين وأربعمائة مستولياً على بغداد والخطبة بها وشحنته فيها الغازي بن أرتق، وصدقة بن دبيس على طاعته ومظاهرته.

ثم ظهر في هذه السنة بركيارق على محمد، وحاصره بأصفهان فامتنع عليه فأخرج عنه إلى همذان، وبعث كمستكين القصيري شحنة إلى بغداد فاستدعى أبو الغازي أخاه سقمان بن أرتق من حصن كيفا يستعين به في مدافعة كمستكين.

وجاء كمستكين إلى بغداد وخطب بها لبركيارق وخرج أبو الغازي وسقمان إلى دجيل فأقاما به بجرى وجاء صدقة بن مزيد إلى صرصر بعد أن جاءه رسول الخليفة في طاعة أبي الغازي وسقمان فعادا وعاثت عساكرهما في نواحي دجيل، وتقدما إلى بغداد وبعث معهما صدقة ابنه دبيساً فخيموا بالرملة، وقاتلهم العامة وكثر الهرج، وبعث الخليفة إلى صدقة يعظم عليه الأمر فأشار بإخراج كمستكين القيصري من بغداد لتصلح الأحوال، فأخرج إلى النهروان في ربيع سنة ست وتسعين وأربعمائة وعاد صدقة إلى الحلة وأعيدت خطبة السلطان محمد ببغداد ولحق القيصري بواسط، وخطب بها لمحمد فسار إليه صدقة وأخرجه وجاء أبو الغازي واتبعوا القيصري واستأمن إلى صدقة فأكرمه وأعيدت خطبة السلطان محمد بواسط، وبعده لصدقة وأبي الغازي.

وولى كل واحد منهما ولده على واسط، وذهب أبو الغازي إلى بغداد وعاد صدقة إلى الحلة، وأرسل ابنه منصوراً مع أبي الغازي إلى المستنصر ليستظهر رضاه فرضي عنه.

ثم استولى صدقة على هيت، وكان بركيارق أقطعها لبهاء الدولة توران بن تهيبة وكان مقيماً في جماعة من بني عقيل عند صدقة.

ثم تشاجرا ومال بنو عقيل إلى صدقة، وحج عقب ذلك، ورجع فوكل به صدقة.

وبعث ابنه دبيس ليتسلم هيت فمنعه نائب توران بها، وهو محمد بن رافع بن رفاع بن منيعة بن مالك بن المقلد.

فلما أخذ صدقة واسطاً سار إلى هيت وبها منصور بن كثير نائباً عن عمه توران، فلقي صدقة وحاربه.

ثم انتقض جماعة من أهل البلد وفتحوا لصدقة فملكها، وخلع على منصور وأصحابه وعاد إلى الحلة، واستخلف على هيت ابن عمه ثابت بن كامل.

ثم اصطلح السلطان محمد وبركيارق وسار صدقة في شوال إلى واسط فملكها وأخرج الترك الذين كانوا بها وأحضر مهذب الدولة بن أبي الخير فضمنه البلد لثلاثة أشهر بقيت من السنة بخمسين ألف دينار وعاد إلى الحلة.

استيلاء صدقة بن مزيد على البصرة

كانت البصرة منذ سنين في ولاية إسماعيل بن أرسلان جق من السلجوقية، أقام فيها عشر سنين وعظم تمكنه للخلافة الواقع بين بركيارق ومحمد، وكان يظهر طاعة صدقة وموافقته.

فلما صفا الأمر لمحمد رغب إليه صدقة في إبقائه فأبقاه.

وبعث السلطان محمد عاملاً على خاصة البصرة فمنعه إسماعيل، فأمر السلطان صدقة بأخذ البصرة منه.

وأظهر منكبرس الخلاف فشغلوا عن البصرة، وبعث إليه صدقة بتسليم الشرطة إلى مهذب الدولة بن أبي الخير فمنع من ذلك، فسار صدقة إليه، وحصن إسماعيل القلاع التي استجدها حوالي البصرة، واعتقل وجوه البلد من العباسيين والعلويين، والقاضي والمدرس والأعيان، وحاصرها صدقة وخرج إسماعيل لقتاله، وخالفه طائفة من أصحاب صدقة إلى مكان آخر من البلد فاقتحموها، وانهزم إسماعيل إلى قلعة الجزيرة فامتنع بها، ونهبت البلد وانحدر المهذب بن أبي الخير في السفن فأخذ القلعة التي كانت لإسماعيل بمطارا، ثم استأمن إسماعيل إلى صدقة فأمنه.

وجاء صدقة فأمن أهل البصرة ورتب عندهم شحنة، وعاد إلى الحلة منتصف تسع وتسعين وأربعمائة لستة عشر يوماً من مقامه بالبصرة.

وسار إسماعيل نحو فارس فطرقه المرض في رامهرمز ومات وكان صدقة قد استعمل على البصرة مملوك جده دبيس، واسمه اليونشاش ورتب معه مائة وعشرين فارساً، فاجتمعت ربيعة والمنتفق وقصدوا البصرة فدخلوها بالسيف، وأسروا اليونشاش وأقاموا بها شهراً ينهبون ويخربون، وبعث صدقة عسكراً فوصل بعد خروجهم من البلد فانتزع السلطان البصرة من صدقة وبعث إليها شحنةً وعميداً واستقام أمرها.

استيلاء صدقة على تكريت

كانت تكريت لبني معن من بني عقيل، وكانت إلى آخر سبع وعشرين وأربعمائة بيد رافع بن الحسين بن معن، فلما مات وليها ابن أخيه أبو منعة بن ثعلب بن حماد ووجد بها خمسمائة ألف دينار.

وتوفي سنة خمس وثلاثين، ووليها ابنه أبو غشام إلى سنة أربع وأربعين فوثب عليه أخوه عيسى فحبسه وملك القلعة والأموال.

فما اجتاز به طغرلبك سنة ثمان وأربعين صالحه على بعض المال فرحل عنه، ومات عيسى إثر ذلك وخافت زوجته من عود

أخيه أبي غشام إلى الملك فقتلته في محبسه.

وولت على القلعة أبا الغنائم بن المجلبان فسلمها إلى أصحاب طغرلبك، وسارت هي إلى الموصل فقتلها ابن أبي غشام بأبيه، وأخذ مسلم بن قريش مالها، وولى طغرلبك على قلعة تكريت أبا العباس الرازي، فمات لستة أشهر، فولي عليها المهرباط وهو أبو جعفر محمد بن أحمد بن غشام من بلد الثغر، فأقام بها إحدى وعشرين سنة، ومات فوليها ابنه سنتين، وأخذتها من تركمان خاتون وولت عليها كوهرايين الشحنة.

ثم مات ملك شاه فملكها قسيم الدولة آقسنقر صاحب حلب، فلما قتل صارت للأمير كمستكين الجاندار، فولى عليها رجلاً يعرف بأبي نصر المصارع، ثم عادت إلى كوهرايين إقطاعاً.

ثم أخذها منه محمد الملك الباسلاني فولى عليها لقا بن هزارسب الديلمي وأقام بها اثنتي عشرة سنة، فظلم أهلها، وأساء السيرة، فلما أجاز به سقمان بن ارتق سنة ست وتسعين وأربعمائة لنهبها، وكان كيقباذ ينهبها ليلاً وسقمان ينهبها نهاراً.

فلما استقر السلطان محمد بعد أخيه بركيارق أقطعها للأمير آقسنقر البرسقي شحنة بغداد، فسار إليها وحصرها مدة تزيد على سبعة أشهر حتى ضاق على كيقباذ الأمر، فراسل صدقة بن مزيد ليسلمها إليه، فسار إليها في صفر من هذه السنة، وتسلمها منه.

وانحدر البرسقي ولم يملكها ومات كيقباذ بعد نزوله من القلعة بثمانية أيام، وكان عمره ستين سنة، واستناب صدقة بها ورام بن أبي قريش بن ورام وكان كيقباذ ينسب إلى الباطنية.

الخلف بين صدقة وصاحب البطيحة

قد كنا قدمنا أن السلطان محمداً أقطع صدقة بن مزيد مدينة واسط، فضمنها صدقة لمهذب الدولة بن أبي الخير، وولى في أعمالها أولاده، فبذروا الأموال، وطالبه صدقة عند انقضاء السنة بالمال وحبسه، وسعى في خلاصه بدران بن صدقة، وكان صهراً لمهذب الدولة، وأعاده إلى البطيحة.

وضمن حماد والمختم محمد والد مهذب الدولة كانا أخوين وهما ابنا أبي الخير وكانت لهما رياسة قومهما وهلك المصطنع وقام ابنه أبو السيد المظفر والد حماد مقامه.

وهلك المختم محمد وقام ابنه مهذب الدولة مقامه، ونازعا إبراهيم صاحب البطيحة حتى غلبه مهذب الدولة وقبض عليه، وسلمه إلى كوهرايين، فحمله إلى أصفهان فهلك في الطريق.

وعظم أمر مهذب الدولة وصير كوهرايين أمير البطيحة، وصارت جماعته لحكمه.

وكان حماد شاباً، وكان مهذب الدولة يداريه بجهده، وهو يضمر نقضه، فلما مات كوهرايين انتقض حماد عن مهذب الدولة وأظهر ما في نفسه، واجتهد مهذب الدولة في استصلاحه، فلم يقدر وجمع ابنه القيسر وقصد حماداً فهرب إلى صدقة بالحلة، وبعث معه مدداً من العسكر، وحشد مهذب الدولة وسار في العساكر براً وبحراً، وأكمن حماد لهم وأصحابه واستطردوا بين أيديهم، ثم خرجت عليهم الكمائن فانهزموا.

وأرسل حماد يستمد صدقة فبعث إليه مقدم جيشه، وجمعوا السفن وكان مهذب الدولة جواداً، فبعث إلى مقدم الجيش بالإنعامات والصلات فمال إليه، وأشار عليه أن يبعث ابن النفيس إلى صدقة فرضي عنه وأصلح بينه وبين حماد ابن عمه، وذلك آخر المائة الخامسة.

مقتل صدقة وولاية ابنه دبيس

كان صدقة بن منصور بن مزيد شيعة للسلطان محمد بن ملك شاه على أخيه بركيارق، ومن أعظم أنصاره.

ولما هلك بركيارق واستبد السلطان محمد بالملك رعى وسائله في ذلك، وأقطعه واسطاً وأذن له في ملك البصرة، وأنزله منزل المصافاة حتى كان يجبر عليه.

وسخط مرة على سرخاب بن كيخسرو وصاحب ساوة فلجأ إليه مستجيراً به فأجاره، وطلبه السلطان فمنعه.

وكان العميد أبو جعفر يستبدله السلطان لكثرة السعاية، ويغريه به وينكر دالته وتبسطه فتعين السلطان وسار إلى العراق وأرسل إلى صدقة فاستشار صدقة أصحابه فأشار ابنه دبيس بملاطفته واستعطافه بالهدايا، وأشار سعيد بن حميد صاحب جيشه بالمحاربة، فجنح إلى رأيه واستطال في الخطاب وجمع الجند وأفاض فيهم العطاء واعترضهم فكانوا عشرين ألف فارس وثلاثين ألف راجل.

وبعث إليه المستظهر مع علي بن طراد الزينبي نقيب النقباء يعظه في المخالفة، ويحضه على لقاء السلطان، فاعتذر بالخوف منه.

ثم بعث إليه السلطان قاضي القضاة أبا سعيد الهروي ليؤمنه، ويستنفره لجهاد الفرنج في جملته فامتنع، ووصل السلطان إلى بغداد في ربيع من سنة إحدى وخمسمائة، ومعه وزيره أحمد بن

نظام الملك، فقدم البرسقي شحنة بغداد في جماعة من الأمراء فنزلوا بصرصر مسلحة لقلة عسكر السلطان.

وإنه إنما جاء في ألفي فارس للإصلاح والاستلاف، فلما تبين له لجاج صدقة أرسل إلى الأمراء بأصفهان بأن يستجيشوا ويقدموا، فكتب صدقة إلى الخليفة بالمقاربة وموافقة السلطان.

ثم رجع صدقة عن رأيه، وقال: إذا رحل السلطان عن بغداد مددته بالأموال والرجال لجهاده.

وأما الآن وعساكره متصلة فلا وفاق عندي، وقد أرسل إلى جاولي سكاو، وصاحب الموصل وأبلغازي بن أرتق صاحب ماردين بالانتقاض على السلطان وأيس السلطان من استقامته.

ووصل إليه ببغداد قرواش شرف الدولة وكروباوى بن خراسان التركماني، وأبو عمران فضل بن ربيعة بن خادم بن الجرح الطائي، وكان آباؤه أصحاب البلقاء وبيت المقدس، ومنهم حسان بن مفرج، وطرده كفرتكين أتابك دمشق لما كان عليه من الأجلاب تارةً مع الفرنج، وتارة مع أهل مصر.

فلجأ إلى صدقة وقبله وأكرمه، وأجزل له العطاء سبعة آلاف دينار.

فلما كانت هذه الحادثة رغب عن صدقة وسار في طلائعه فهرب إلى السلطان فخلع عليه وعلى أصحابه، وسوغه دار صدقة عن الهروب، وأذن له فعبر من الأنبار وكان آخر العهد به.

ثم أنفذ السلطان في جمادى الأول إلى واسط الأمير محمد بن بوقا التركماني فملكها وأخرج منها أصحاب صدقة، وأنفذ خيله إلى بلد قوسان من أعمال صدقة، فنهبه وأقام أياماً، حتى بعث صدقة ابن عمه ثابت بن سلطان في عسكر، فخرج منها الأمير محمد وملكها ثابت.

وأقاموا على دجلة وخرج ثابت لقتالهم فهزموه واقتحموا البلد، ومنعهم الأمير محمد من النهب ونادى بالأمان، وأمر السلطان الأمير محمداً بنهب بلاد صدقة، فسار إليها وأقطع مدينة واسط لقسيم الدولة البرسقي. ثم سار السلطان من بغداد آخر رجب ولقيه صدقة واشتد القتال وتخاذلت عنه عبادة وخفاجة، ورفع صوته بالابتهال بالناشرة بالعرب، ورغب الأكراد بالمواعد، ثم غشيه الترك فحمل عليهم وهو ينادي: أنا ملك العرب أنا صدقة فأصابه سهم أثبته وتعلق به غلام تركي يسمى برغش فجذبه إلى الأرض، فقال: يا برغش إرفق فقتله وحمل رأسه إلى السلطان فأنفذه إلى بغداد، وأمر بدفن شلوه، وقتل من أصحابه ثلاثة آلاف أو يزيدون، ومن بني شيبان نحو مائة، وأسر ابنه دبيس، ونجا ابنه بدران إلى الحلة، ومنها إلى البطيحة عند صهره مهذب الدولة، وأسر سرجان بن كيخسرو والمستجير بصدقة على السلطان، وسعيد بن حميد العمدي صاحب الجيش.

وكان مقتل صدقة لإحدى وعشرين سنة من إمارته وهو الذي بنى الحلة بالعراق، وكان قد عظم شأنه وعلا قدره بين الملوك، وكان جواداً حليماً صدوقاً عادلاً في رعيته.

وكان يقرأ ولا يكتب، وكانت له خزانة كتب منسوبة الخط ألوف مجلدات، ورجع السلطان إلى بغداد من دون الحلة، وأرسل أماناً لزوج صدقة فجاءت إلى بغداد، وأمر السلطان الأمراء بتلقيها، وأطلق لها ولدها دبيساً، واعتذر لها من قتل صدقة، واستحلف دبيساً على الطاعة، وأن لا يحدث حدثاً، وأقام في ظله وأقطعه السلطان إقطاعاً كثيراً.

ولم يزل دبيس مقيماً عند السلطان محمد إلى أن توفي، وملك ابنه محمود سنة إحدى عشرة وخمسمائة، فرغب دبيس من السلطان محمود أن يسرحه إلى بلده، فسرحه، وعاد إليها فملكها واجتمع عليه خلق كثير من العرب والأكراد واستقام أمره.

خبر دبيس مع البرسقي ومع الملك مسعود

لما توفي الخليفة المستظهر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، وبويع ابنه المسترشد خاف ابنه الآخر من غائلة أخيه وانحدر في البحر إلى المدائن، وسار منها إلى الحلة فأبى أن يكرهه فتلطف علي بن طراد لأخي الخليفة فأجاب، وتكفل دبيس بما يطلبه، وبينما هو في خلال ذلك برز البرسقي من بغداد مجلباً على دبيس الجموع، وسار أخو الخليفة إلى واسط فملكها في صفر سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وقوي أمره وكثرت جموعه فبعث الخليفة إلى دبيس في شأنه، وأنه خرج عن جواره فلقي أمره بالطاعة، وبعث إليه وهو بواسط عسكراً من قبله فتلقاه وقبض عليه، وبعثه إلى أخيه المسترشد.

وكان مسعود أخو السلطان محمد بالموصل ومعه أتابكه جيوس بك، فاعتزما على قصد العراق لغيبة السلطان محمود عنه، فسار لذلك ومعه وزيره فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس، وقسيم الدولة زنكي بن أقسنقر أبو المعالي أبو الملك العادل، وكروباوي بن خراسان التركماني صاحب البواريح وأبو الهيجاء صاحب أربل وصاحب سنجار، فلما قاربوا بغداد خاف البرسقي شأنهم وبعث إليه الملك مسعود وجيوس بك أنهم إنما جاؤوا نجدة على دبيس، وكان البرسقي إنما ارتاب من جيوس بك فصالحهم، ودخل مسعود بغداد ونزل دار المملكة.

وجاء منكبرس في العساكر فسار البرسقي عن بغداد لمحاربته ودفاعه فمال إلى النعمانية، وعبر دجلة واجتمع مع دبيس بن صدقة.

وكان دبيس قد صانع مسعوداً وصاحبه بالهدايا والألطاف مدافعة عن نفسه، فلما لقيه منكبرس اعتضد به، وسار الملك مسعود والبرسقي وحيوس بك إلى المدائن للقائهما.

ثم خاموا عن لقائهما لكثرة جموعهما، ونكبوا عن المدائن وعبروا نهر صرصر، وأكثروا النهب في تلك النواحي من الطائفتين.

وبعث إليهم المسترشد بالموعظة ويأمرهم بالموادعة والمصالحة فأجابو إلى ذلك.

ثم بلغهم أن دبيساً ومنكبرس قد بعثا العساكر مع منصور أخي دبيس وحسين بن أوزبك ربيب منكبرس ليخالفوهم إلى بغداد فخلوها من الحامية، فأغذ البرسقي السير إلى بغداد وترك ابنه عز الدين مسعود على العسكر وصحبه عماد الدين زنكي بن أقسنقر وانتهى إلى ديالى، ومنع العسكر من العبور.

ثم جاءه الخبر ليومين بصلح الفريقين كما أشار الخليفة ففتر نشاطه وعبر إلى الجانب الغربي من بغداد.

وجاء في أثره منصور أخو دبيس وحسين ربيب منكبرس فنزلا في الجانب الشرقي من بغداد.

وأغار البرسقي على نعم الملك مسعود فأخذها، وعاد فخيم بجانب آخر من بغداد، وخيم مسعود وحيوس بك من جانب آخر ودبيس ومنكبرس من جانب ومعهما عز الدولة بن البرسقي منفرداً عن أبيه.

وكان حيوس بك قد بعث إلى السلطان محمود بطلب الزيادة له وللملك مسعود فجاء كتاب مع رسوله يذكر بأن السلطان كان أقطعهم أذربيجان، حتى إذا بلغه مسيرهم إلى بغداد تثاقل عن ذلك، وقد جهز العساكر إلى الموصل.

ووقع الكتاب بيد منكبرس فبعث إلى حيوس بك وضمن له إصلاح الحال، وكان يؤثر مصلحته إذ كان متزوجاً بأمه فتم الصلح وافترق عن البرسقي أصحابه، وبطل ما كان يحدث به نفسه من الاستبداد بالعراق، وصار مع الملك مسعود واستقر منكبرس شحنة ببغداد، ورجع دبيس إلى الحلة.

فتنة دبيس مع السلطان محمود وإجلاؤه عن بغداد ثم معاودته الطاعة

كان دبيس بن صدقة كثيراً ما يكاتب حيوس بك أتابك الملك مسعود، ويغريه بطلب السلطنة ويعده بالمساعدة ليحصل له بذلك علو اليد كما كان لأبيه مع بركيارق ومحمد ابني ملك شاه.

وكان قسيم الدولة البرسقي شحنة بغداد قد سار للملك مسعود، وأقطعه مراغة مع الرحبة، وكانت بينه وبين دبيس عداوة مستحكمة فأغراهم دبيس بالقبض عليه، ففارقهم البرسقي إلى السلطان محمود فأكرمه.

ثم اتصل الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن علي الأصفهاني بالملك مسعود، وكان ولده أبو المؤيد محمد يكاتب الطغرائي عن الملك مسعود.

فلما وصل أبوه عزل أبا علي بن عمار صاحب طرابلس واستوزره، وحسن لهم ما أشار به دبيس فعزموا عليه.

ونمي الخبر إلى السلطان محمود فكاتبهم بالوعيد فأظهروا أمرهم وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة، وضربوا له النوب الخمس.

وبلغهم أن عساكر محمود متفرقة فأغذوا السير لمحاربته، والتقوا عند عقبة استراباد في ربيع سنة أربع عشرة، وأبلى البرسقي وكان في مقدمته.

ثم انهزم مسعود وأضرّ كثير من أصحابه، وجيء بالوزير أبي إسماعيل الطغرائي فأمر بقتله لسنة من ولايته، وكان حسن الكتابة والشعر وله تصانيف في صنعة الكيمياء، وسار مسعود يطلب الموصل بعد أن استأمن البرسقي وأدركه فرده إلى أخيه، وعفا عنه وعطف عليه، ولحق حيوس بك بالموصل.

ثم بلغه فعل السلطان محمود ومعه ألف سفينة لعبوره، فبادر دبيس لطلب الأمان بعد أن أرسل حرمه إلى البطيحة، وسار بأمواله عن الحلة وأمر بنهبها، ولحق بأبلغازي بن أرتق بماردين، ووصل السلطان إلى الحلة فوجدها خاوية على عروشها فرجع عنها.

وأرسل دبيس أخاه منصوراً من قلعة صفد في عسكر إلى العراق فمر بالحلة والكوفة، وانحدر إلى البصرة وبعث إلى برتقش الزكوي في صلاح حالهما مع السلطان محمود فقبض على منصور أخي دبيس وولده، وحبسهما ببعض القلاع حذاء الكرخ.

ثم أذن دبيس لجماعة من أصحابه بالمسير إلى أقطاعهم بواسط فمنعهم أتراك واسط، فبعث إليهم عسكراً مع مهلهل بن أبي العسكر، وأمر مظفر بن أبي الخير فساعده، واستمد أهل واسط البرسقي فأمدهم بعسكر.

وسار مهلهل للقائهم قبل مجيء المظفر فهزم وأخذ أسيراً في جماعة من أصحابه، وأصعد المظفر من البطيحة ينهب ويفسد حتى قارب واسط، وسمع بالهزيمة فأسرع منحدراً ووقع على كتاب بخط دبيس إلى مهلهل يأمره بالقبض على مظفر بن أبي الخير، ومطالبته بالأموال، فبعثوا به إلى المظفر.

وسار معهم وبلغ دبيساً أن السلطان كحل أخاه فلبس السواد، ونهب البلاد، وأخذ للمسترشد بنهر الملك، وأجفل الناس إلى بغداد وسار عسكر واسط إلى النعمانية، فأوقعوا بمن هنالك من عساكر دبيس وأجلوهم عنها.

وكان دبيس قد أسر في واقعة البرسقي عفيفاً خادم الخليفة فأطلقه، وحمله إلى المسترشد عقاباً ووعيداً على كحل أخيه فغضب الخليفة، وتقدم إلى البرسقي بالخروج لحرب دبيس، وخرج بنفسه في رمضان سنة عشرة وخمسمائة وأتاه سليمان بن مهارش من الحديثة في جماعة من بني عقيل وقريش بن مسلم صاحب الموصل في كافة بني عقيل.

وأمر المسترشد باستنفار الجند كافة، وفرق فيهم الأموال والسلاح، وجاء دبيساً ما لم يكن يحتسبه فرجع إلى الاستعطاف وبرز الخليفة آخر ذي الحجة، وعبر دجلة وهو في أكمل زيه، ومعه وزيره نظام الدين أحمد بن نظام الملك ونقيب الطالبيين ونقيب النقباء علي بن طراد، وشيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل.

وبلغ البرسقي مسير المسترشد فعاد إلى خدمته ونزل معه بالحديثة.

ثم سار إلى الموصل على سبيل التعبية والبرسقي في المقدمة، وعبى دبيس أصحابه صفاً واحداً وجعل الرجالة بين يدي الخيالة.

وقد كان وعد أصحابه بنهب بغداد وسبي حريمها، فالتقى الفريقان فانهزم عسكر دبيس وأسر جماعة من أصحابه فقتلوا صبراً وسبيت حرمه، ورجع المسترشد إلى بغداد يوم عاشوراء من سنة سبع عشرة وخمسمائة.

ونجا دبيس وعبر الفرات، وقصد غزنة من عرب نجد مستنصراً بهم فأبوا ا عليه، فسار إلى المنتفق وحالفهم على أخذ البصرة فدخلوا ونهبوا أهلها، وقتل مقدم عسكرها.

وبعث المسترشد إلى البرسقي بالعتاب على إهمال أمر البصرة، فتجهز البرسقي للانحدار إليها ففارقها دبيس، ولحق بقلعة جعبر وصار مع الفرنج وأطمعهم في حلب وسار معهم لحصارها سنة ثمان عشرة وخمسمائة فامتنعت عليهم فعادوا عنها، ولحق هو بالملك طغرلبك ابن السلطان محمد فأغراه بالمسير إلى العراق كما نذكر.

مسير دبيس إلى الملك طغرل

لما سار دبيس من الشام إلى الملك طغرل بأذربيجان تلقاه بالمبرة والتكرمة، وأنظمه في خواصه ووزرائه، وأغراه دبيس بالعراق، وضمن له ملكه فسار معه لذلك، وانتهوا إلى دقوقا في عساكر كثيرة.

وكتب مجاهد الدين بهروز صاحب تكريت إلى المسترشد بالخبر فتجهز لمدافعتهم، وجمع العساكر فبلغوا اثني عشر ألف فارس، وبرز من بغداد في صفر سنة تسع عشرة وخمسمائة وفي مقدمته برتقش الزكوي ونزل الخالص، وانتهى إلى طغرل خروج المسترشد فعدل إلى طريق خراسان ونزل جلولاء، وتفرق أصحابه للنهب.

وبرز إليه الوزير جلال الدين بن صدقة في عسكر كبير فنزل الدسكرة، ولحقه المسترشد وكان معه، ورحل طغرل ودبيس إلى الهارونية.

ثم سارا إلى تامرا ليقطعا جسر النهروان فحفظ دبيس المعابر، وتقدم طغرل إلى بغداد وتملكها ونهبها، ثم رحل دبيس من تامرا وأقام طغرل لحمى أصابته، وحالت بينهما الأمطار والسيول.

ثم أخذ دبيس ثقلاً جاء للخليفة فيه ملبوس وطعام كثير، وكان لحقه الجوع والتعب والبرد فأخذ من ذلك الملبوس ولبسه، وأكل من الطعام كثيراً، واستقبل الشمس فأخذه النوم ورقد.

وأما الخليفة لما بلغه الخبر بأخذ الثقل رجع إلى بغداد، ففي حال سيره عثر على دبيس وهو نائم فوقف وأيقظه، فحل عينيه ورأى الخليفة فبادر بتقبيل الأرض على العادة، وسأل العفو، فرق له الخليفة وثناه الوزير ابن صدقة عن ذلك، ووقف دبيس أزاء عسكر برتقش يحادثهم، ثم مدوا الجسر آخر النهار للعبور فتسلل دبيس عنهم، ولحق بالملك طغرل، وسار معه إلى عمه الملك سنجر، وعاثوا في أعمال همذان واتبعهم السلطان محمود فلم يظفر بهم.

مسير دبيس إلى السلطان سنجر

لما أيس طغرل من ملك العراق عندما سار إليه مع دبيس عاد منه، وسار هو ودبيس إلى السلطان سنجر، وهو يومئذ صاحب خراسان، والمتقدم على بني ملك شاه، فشكى إليه طغرل ودبيس من المسترشد، وبرتقش الشحنة، ووعدهم النصفة منهم، ثم داخله دبيس وأطعمه في ملك العراق، وخيل له أن المسترشد والسلطان محمود متفقان على مباعدته، ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب حتى حرك حفيظته لذلك، وسار إلى العراق سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فوصل إلى الري، واستدعى السلطان محموداً من همذان يختبر ما خيل له دبيس، فجاء محمود مبادراً وأكذب دبيساً فيما خيل، وأمر السلطان سنجر العساكر بتلقي السلطان محمود، وأجلسه معه على التخت، وأقام عنده إلى آخر سنة اثنتين وعشرين ثم عاد إلى خراسان وأوصاه بإعادة دبيس إلى بلده، فرجع السلطان محمود إلى همذان ودبيس معه، ثم سار إلى بغداد في محرم سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وأنزل دبيس بداره، واسترضى له الخليفة فرضي عنه، وامتنع من ولايته، وبذل دبيس مائة ألف دينار لذلك فلم يقبله، وعاد السلطان محمود إلى همذان منتصف السنة.

فتنة دبيس مع محمود وأسره

كانت زوجة السلطان محمود وهي ابنة عمه سنجر تعين بأمر دبيس، فماتت عند رحيل السلطان إلى همذان فانحل أمره.

ثم مرض السلطان فأخذ دبيس ابنه الصغير، وقصد العراق فجمع المسترشد لمدافعته.

وكان بهروز شحنة بغداد بالحلة فهرب عنها، وملكها دبيس في رمضان سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة.

وبلغ الخبر إلى السلطان محمود، فأحضر الأمير ابن قزل والأحمديلي، وكانا ضمنا دبيس فطالبهما بالضمان فسار الأحمديلي في أثره.

وجاء السلطان إلى العراق فبعث إليه دبيس بهدايا عظيمة كان فيها مائتا ألف دينار، وثلاثمائة فرس بسروج مثقلة بالذهب.

ثم جاء إلى البصرة ونهبها وأخذ ما في بيوت الأموال.

وبعث السلطان في أثره العساكر فدخل البرية، وجاءه عند مفارقته البصرة قاصداً من صرصر يستدعيه، وكان صاحبها خصياً فتوفي في هذه السنة، وخلف سرية له فاستولت على القلعة، وأرادت أن تتم أمرها برجل له قوة ونجدة فوصف لها دبيس، وحاله في العراق وكثرة عشيرته، فكتبت تستدعيه لتتزوج به، وتملكه القلعة بما فيها فلحقه الكتاب بعد مفارقته البصرة.

وقفل من العراق إلى الشام، ومعه الأدلاء ومر بدمشق فحبسه واليها عنده، وبعث فيه عماد الدين زنكي وكان عدوه.

وكان عنده ابن تاج الملوك مأسوراً في واقعة كانت بينهما، فطلب أن يبعث إليه دبيس، ويفادي به ابنه والأمراء الذين معه ففعل ذلك تاج الملوك، وحصل دبيس في يد زنكي، وقد أيقن بالهلاك فأطلقه زنكي وحمل له الأموال والدواب والسلاح وخزائن الأمتعة كما يفعل مع أكابر الملوك وبلغ المسترشد خبره فبعث سديد الدين بن الأنبار يطلبه من تاج الملوك فسار لذلك من جزيرة ابن عمر، وبلغه في طريقه أنه بعثه إلى زنكي وأنه فاته القصد منه.

مسير دبيس إلى بغداد مع زنكي وانهزامهما

لما توفي السلطان محمود سنة خمس وعشرين وخمسمائة وولي بعده داود، ونازعه عمومته مسعود وسلجوق، ثم استقرت السلطنة لمسعود، وكان أخوهما طغرل عند عمه سنجر بخراسان، وكان كبير بيت أهل السلجوقية، وله الحكم على ملوكهم فنكر على السلطان محمود لقتاله سلجوق وطغرل، وسار به إلى العراق، وانتهى إلى همذان.

وبعث إلى عماد الدين زنكي فولاه شحنة بغداد، وإلى دبيس بن صدقة وهو عند زنكي فأقطعه الحلة وتجهز السلطان محمود لقتال سنجر وطغرل، واستدعى الخليفة للحضور معه فخرج من بغداد وعاجلهم، ورجع المسترشد إلى بغداد وقد سمع بوصول زنكي ودبيس إليها ولقيهم بالعباسية فهزمهم، وقتل من معسكرهم ودخل بغداد وسار دبيس إلى بلاد الحلة، وكانت بيد أقبال خادم المسترشد فبعث إليها بالمدد فهزموا دبيساً ونجا من المعركة.

ثم جمع جمعاً وقصد واسط وانضم إليه عسكرها وابن أبي الخير صاحب البطيحة، وملكها إلى سنة سبع وعشرين وخمسمائة فبعث أقبال الخادم وبرتقش الشحنة العساكر إلى دبيس فلقيهم في عسكر واسط، وانهزم وسار إلى السلطان مسعود فأقام عنده.

مقتل دبيس وولاية ابنه صدقة

لم يزل دبيس مقيماً عند السلطان مسعود إلى أن حدثت الفتنة بينه وبين المسترشد، ومات أخوه طغرل كما هو مذكور في أخبارهم وسار مسعود إلى همذان بعد موت أخيه طغرل فملكها، وفارقه جماعة من أعيان أمرائه، ومعهم دبيس بن صدقة مستوحشين منه.

واستأمنوا للخليفة فحذر من دبيس، ولم يقبلهم فمضوا إلى خوزستان، واتفقوا مع برسق بن برسق.

ثم تدارك الخليفة رأيه وبعث إلى الأمراء الذين مع دبيس بالأمان، وكانوا لما ردهم الخليفة بسبب دبيس أجمعوا القبض عليه، وخدمة الخليفة به، وشعر بهم وهرب إلى السلطان مسعود.

وبرز الخليفة من بغداد في رجب من سنة تسع وعشرين وخمسمائة لقتال مسعود، وكتب إليه أكثر أهل الأعمال بالطاعة.

وأرسل إليه داود ابن السلطان محمود من أذربيجان بأن يقصد المسترشد الدينور ليحضر داود حربه فأبى، وسار على التعبية حتى بلغ واعرج فالتقوا هنالك.

وانهزمت عساكر المسترشد وأخذ أسيراً ومعه وزيره شرف الدين علي بن طراد، وقاضي القضاة، وابن الأنباري، وجماعة من أعيان الدولة، وغنم ما في عسكره وعاد السلطان إلى بغداد.

وبعث الأمير بكاية شحنة إلى بغداد، وكثر العويل والبكاء والضجيج ببغداد على الخليفة، وجعل الخليفة في خيمة ووكل به، وراسله السلطان مسعود في الصلح، وشرط عليه مالاً يؤديه، ولا يجمع العساكر ولا يخرج من داره ما بقي، وانعقد ذلك بينهما.

وبينما هما في ذلك وصل رسول السلطان سنجر فركب السلطان مسعود للقائه، وافترق المتوكلون بالمسترشد فدخل عليه خيمته آخر ذي القعدة من سنة تسع وعشرين وخمسمائة جماعة الباطنية، وقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه.

ولما قتل المسترشد اتهم السلطان مسعود أن دبيس بن صدقة دس أولئك النفر عليه فأمر بقتله، وقصده غلام فوقف على رأسه عند باب خيمته، وهو ينكث الأرض بإصبعه فأطار رأسه وهو لا يشعر.

وبلغ الخبر إلى ابنه صدقة وهو بالحلة، فاجتمعت إليه عساكر أبيه ومماليكه، واستأمن إليه الأمير قطلغ تكين وأمر السلطان مسعود الشحنة بك أبه بمعاجلته، وأخذ الحلة من يده إلى أن قدم السلطان بغداد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة فقصده صدقة وأصلح حاله معه ولزم بابه.

مقتل صدقة وولاية ابنه محمد

ولما قتل المسترشد ولي ابنه الراشد بإشارة السلطان مسعود، ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان مسعود، وأغراه بها عماد الدين زنكي صاحب الموصل، ومعه الراشد.

وبايع السلطان مسعود للمقتفي سنة ثلاثين وخمسمائة وخلع الراشد ففارق الموصل، وسار الأمراء الذين كانوا مع داود إلى السلطان مسعود، ورضي عنهم، ورجع إلى همذان وأذن للعساكر في العود إلى بلادهم، وتمسك بصدقة بن دبيس وزوجه ابنته.

وسار الراشد من الموصل إلى أذربيجان قاصداً الملك، واجتمع إليه صاحب فارس وخوزستان وجماعة الأمراء، فسار إليهم السلطان مسعود وهزمهم، وأخذه صاحب فارس الأمير منكبرس فقتله صبراً.

وتسلل صاحب خوزستان وعبد الرحمن طغايرك صاحب خلخال إلى السلطان مسعود وهو في خف من الناس فحملوا عليه وهزموه، وقبضوا على جماعة من الأمراء الذين معه فقتله منكبرس: فيهم صدقة بن دبيس وعنبر بن أبي العسكر.

وذهب داود إلى همذان فملكها، واستقال السلطان مسعود من عثرته، وولى على الحلة محمد بن دبيس، وجعل معه مهلهل بن أبي العسكر أخا نمير بربرة، واستقام أمره بالحلة، وكان من شأن الراشد والسلجوقية ما نذكره في أخبارهم.

تغلب علي بن دبيس على الحلة وملكه إياها من أخيه محمد

ثم خرج على السلطان مسعود سنة ست وأربعين وخمسمائة بوزاية صاحب فارس وخوزستان وبايع للسلطان محمد ابن السلطان محمود، وسار معهم عباس صاحب الري، وملكوا كثيراً من البلاد، فسار السلطان مسعود إليهم من بغداد واستخلف بها الأمير مهلهل ابن أبي العسكر ونظر الخادم، وأشار مهلهل على السلطان مسعود عند رحيله من بغداد أن يحبس علي بن دبيس بقلعة تكريت.

ونمي إليه الخبر فهرب في نفر قليل، ومضى إلى بني أسد

فجمعهم فسار إلى الحلة فبرز إليه محمداً أخوه فهزمه علي، وملك الحلة واستهان السلطان أمره أولاً فاستفحل وضم إليه جمعاً من غلمانه وغلمان أبيه وأهل بيته وعساكرهم، وكثر جمعهم فسار إليه مهلهل فيمن معه في بغداد من العسكر، وضربوا عليه مصافاً وكسرهم، وعادوا منهزمين إلى بغداد.

وكان أهلها يتعصبون لعلي بن دبيس فكانوا يعيطون إذا ركب مهلهل أو بعض أصحابه: يا علي كله.

فكثر ذلك منهم بحيث امتنع مهلهل من الركوب، ويد علي فوق كل يد في أوضاع الأمراء بالحلة وتصرف فيها وصار شحنة بغداد ومن فيها على وجل منه، ووضع الخليفة الحامية على الأسوار وأرسل إلى علي يحضه على الاستقامة فأجاب بالآمال والطاعة فسكن الناس.

أخذ السلطان الحلة من يد علي وعوده إليها

كان علي بن دبيس كثير العسف بالرعية والظلم لهم، وارتفعت شكوى الرعية به إلى السلطان مسعود سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فأشكاهم، وأقطع الحلة سلاركرد فسار إليها من همذان.

وجمع عسكراً من بغداد وقصد الحلة، واحتاط على أهل علي، وأقام بالحلة في مماليكه وأصحابه.

ورجعت عنه العساكر ولحق علي بن دبيس بالتقشكنجر وكان في أقطاعه باللحف متجنياً على السلطان مسعود، فاستنجده علي فأنجده، وسار معه إلى واسط، وسار معهما الطرنطاي صاحب واسط فانتزعوا الحلة من سلاركرد ورجع إلى بغداد آخر اثنتين وأربعين، واستولى علي على الحلة.

نكبة علي بن دبيس

ثم انتقض على السلطان مسعود سنة أربع وأربعين وخمسمائة جماعة من الأمراء منهم التقشكنجر والطرنطاي وعلي بن دبيس، وبايعوا ملك شاه ابن السلطان محمود، وساروا به إلى العراق، وراسلوا المقتفي في الخطبة له فامتنع، وجمع العساكر وحصن بغداد وأرسل إلى السلطان مسعود بالخبر فشغل عنهم بلقاء عمه السلطان سنجر، كان سار إليه بالري.

ولما علم التقشكنجر بذلك نهب النهروان وقبض على علي بن دبيس، وهرب الطرنطاي إلى النعمانية.

ثم وصل السلطان مسعود إلى بغداد فرحل التقشكنجر من النهروان وأطلق علي بن دبيس فسار إلى السلطان مسعود فلقيه ببغداد واستعطفه فرضي عنه.

وفاة علي بن دبيس وانقراض بني مزيد

ثم توفي علي بن دبيس صاحب الحلة عليلاً بسعدآباد، واتهم طبيبه محمد بن صالح بالادهان فيه فمات بعده بقليل.

ثم مات السلطان مسعود آخر ملوك السلجوقية الأعاظم، وبويع ملك شاه ابن أخيه محمود بعهده، واستبد المقتفي على ملوك السلجوقية بعده.

وبعث السلطان ملك شاه سلاركرد إلى الحلة فملكها، ولحق به مسعود بلاك شحنة بغداد، وهرب منها عند موت السلطان مسعود، وأظهر لسلاركرد الوفاق.

ثم قبض عليه وغرقه، واستبد بالحلة، وبعث المقتفي إليه العساكر مع الوزير عون الدين بن هبيرة، فبرز مسعود بلاك للقائهم، فانهزم وعاد إلى الحلة فمنعه أهلها من الدخول، فسار إلى تكريت، وملك ابن هبيرة الحلة، وبعث العساكر إلى الكوفة وواسط فملكوها.

ثم جاءت عساكر السلطان ملك شاه إلى واسط، وخرجت منها عساكر المقتفي إلى واسط فملكها، ثم إلى الحلة كذلك.

ثم عاد إلى بغداد آخر ذي القعدة سنة سبع وأربعين وخمسمائة، ثم قبض الأمراء على ملك شاه سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

وبايعوا لأخيه محمد وطلب الخطبة من المقتفي فمنع منها، فسار السلطان محمد بن محمود إلى العراق سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.

واضطرب الناس ببغداد واهتم المقتفي بالاحتشاد، وجاءته عساكر واسط، وبعث السلطان مهلهل بن أبي العسكر إلى الحلة فملكها، وحاصر السلطان محمد بغداد سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وامتنعت عليه فرجع، وتوفي المقتفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة وبويع ابنه المستنجد، واستبد بأمره كما كان أبوه.

ومنع خطبة السلجوقية من بغداد، وكان في نفسه شيء من بني أسد لإجلابهم على بغداد مع مهلهل بن أبي العسكر، أيام

حصار السلطان محمد لها، فأمر بردن بن قماج بقتالهم وإجلائهم، وكانوا منتشرين في البطائح، ولا يقدر عليهم، وجمع عساكره وبعث عن ابن معروف مقدم المتفق من أرض البصرة فجاءه في جمع كبير، وحاصرهم حتى انحسر الماء عنهم.

وأبطأ أمرهم على المستنجد فبعث إلى بردن يعاتبه وينسبه إلى موافقتهم في التشيع فجهد هو وابن معروف في قتالهم، وسد مسالكهم في الماء، واستسلموا فقتل منهم أربعة آلاف، ونودي عليهم بالجلاء من الحلة فافترقوا في البلاد، ولم يبق منهم بالعراق من يعرف، وسلمت بطائحهم وبلادهم إلى ابن معروف والمتفق وانقرضت دوله بني مزيد والبقاء لله.

الخبر عن ملوك العجم القائمين بالدعوة العباسية في ممالك الإسلام والمستبدين على الخلفاء ونبدأ منهم أولاً بدولة ابن طولون بمصر وبداية أمرهم ومصاير أحوالهم

قد تقدم لنا عند ذكر الفتوحات فتح مصر على يد عمرو بن العاص سنة عشرين من الهجرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بإذنه، وولاه عليها، وافتتح ما وراءها في المغرب إلى طرابلس وودان وغدامس حسبما ذلك مذكور هنالك، وأقام عمرو في ولايتها أيام عمر كلها وولى عثمان على الصعيد عبد الله بن أبي سرح، وأفردها بالولاية، وكان يعدو على عمرو فغضب عمرو، وأبى من الرجوع إلى ولاية مصر، فضمها عثمان لعبد الله بن أبي سرح وولاه عليها.

وكانت في أيامه غزوة الصواري، جاءت مراكب الروم من القسطنطينية في ألف مركب ونزلوا بسواحل الإسكندرية.

وانتقض أهل القرى، ورغب أهل الإسكندرية من عثمان أن يمدهم بعمرو بن العاص فبعثه، وزحف إليهم في العرب ومعه المقوقس في القبط، وخرجوا من البحر ومعهم من انتقض من أهل القرى، ففتح الله على المسلمين، وهزموا الروم إلى الإسكندرية.

وأمضى عمرو في قتلهم ورد على أهل القرى ما غنم المسلمون منهم، وعذرهم بالإكراه، ورجع إلى المدينة وأقام عبد الله في ولايتهم، وغزا إفريقية وافتتحها.

ثم غزا بلد النوبة، ووضع عليهم الجزية المعروفة الباقية على الأيام وذلك سنة إحدى وثلاثين.

ثم كان من بعد ذلك يبعث معاوية بن خديج فيفتح ويثخن إلى أن استملك فتح إفريقية.

ووفد على عثمان آخر أيامه عندما اهتاجت الفتنة، وكثر الطعن عليه من جماعة جند مصر يتعللون بالشكوى من ابن أبي سرح مع وفد من الجند شاكين من عمالهم بالأمصار.

وعزله عثمان يسترضيهم به فكانت قضية الكتاب المنسوب إلى مروان وحصارهم عثمان بداره.

وخرج عبد الله من مصر مدداً لعثمان فخالفه محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة إلى مصر وانتزى بها.

ورجع عبد الله من طريقه فمنعه الدخول فسار إلى عسقلان، وأقام بها حتى قتل عثمان.

ثم سار إلى الرملة وكانت من مهماته فأقام بها هرباً من الفتنة حتى مات، ولم يبايع علياً ولا معاوية.

ثم قتل عمرو بن العاص محمد بن أبي حذيفة، وفي كيفية قتله إياه اضطراب.

ثم ولي علي على مصر قيس بن سعد بن عبادة، وكان ناصحاً له شديداً على عدوه، واستماله معاوية، فأساء في الرد عليه.

وأشاع معاوية خلاف ذلك عنه فعزله علي من أجل ذلك، وولى بعد ذلك الأشتر النخعي، واسمه مالك بن الحارث بن يغوث بن سلمة بن ربيعة بن الحارث بن خزيمة بن سعد بن مالك بن النخع.

وسار إليها فمات بالقلزم قريباً منها سنة سبع وثلاثين، فولى علي مكانه محمد بن أبي بكر، وكان نشأ في حجره.

ثم بعث معاوية إلى عمرو بن العاص وهو بفلسطين قد اعتزل الناس بعد مقتل عثمان، واستماله واجتمع معه على قتال علي وولاه مصر فسار إليها بعد انقضاء أمر صفين وأمر الحكمين.

وطلب معاوية الخلافة وقد اضطرب الأمر على محمد بن أبي بكر وخرج عليه معاوية بن خديج السكوني مع جماعة من العثمانية بنواحي مصر فكاتب عمرو العثمانية، وسرح الكتائب إلى مصر، وفي مقدمتها معاوية بن خديج فهزموا عساكر محمد، وافترق عنه أصحابه وقتل كما هو معروف في أخباره.

ودخل عمرو بن العاص الفسطاط، وملك مصر، إلى سنة ثلاث وأربعين ومائة فتوفي، وملك مكانه ابنه عبد الله.

ثم عزله معاوية وولى أخاه عتبة بن أبي سفيان، وتوفي سنة

أربع وأربعين وولى مكانه عقبة بن عامر الجهني، ثم عزله سنة سبع وأربعين ومائة وولى مكانه معاوية بن خديج.

ثم اقتطع عنه إفريقية سنة خمسين وولى عليها عقبة بن نافع.

ثم جمع مصر وإفريقية لمسلمة بن مخلد الأنصاري، فبعث مسلمة على إفريقية مولاه أبا المهاجر، وأساء عزل عقبة كما هو معروف.

ثم مات معاوية وولي ابنه يزيد، واضطربت الأمور، وبويع عبد الله بن الزبير بمكة، وانتشرت دعوته في الممالك الإسلامية فبعث على مصر عبد الرحمن بن جحدم القرشي، وهو عبد الرحمن بن عقبة بن أياس بن الحارث بن عبد بن أسد بن جحدم الفهري، ثم بويع مروان وانتقض ابن الزبير وسار مروان إلى مصر فأخرج منها عبد الرحمن بن جحدم وولى عليها عمر بن سعيد الأشدق.

ثم بعثه للقاء مصعب بالشام، وولى مكانه على مصر ابنه عبد العزيز بن مروان ثم هلك سنة خمس وكان مروان قد مات فولي مكانه ابنه عبد الله بن عبد الملك.

ثم عزله الوليد سنة تسع وثمانين وولى عليها مرة بن شريك بن مرثد بن الحارث العبسي، ومات سنة خمس وتسعين فولى الوليد مكانه عبد الله بن رفاعة سنة تسع وتسعين، وكان قد استخلفه عند موته ويقال: بل ولى قبله أسامة بن زيد التنوخي.

ثم عزل عمر بن عبد العزيز عبد الملك بن رفاعة سنة تسع وتسعين وولى مكانه أيوب بن شرحبيل بن أكرم بن أبرهة بن الصباح الأصبحي.

ثم عزله يزيد بن عبد الملك، وولى مكانه بشر بن صفوان، وأقره يزيد، ثم عزله هشام بن عبد الملك وولى عبد الملك بن رفاعة وتوفي بعد خمس عشرة ليلة.

واستخلف أخاه الوليد بن رفاعة، وأقره هشام فأقام سبعة أشهر، ثم عزله وولى حنظلة بن صفوان في المحرم سنة أربع وعشرين ومائة وأقره هشام.

ثم استعفى مروان بن محمد حين ولي فأعفاه، وولى مكانه حسان بن عتامة بن عبد الرحمن السجيني، وكان بالشام فاستخلف حمير بن نعيم الحضري بمصر ثم قدم ورفض ولايتها، فولى مكانه حفص بن الوليد لستة عشر يوماً من ولايته.

وبقي حفص شهرين، ثم ولى مروان الحوثرة بن سهل بن العجلان الباهلي في محرم سنة ثمان وعشرين ومائة ثم صرف عنها في رجب سنة إحدى وثلاثين ومائة، وولي المغيرة بن عبد الله بن مسعود الفزاري، ثم مات في جمادى سنة ست وثلاثين، واستخلف ابنه الوليد.

وولى مروان بن عبد الملك موسى بن نصير فأمر باتخاذ المنابر في الكور، وإنما كانوا يخطبون على العصي.

ثم قدم مروان بن محمد إلى مصر، وكان فيها مهلكه كما هو معروف.

ثم جاءت الدولة العباسية فولى السفاح على مصر عمه صالح بن علي سنة أربع وثلاثين ومائة، وبقيت في ولايته يستخلف عليها، فاستخلف أولاً محصن بن فاني الكندي ثمانية أشهر.

ثم أبا عون عبد الملك بن يزيد مولى مناه ثمانية أشهر.

وولى داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة في محرم سنة أربع وسبعين، ثم عزله في محرم سنة خمس وسبعين لسنة من ولايته، وأعاد إليها موسى بن عيسى، ثم صرفه في ربيع سنة ست وسبعين وولى ابن عمه إبراهيم بن صالح وتوفي لثلاثة أشهر من ولايته، وقام بالأمر بعده ابنه صالح فولى الرشيد عبد الله بن المسيب بن زهير الضبي في رمضان سنة ستة وسبعين ومائة، ثم عزله بعد الحول، وولى هرثمة بن أعين، ثم أمره بالمسير إلى إفريقية لثلاثة أشهر من ولايته سلخ ثمان وسبعين ومائة، وولى أخاه عبيد الله بن المسيب.

ثم أعاد موسى بن عيسى في رمضان سنة تسع وسبعين ومائة فاستخلف ابنه يحيى.

ثم صرف موسى في منتصف سنة ثمانين لعشرة أشهر من ولايته، وأعيد عبيد الله بن المهدي.

ثم صرفه في رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة وأعيد إسماعيل بن صالح بن علي من العمومة فاستخلف، ثم صرف في منتصف اثنتين وثمانين ومائة وأعيد لعشرة أشهر من ولايته.

وولي الليث بن الفضل من أهل أسبورد فوليها أربع سنين ونصفاً وعزل.

ثم ولى الرشيد من قرابته أحمد بن إسماعيل بن علي منتصف سبع وثمانين ومائة فبقي عليها سنتين وشهرين.

ثم ولى مكانه عبد الله بن محمد بن الإمام إبراهيم بن محمد ويعرف بابن زينب، وصرفه عنها آخر شعبان من سنة تسعين ومائة لسنة وشهرين من ولايته.

وولى حاتم بن هرثمة بن أعين، فقدم في شوال سنة أربع وتسعين ومائة، ثم صرفه الأمير منتصف خمس وتسعين ومائة لسنة وثلاثة أشهر من ولايته، وولى جابر بن الأشعث بن يحيى بن النعمان الطائي منتصف خمس وتسعين ومائة فأخرجه الجند منها سنة وست وتسعين ومائة لسنة من ولايته.

ثم ولى المأمون عليها عباد بن محمد بن حيان البلخي مولى كندة، ويكنى أبا نصر.

ثم عزله لسنة ونصف من ولايته في صفر سنة ثمان وتسعين ومائة، وولى المطلب بن عبد اللّه بن مالك بن الهيثم الخزاعي، وقدمها من مكة في منتصف ربيع الأول.

ثم صرفه في شوال لثمانية أشهر من ولايته، وولى من عمومته العباس بن موسى بن عيسى فبعث عليها ابنه عبد اللّه، ومعه الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي اللّه تعالى عنه، فأقام عليها شهرين ونصفاً، فقتله الجند يوم النحر سنة ثمان وتسعين ومائة، وولوا عليهم المطلب بن عبد اللّه.

ثم جرت بينه وبين السدي وبين الحكم بن يوسف مولى بني ضبة من أهل بلخ من قوم يقال لهم الزط، وجرت بينه وبين أهل المطلب حروب، وخرج هارباً إلى مكة بعد سنة وثمانية أشهر من ولايتها ووليها السري بإجماع الجند في رمضان سنة مائتين.

ثم وثب به الجند بعد ستة أشهر وولوا سليمان بن غالب بن جبريل بن يحيى بن قرة العجلي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة ومائتين.

وولي عبد اللّه بن طاهر بن الحسين مولى خزاعة فأقام عشرة.

ثم ولى المأمون عليها أخاه أبا إسحاق الملقب في خلافته بالمعتصم، فأقر عيسى الجلودي، وبعده عمير بن الوليد التميمي في صفر سنة أربع عشرة ومائتين ثم قتل بعد شهرين، واستخلف ابنه محمد بن عمير شهراً، ثم أعاد عيسى الجلودي.

ثم جاء أبو إسحاق المعتصم إلى الفسطاط، وعاد إلى الشام، واستخلف عبدويه بن جبلة في المحرم فاتح خمس عشرة فأقام سنة، وولي عيسى بن منصور بن موسى الخراساني الرافعي مولى بني نصر بن معاوية.

ثم قدم المأمون مصر لسنة من ولايته، فسخط على عيسى بن منصور، وعمر المقياس وجسراً آخر بالفسطاط، وولي كندر بن عبد اللّه بن نصر الصفدى، ويكنى أبا مالك، ورجع إلى العراق ومات كندر في ربيع سنة تسع عشرة ومائتين، واستخلف ابنه المظفر.

ولما صارت الخلافة للمعتصم ولى على مصر مولاه أشناس، ويكنى أبا جعفر في رجب سنة ثمان عشرة، فاستخلف عليها موسى بن أبي العباس ثابت من بني حنيفة من أهل الشاش في رمضان سنة تسع عشرة ومائتين، واستخلف ابنه المظفر فأقام مستلخفاً لأشناس أربع سنين ونصفاً.

ثم عزله بعد سنتين، واستخلف مالك بن كيد بن عبد اللّه الصفدي، فقدم في ربيع سنة أربع وعشرين ومائتين ثم عزله بعد سنتين واستخلف علي بن يحيى الأرمني، وقدم في ربيع سنة ست وعشرين ومائة.

ثم عزله بعد سنتين وثمانية أشهر، واستخلف عيسى بن منصور الذي كان مستخلفاً للمعتصم أيام المأمون، وسخطه المأمون عند قدومه مصر فقدم عيسى في محرم سنة تسع وعشرين ومائتين.

ثم مات أشناس بعد الثلاثين، وقد استخلف على مصر إتياخ مولى المعتصم وأقيم إتياخ مكان أشناس فأقر الواثق إتياخ على مصر، فأقر إتياخ عيسى بن منصور في ربيع سنة ست وثلاثين ومائتين فبقي أربعة أشهر.

ثم استخلف إتياخ هرثمة بن النضر الجبلي فقدم منتصف سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، وأقام سنة، ثم مات سنة أربع وثلاثين ومائتين، وقام بأمره ابنه حاتم رضي اللّه تعالى عنه، فاستخلف إتياخ علي بني يحيى الأرمني في رمضان سنة أربع وثلاثين ومائتين.

ثم صرف إتياخ عن ولاية مصر في محرم سنة خمس وثلاثين ومائتين بعد وفاة المعتصم.

وولى المتوكل على مصر ابنه المستنصر فاستخلف عليها إسحاق بن يحيى بن معاذ الختلي، وقدم في ذي القعدة من سنته، وفي أيامه أخرج ولد علي من مصر إلى العراق، ثم صرف في ذي القعدة من سنة ست وثلاثين ومائتين، واستخلف المستنصر عليها عبد الرحمن بن يحيى بن منصور بن طلحة وريق، وهو ابن عم طاهر بن الحسين، وقدم في ذي القعدة سنة ست وثلاثين ومائتين.

ثم صرفه واستخلف عنبسة بن إسحاق بن عبس بن عبسة من أهل هراة.

ويكنى أبا حاتم في صفر سنة ثمان وثلاثين ومائتين.

وفي ولايته كبس الروم دمياط يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين ومائتين، واستخلف يزيد بن عبد اللّه بن دينار من مواليهم، ويكنى أبا خالد، وفي أيامه منع العلويون من ركوب

الخيل واقتناء العبيد.

ثم ولي المستنصر الخلافة في شوال سنة سبع وأربعين ومائتين فأقر يزيد على ولاية مصر، ثم صرف عنها في ربيع سنة ثلاث وخمسين لعشر سنين من ولايته.

وولى المعتز مكانه مزاحم بن خاقان ابن عزطوج التركي في ربيع سنة أربع وخمسين، وعهد إلى أزجور بن أولغ طرخان التركي فأقام خمسة أشهر وخرج حاجاً في رمضان سنة أربع وخمسين.

وولي أحمد بن طولون، واستفحل بها أمره، وكانت له ولبنيه بها دولة كما نذكر الآن أخبارها.

الخبر عن دولة أحمد بن طولون بمصر وبنيه ومواليه بني طغج وابتداء أمرهم وتصاريف أحوالهم

قال ابن سعيد -ونقله من كتاب ابن الداية في أخبار بني طولون-: كان طولون أبو أحمد من الطغز، غزوهم التتر.

حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون في وظيفته من المال والرقيق والبراذين، وولد له أحمد سنة عشرين ومائتين من جارية اسمها ناسم.

وتوفي طولون سنة أربعين ومائتين، وكفله رفقاء أبيه بدار الملك حتى ثبتت مرتبته، وتصرف في خدمة السلطان، وانتشر له ذكر عند الأولياء فاق به على أهل طبقته، وشاع بين الترك صونه ودينه وأمانته على الأسرار والأموال والفروج.

وكان يستصغر عقول الأتراك، ويرى أنهم ليسوا بأهل للرتب، وكان يحب الجهاد.

وطلب من محمد بن أحمد بن خاقان أن يسأل من عبد الله الوزير أن يكتب لهما بأرزاقهما إلى الثغر، ويقيما هنالك مجاهدين.

وسار إلى طرسوس، وأعجبه ما عليه أهل الحق من تغيير المنكر وإقامة الحق فأنس، وعكف على طلب الحديث.

ثم رجع إلى بغداد وقد امتلأ علماً وديناً وسياسة.

ولما تنكر الأتراك للمستعين وبايعوا المعتز، وآل أمر المستعين إلى الخلع والتغريب إلى واسط، وكلوا به أحمد بن طولون فأحسن عشرته، ووسع عليه، وألزمه أحمد بن محمد الواسطي يومه، وكان حسن العشرة فكه المجالسة.

ولما اعتزموا على قتله بعثوا إلى أحمد بن طولون أن يمضي ذلك فتفادى منه، فبعثوا سعيداً الحاجب فسمله، ثم قتله، ودفنه ابن طولون وعظم محله بذلك عند أهل الدولة، انتهى كلام ابن سعيد.

وقال ابن عبد الظاهر: وقفت على سيرة للأخشيد قديمة عليها خط الفرغاني وفيها: أن أحمد هو ابن النج من الأتراك، كان طولون صديق أبيه ومن طبقته.

فلما مات النج رباه طولون وكفله، فلما بلغ من الحداثة مشى مع الحشوية وغزا، وتنقلت به الأحوال إلى أن صار معدوداً في الثقات، وولي مصر واستقر بها.

قال صدر الدين بن عبد الظاهر: ولم أر ذلك لغيره من المؤرخين انتهى.

ولما وقع اضطراب الترك ببغداد وقتل المستعين وولي المعتز واستبد عليه الأتراك وزعيمهم يومئذ باك ووالاه المعتز مصر، ونظر فيمن يستخلفه عليها، فوقع اختياره على أحمد بن طولون فبعثه عليها، وسار معه أحمد بن محمد الواسطي، ويعقوب بن إسحاق، ودخلها في رمضان سنة أربع وخمسين ومائتين وعلى الخوارج بها أحمد بن المدبر، وعلى البريد سفير مولى قبيحة فأهدى له ابن المدبر، ثم استوحش منه، وكاتب المعتز بأن ابن طولون يروم العصيان وكاتب صاحب البريد بمثل ذلك، فسطا بسفير صاحب البريد ومات من غده.

ثم قتل المعتز وولي المهتدي فقتل باك، ورتب مكانه يارجوج، ووالاه مصر.

وكانت بينه وبين أحمد بن طولون مودة أكيدة، فاستخلفه على مصر، وأطلق يده على الإسكندرية والصعيد بعد أن كان مقتصراً على مصر فقط، وجعل إليه الخراج فسقطت رتبة ابن المدبر.

ثم أعاده المعتمد فلم ينهض إلى مساماة ابن طولون ولا منازعته.

ثم كتب إليه المعتمد بضبط عيسى بن شيخ الشيباني، وكان يتقلد فلسطين والأردن، وتغلب على دمشق، وطمع في مصر ومنع الحمل، واعترض حمل ابن المدبر، وكان خمسة وسبعين حملاً من الذهب فأخذها، فكتب إليه المعتمد يومئذ بولاية أعماله فادعى العجز، وأنكر مال الحمل ونزع السواد، وأنفذ أناجور من الحضرة في العساكر إلى دمشق سنة سبع وخمسين.

ثم خرج أحمد بن طولون إلى الإسكندرية ومعه أخوه موسى وكان يتجنى عليه، ويرى أنه لم يوف بحقه، وظهر ذلك منه

في خطابه فأوقع بـه ونفاه، وحبس كاتبه إسحاق بن يعقوب، واتهمه بأنه أفضى بسره إلى أخيه.

وخرج أخوه حاجاً، وسار من هنالك إلى العراق، ووصف أخاه بالجميل فحظي بذلك عند الموفق.

واستفحل أمر أحمد واستكثر من الجند وخافه أناجور بالشام.

وكتب الموفق يغريه بشأنه وأنه يخشى على الشام منه.

ثم كتب الموفق إلى ابن طولون بالشخوص إلى العراق لتدبير أمر السلطان، وأن يستخلف على مصر فشعر ابن طولون بالمكيدة في ذلك، فبعث كاتبه أحمد بن محمد الواسطي إلى يارجوج وإلى الوزير، وحمل إليهما الأموال والهدايا.

وكان يارجوج متمكناً في الدولة فسعى في أمره، وأعفاه من الشخوص وأطلق ولده وحرمه، واشتدت وطأة ابن طولون وخافه أحمد بن المدبر، فكتب إلى أخيه إبراهيم أن يتلطف له في الانصراف عن مصر فورد الكتاب بتقليده خراج دمشق وفلسطين والأردن، وصانع ابن طولون بضياعه التي ملكها، وسار إلى عمله بمصر وشيعه ابن طولون ورضي عنه وذلك سنة ثمان وخمسين ومائتين وولي الوزير على الخراج من قبله، وتقدم لابن طولون باستحثاثه، فتتابع حمل الأموال إلى المعتمد.

ثم كتب ابن طولون بأن تكون جباية الخراج له فأسعف بذلك، وأنفذ المعتمد نفيساً الخادم بتقليده خراج مصر وضريبتها، وخراج الشام.

وبعث إليه نفيس الخادم ومعه صالح بن أحمد بن حنبل قاضي الثغور، ومحمد بن أحمد الجزوعي قاضي واسط شاهدين بإعفائه ما زاد على الرسم من المال والطراز.

ومات يارجوج في رمضان سنة تسع وخمسين وكان صاحب مصر، ومن أقطاعه، ويدعى له قبل ابن طولون، فلما مات استقل أحمد بمصر.

فتنة ابن طولون مع الموفق

لما استأمن الزنج وتغلبوا على نواحي البصرة، وهزموا العساكر بعث المعتمد إلى الموفق، وكان المهتدي نفاه إلى مكة، فعهد له المعتمد بعد ابنه المفوض، وقسم ممالك الإسلام بينهما، وجعل الشرق للموفق ودفعه لحرب الزنج، وجعل الغرب للمفوض، واستخلف عليه موسى بن بغا، واستكتب موسى بن عبيد الله بن سليمان بن وهب، وأودع كتاب عهدهما في الكعبة.

وسار الموفق لحرب الزنج، واضطرب الشرق، وقعد الولاة عن الحمل، وشكا الموفق الحاجة إلى المال.

وكان ابن طولون يبعث الأموال إلى المعتمد يصطنعه بذلك، فأنفذ الموفق لمحرباً خادم المتوكل إلى أحمد بن طولون يستحثه لحمل الأموال والطراز والرقيق والخيل، ودس إليه أن يعتقله واطلع على الكتب، وقتل بعض القواد وعاتب آخرين وبعث مع لمحرب ألفي ألف ومائتي ألف دينار ورقيقاً وطرزاً، وجمع الرسم وبعث معه من أسلمه إلى الثقة أناجور صاحب الشام.

ولما فعل ابن طولون بنحرير ما فعل، كتب الموفق إلى موسى بن بغا بصرف أحمد بن طولون عن مصر وتقليدها أناجور.

فكتب إلى أناجور بتقليدها فعجز عن مناهضة أحمد، فسار موسى بن بغا ليسلم إليه مصر، وبلغ الرقة واستحث أحمد في الأموال، فتهيأ أحمد لحربه، وحصن الجزيرة معقلاً لحربه وذخيرته.

وأقام موسى بالرقة عشرة أشهر، واضطرب عليه الجند وشغبوا وطالبوه بالأرزاق واختفى كاتبه موسى بن عبيد الله بن وهب، فرجع وتوفي سنة أربع وستين ومائتين ثم كتب الموفق إلى ابن طولون باستقلال ما حمله من المال، وعنفه وهدده فأساء ابن طولون جوابه، وأن العمل لجعفر بن المعتمد ليس لك فاحفظ ذلك الموفق، وسأل من المعتمد أن يولي على الثغور من يحفظها، وأن ابن طولون لا يؤمن عليها لقلة اهتمامه بأمرها، فبعث محمد بن هارون التغلبي عامل الموصل، وركب السفن فألقته الريح بشاطئ دجلة، فقتله الخوارج أصحاب مساو الساري.

ولاية أحمد بن طولون على الثغور

وكانت أمهات الثغور يومئذ أنطاكية وطرسوس والمصيصة وملطية، وكان على أنطاكية محمد بن علي بن يحيى الأرمني، وعلى طرسوس سيما الطويل وإليه أمر الثغور.

وجاء في بعض أيامه إلى أنطاكية فمنعه الأرمني من الدخول فدس إلى أهل البلد بقتله فقتلوه، وأحفظ ذلك الموفق فولى على الثغور أرجون بن أولغ طرخان التركي، وأمره بالقبض على سيما الطويل فقام بالثغور، وأساء التصرف، وحبس الأرزاق عن أهلها.

وكانت قلعة لؤلؤة من قلاع طرسوس في لمحر العدو، وأهم أهل طرسوس أمرها، فبعثوا إلى حاميتها خمسة آلاف دينار رزقاً من عندهم، فأخذها أرجون لنفسه، وضاعت حاميتها وافترقوا.

وكتب الموفق إلى أحمد بن طولون بتقليد الثغور، وأن يبعث عليها من قبله فبعث من قبله طحشي بن بكروان، وحسنت حالهم وطلب منه ملك الروم الهدنة، واستأذن في ذلك ابن طولون فمنعه، وقال: إنما حملهم على ذلك تحريبكم لقلاعهم وحصونهم فيكون في الصلح راحة لهم فحاش لله منه، وأمره برم الثغور وأرزاق الغزاة.

استيلاء أحمد بن طولون على الشام

قد تقدم لنا ولاية أناجور على دمشق سنة سبع وخمسين ومائتين وما وقع بينه وبين أحمد بن طولون.

ثم توفي أناجور في شعبان سنة أربع وستين ومائتين ونصب ابنه علي مكانه، وقام يدبر أمره أحمد بن بغا وعبيد اللّه بن يحيى بن وهب.

وسار إلى الشام موريا بمشارفة الثغور، واستخلف ابنه العباس على مصر، وضم إليه أحمد بن محمد الواسطي، وعسكر في مينة الإصبع، وكتب إلى علي بن أناجور بإقامة الميرة للعساكر فأجاب الآمال.

وسار ابن طولون إلى الرملة، وبها محمد بن أبي رافع من قبل أناجور، ومدبر دولته أحمد بن هنالك منذ نفاه المهتدي فأكرمه.

ثم سار عن دمشق، واستخلف عليها أحمد بن دوغياش، ورحل إلى حمص وبها أكبر قواد أناجور فشكت الرعية منه فعزله، وولى يمنا التركي.

ثم سار إلى أنطاكية وقد امتنع بها سيما الطويل بعد أن كتب بالطاعة، وأن ينصرف عنه فأبى وحاصرها وشد حصارها.

وضجر أهلها من سيما فداخل بعضهم أحمد بن طولون ودلوه على بعض المسارب فدخلها منه في فاتحة خمس وستين وقتل سيما الطويل وقبض على أمرائه وكاتبه.

ثم سار إلى طرسوس فملكها، ودخلها في خلق كثير، وشرع في الدخول إلى بلاد الروم للغزو.

وبينما هو يروم ذلك جاءه الخبر بانتقاض ابنه العباس الذي استخلفه بمصر فرجع، وبعث عسكراً إلى الرقة وعسكراً إلى حران، وكانت لمحمد بن أناشر فأخرجوه عنها وهزموه.

وبلغ الخبر إلى أخيه موسى، فسار إلى حران وكان شجاعاً.

وكان مقدم العسكر بحران ابن جيعونه فأهمه أمرهم، فقال له أبو الأغر من العرب: أنا آتيك بموسى واختار عشرين فارساً من الشجعان وسار إلى معسكر موسى فأكمن بعضهم ودخل بالباقين بعض الخيام فعقدت، واهتاج العسكر، وهرب أبو الأغر واتبعوه فخرج عليهم الكمين فهزموهم وأسر موسى، وجاء به أبو الأغر إلى ابن جيعونة قائد ابن طولون فاعتقله وعاد إلى مصر سنة ست وستين ومائتين.

الخبر عن انتقاض العباس بن أحمد بن طولون على أبيه

لما رحل أحمد بن طولون إلى الشام واستخلف ابنه العباس، وكان أحمد بن الواسطي محكماً في الدولة.

وكان للعباس بطانة يدارسونه الأدب والنحو، وأراد أن يولي بعضهم الوظائف، ولم يكونوا يصلحون لها، فمنع الواسطي من ذلك خشية الخلل في الأعمال، فحمل هؤلاء البطانة عليه عند العباس وأغروه به، وكتب هو إلى أحمد يشكوهم فأجابه بمداراة الأمور إلى حين وصوله.

وكان محمد بن رجاء كاتب أحمد مداخلاً لابنه العباس فكان يبعث إليه بكتب الواسطي يتنزل له، فاطلع على جواب أبيه عن كتبه بالمداراة، فازداد خوفاً وحمل ما كان هنالك من المال والسلاح، وهو ألف ألف دينار.

وتسلف من التجار مائتي ألف أخرى، واحتمل أحمد بن محمد الواسطي وأيمن الأسود مقيدين، وسار إلى برقة.

ورجع أحمد إلى مصر وبعث له جماعة فيهم القاضي أبو بكرة بكار بن قتيبة والصابوني القاضي وزياد المري مولى أشهب، فتلطفوا به بالموعظة حتى لان، ثم منعه بطانته وخوفوه فقال لبكار: ناشدتك اللّه هل تأمنه علي؟ فقال: هو قد حلف، وأنا لا أعلم فمضى على ريبته.

ورجع القوم إلى أبيه وسار هو إلى إفريقية يطلب ملكها، وسهل عليه أصحابه أمر إبراهيم بن أحمد بن الأغلب صاحبها، وكتب إليه بأن المعتمد قلده إفريقية، وأنه أقره عليها.

وانتهى إلى المدينة لبلة، فخرج عليه عامل ابن الأغلب فقبض عليه، ونهب البلد وقتل أهله، وفضح نساءهم فاستغاثوا بالياس بن منصور كبير نفوسة ورئيس الأباضية، وقد كان خاطبه يتهدده على الطاعة.

وبلغ الخبر إلى ابن الأغلب فبعث العساكر مع خادمه بلاغ، وكتب إلى محمد بن قهرب عامل طرابلس بأن يظاهر معه على

قتال العباس فسار ابن قهرب وناوشه القتال من غير مسارعة.

ثم صحبهم الياس في اثني عشر ألفاً من قومه.

وجاء بلاغ الخادم من خلفه فأجفل، واستبيح أمواله وذخائره، وقتل أكثر من كان معه، وأفلت بحاشيته، وانطلق أيمن الأسود من القيد ورجع إلى مصر.

وجاء العباس إلى برقة مهزوماً وكان قد أطلق أحمد الواسطي بعد أن ضمن حزب برقة إحضاره، فلما رجع أعاده إلى محبسه فهرب من الحبس، ولحق بالفسطاط ووجد أحمد بن طولون قد سار إلى الإسكندرية عازماً على الرحيل إلى برقة، فهون أمره، ومنعه من الرحيل بنفسه، وخرج طبارجي وأحمد الواسطي فجاؤوا به مقيداً على بغل، وذلك سنة سبع وستين ومائتين وقبض على كاتبه محمد بن رجاء وحبسه لما كان يطلع ابنه العباس على كتبه، ثم ضرب ابنه وهو باك عليه وحبسه.

خروج الصوفي والعمري بمصر

كان أبو عبد الرحمن العمري بمصر، وهو عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر، مقيماً بالقاصية من الصعيد، وكان البجاة يغيرون في تلك الأعمال ويعيثون فيها.

وجاؤوا يوم عيد فنهبوا وقتلوا، فخرج هذا العمري غضباً لله، وأكمن لهم في طريقهم ففتك بهم، وسار في بلادهم حتى أعطوه الجزية، واشتدت شوكته.

وزحف العلوي للقائه فهزمه العمري، وذلك سنة ستين ومائتين.

وكان من خبر هذا العلوي أنه ظهر بالصعيد سنة سبع وخمسين ومائتين وذكر أن اسمه إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب، ويعرف بالصوفي، فملك مدينة أسنا ونهبها، وعاث في تلك الناحية.

وبعث إليه ابن طولون جيشاً فهزمهم، وأسر مقدم الجيش فقطعه فأعاد إليه جيشاً آخر، وانهزم إلى الواحات.

ثم عاد إلى الصعيد سنة تسع وخمسين ومائتين وسار إلى الأشمونين.

ثم سار للقاء العمري وانهزم إلى أسوان، وعاث في جهاتها.

وبعث إليه ابن طولون العسكر فهرب إلى عيذاب، وعبر البحر إلى مكة فقبض عليه الوالي بمكة، وبعث به إلى ابن طولون فحبسه مدة، ثم أطلقه ومات بالمدينة.

ثم بعث ابن طولون العسكر إلى العمري فلقي قائدهم وقال: إني لم أخرج بالفساد ولا يؤذى مسلم ولا ذمي وإنما خرجت للجهاد فشاور أميرك فيّ فأبى، وناجزه الحرب فانهزم العسكر، ورجعوا إلى ابن طولون فأخبروه بشأنه فقال: هلا كنتم شاورتموني فيه؟ فقد نصره الله عليكم ببغيكم.

ثم وثب عليه بعد مدة غلامان له فقتلاه وجاءا برأسه إلى أحمد بن طولون فقتلهما.

انتفاض برقة

وفي سنة إحدى وستين ومائتين وثب أهل برقة بعاملهم محمد بن فرج الفرغاني فأخرجوه، ونقضوا طاعة ابن طولون فبعث إليهم العساكر مع غلامه لؤلؤ، وأمره بالملاينة فحاصرهم أياماً وهو يلين لهم حتى طمعوا فيه، ونالوا من عسكره فبعث إلى أحمد يخبره فأمره بالاشتداد فشد حصارهم، ونصب عليهم المجانيق فاستأمنوا، ودخل البلد وقبض على جماعة من أعيانهم فضربهم وقطعهم، ورجع إلى مصر واستعمل عليهم مولى من مواليه، وذلك قبل خلاف العباس على أبيه.

انتقاض لؤلؤ على ابن طولون

كان ابن طولون قد ولى مولاه لؤلؤاً على حلب وحمص وقنسرين وديار مضر من الجزيرة، وأنزله الرقة، وكان يتصرف عن أمره.

ومتى وقع في مخالفته عاقب ابن سليمان كاتب لؤلؤ فسقط لؤلؤ في المال، وقطع الحمل عن أحمد بن طولون.

وخاف الكاتب مغبة ذلك، فحمل لؤلؤاً على الخلاف، وأرسل إلى الموفق بعد أن شرط على المعتمد شروطاً أجابه الموفق إليها، وسار إلى الرقة وبها ابن صفوان العقيلي، فحاربه وملكها منه وسلمها إلى أحمد بن مالك بن طوق.

وسار إلى الموفق فوصل إليه بمكانه من حصار صاحب الزنج وأقبل عليه، واستعان به في تلك الحروب، وولاه على الموصل.

ثم قبض عليه سنة ثلاث وسبعين ومائتين وصادره على أربعمائة ألف دينار فافتقر وعاد إلى مصر آخر أيام هارون بن خمارويه فقيراً فريداً.

مسير المعتمد إلى ابن طولون وعوده عنه من الشام

كان ابن طولون يداخل المعتمد في السر ويكاتبه، ويشكو إليه المعتمد ما هو فيه من الحجر والتضييق عليه من أخيه الموفق، والموفق بسبب ذلك ينافر ابن طولون ويسعى في إزالته عن مصر.

ولما وقع خلاف إلى لؤلؤ على ابن طولون خاطب المعتمد وخوفه الموفق واستدعاه إلى مصر، وأن الجيوش عنده لقتال الفرنج.

فأجابه المعتمد إلى ذلك، وأراد لقاءه بجميع عساكره فمنعه أهل الرأي من أصحابه، وأشاروا عليه بالعدول عن المعتمد جملة، وأن أمره يؤول معه إلى أكثر من أمر الموفق، من أجل بطانته التي يؤثرها على كل أحد.

واتصلت الأخبار بأن الموفق شارف القبض على صاحب الزنج، فبعث ابن طولون بعض عساكره إلى الرقة لانتظار المعتمد، واغتنم المعتمد غيبة الموفق وسار في جمادى، سنة ثمان وستين ومائتين ومعه جماعة من قواده الذين معه فقبض عليهم وقيدهم.

وقد كان ساعد بن مخلد وزير الموفق خاطبه في ذلك عن الموفق فأظهر طاعتهم حين صاروا إلى عمله، وسار معهم إلى أول عمل أحمد بن طولون فلم يرحل معهم حين رحلوا.

ثم جلس معهم بين يدي المعتمد وعذلهم في المسير إلى ابن طولون ودخلوهم تحت حكمه وحجره.

ثم قام بهم عند المعتمد لينا ظرهم في خلوة فلما دخلوا خيمته قبض عليهم.

ثم رجع إلى المعتمد فعذله في الخروج عن دار خلافته، وفراق أخيه وهو في قتال عدوه، ثم رجع بالمعتمد والذين معه حتى أدخلهم سر من رأى.

وبلغ الخبر إلى ابن طولون فقطع خطبة الموفق ومحا اسمه من الطرز، فتقدم الموفق إلى المعتمد بلعن ابن طولون في دار العامة، فأمر بلعنه على المنابر وعزله عن مصر وفوض إليه من باب الشاتية إلى إفريقية، وبعث إلى مكة بلعنه في المواسم فوقعت بين أصحاب ابن طولون وعامل مكة حرب، ووصل عسكر الموفق مع جعفر الباعردي، فانهزم فيها أصحاب ابن طولون وسلبوا وأمر جعفر المصريين وقرأوا الكتاب في المسجد بلعن ابن طولون.

اضطراب الثغور ووصول أحمد بن طولون إليها ووفاته

كان عامل أحمد بن طولون على الثغور طلخشي بن بلذدان، واسمه خلف، وكان نازلا بطرسوس.

وكان مازيار، الخادم مولى فتح بن خاقان معه بطرسوس وارتاب به طلخشي فحبسه فوثب جماعة من أهل طرسوس، واستقدموا مازيار من يده وولوه.

وهرب خلف وتركوا الدعاء لابن طولون فسار ابن طولون من مصر وانتهى إلى أذنة، وكاتب مازيار واستماله فامتنع، واعتصم بطرسوس فرجع ابن طولون إلى حمص ثم إلى دمشق فأقام بها.

ثم رجع وحاصره في فصل الشتاء بعد أن بعث إليه يدعوه وانساح على معسكر أحمد وخيمه، وكادوا يهلكون، فتأخر ابن طولون إلى أذنة، وخرج أهل طرسوس فنهبوا العسكر، وطال مقام أحمد بأذنة في طلب البرد.

ثم ثار إلى المصيصة فأقام بها ومرض هناك.

ثم تماسك إلى أنطاكية فاشتد وجعه ونهاه الطبيب عن كثرة الغذاء فتناوله سراً، فكثر عليه الاختلاف، لأن أصل علته هيضة من لبن الجواميس.

وثقل عليه الركوب فحملوه على العجلة فبلغ الفرمار، وركب من ساحل الفسطاط إلى داره، وحضره طبيبه فسهل عليه الأمر وأشار بالحمية فلم يداوم عليها وكثر الإسهال وحميت كبده من سوء الفكر فساءت أفعاله.

وضرب بكار بن قتيبة القاضي، وأقامه للناس في الميدان، وخرق سواده وأوقع بابن هرثمة وأخذ ماله وحبسه، وقتل سعيد بن نوفل مضروباً بالسياط.

ثم جمع أولياءه وغلمانه وعهد إلى ابنه أبي الجيش خمارويه.

وأوصاهم بإنظاره وحسن النظر فسكنوا إلى ذلك لخوفهم من ابنه أبي العباس المعتقل.

ثم مات سنة ست وسبعين ومائتين لست وعشرين سنة من إمارته، وكان حازماً سائساً وبنى جامعه بمصر وأنفق فيه مائة وعشرين ألف دينار، وبنى قلعة يافا، وكان يميل إلى مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه.

وخلف من المال عشرة آلاف إلى ألف دينار، ومن الموالي

سبعة آلاف، ومن الغلمان أربعة آلاف، ومن الخيل المرتبطة مائة، ومن الدواب لركابه مائتين وثلاثين.

وكان خراج مصر لأيامه مع ما ينضاف إليها من ضياع الأمراء لحضرة السلطان أربعة آلاف إلى ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار، وعلى المارستان وأوقافه ستين ألف دينار، وعلى حصن الجزيرة والجزيرة وهي المسماة لهذا العهد بقلعة الروضة ثمانين ألف دينار، وخربت بعد موته وجددها الصالح نجم الدين بن أيوب.

ثم خربت ثانية، ولم يبق منها إلا أطلال دائرة، وكان يتصدق في كل شهر بألف دينار، ويجري على المسجونين خمسمائة دينار في كل شهر، وكانت نفقة مطابخه وعلوفته ألف دينار في كل يوم.

ولاية خمارويه بن أحمد بن طولون

ولما توفي أحمد بن طولون اجتمع أهل الدولة وخواص الأولياء وكبيرهم أحمد بن محمد الواسطي والغالب على الدولة الحسن بن مهاجر، فاتفقوا على بيعة ابنه أبي الجيش خمارويه، وأحضروا ابنه العباس من محبسه وعزاه الواسطي وهم يبكون.

ثم قال: بايع لأخيك فأبى، فقام طبارجي وسعد الآيس من الموالي، وسحبوه إلى حجرة في القصر فاعتقلوه بها، وأخرج من الغد ميتاً، وأخرجوا أحمد إلى مدفنه وصلى عليه ابنه أبو الجيش، ووراه ورجع إلى القصر مقيماً لأمر سلطانه.

مسير خمارويه إلى الشام وواقعته مع ابن الموفق

ولما توفي أحمد بن طولون كان إسحاق بن كنداج عاملاً على الجزيرة والموصل، وابن أبي الساج على الكوفة، وقد ملك الرحبة من يد أحمد بن مالك فطمعا في ملك الشام، واستأذنا الموفق فأذن لهما ووعدهما بالمدد.

وسار إسحاق إلى الرقة والثغور والعواصم فملكها من يد ابن دعاس عامل ابن طولون.

واستولى إسحاق على حمص وحلب وأنطاكية، ثم على دمشق.

وبعث خمارويه العساكر إلى الشام فملكوا دمشق وهرب العامل الذي انتقض بها.

ثم سار العسكر إلى شيزر فأقام عليها قبالة إسحاق وابن أبي الساج، وهما ينتظران المدد من العراق.

ثم هجم الشتاء فتفرق عسكر خمارويه في دور شيزر ووصل العسكر من العراق مع أبي العباس أحمد بن الموفق الذي صارت إليه الخلافة ولقب المعتضد فكبسوا عسكر خمارويه في دور شيزر وفتكوا فيهم.

ونجا الفل إلى دمشق والمعتضد في اتباعهم فارتحلوا عنها، وملكها المعتضد في شعبان سنة إحدى وسبعين ومائتين.

ولحق عسكر خمارويه بالرملة فأقاموا بها وكتبوا إلى خمارويه بالخبر، وسار المعتضد نحوهم من دمشق، وبلغه وصول خمارويه وكثرة عساكره، فهم بالعود ومعه أصحاب خمارويه الذين خالفوا عليه، ولحقوا به وكان ابن كنداج وابن أبي الساج متوحشين من المعتضد لسوء معاملته لهما.

والتقى العسكران على الماء الذي عليه الطواحين بالرملة، فولى خمارويه منهزماً مع عصابة معه ليس لهم دربة بالحرب، ومضى إلى مصر بعد أن أكمن مولاه سعداً الآيس في عسكر.

وجاء المعتضد فملك خيام خمارويه وسواده وهو يظن الظفر، فخرج سعد الآيس من كمينه وقصد الخيام وظن المعتضد أن خمارويه قد رجع فركب وانهزم لا يلوي على شيء.

وجاء إلى دمشق فمنعوه الدخول فمضى إلى طرسوس، ولما افتقد سعد الآيس خمارويه نصب أخاه أبا العشائر لقيادة العساكر، ووضع العطاء، ووصلت البشائر إلى مصر فسر خمارويه بالظفر، وخجل من الهزيمة، وأكثر الصدقة وأكرم الأسرى وأطلقهم.

وسارت عساكره إلى الشام فارتجعوه كله من أصحابه فأخرجوهم، ولحقوا بالعراق وغزا بالصائفة هذه السنة مازيار صاحب الثغر، وغنم وعاد، ثم غزا كذلك سنة ثلاث وسبعين ومائتين.

فتنة ابن كنداج وابن أبي الساج والخطبة لابن طولون بالجزيرة

كان ابن أبي الساج عاملاً على قنسرين وإسحاق على الجزيرة والموصل فتنافسوا في الأعمال واستظهر ابن أبي الساج بخمارويه، وخطب له بأعماله، وبعث ابنه رهينة إليه، فسار في عساكره بعد أن بعث إليه الأموال وانتهى إلى السن، وعبر ابن أبي

الساج الفرات ولقي إسحاق بن كنداج على الرقة فهزمه، وجاز خمارويه من بعده فعبر الفرات إلى الرافقية، ونجا إسحاق إلى ماردين، وحصره ابن أبي الساج.

ثم خرج وسار إلى الموصل فصده ابن أبي الساج عنها، وهزمه فعاد إلى ماردين.

واستولى ابن أبي الساج على الجزيرة والموصل، وخطب في أعمالها لخمارويه، ثم لنفسه بعده.

وبعث العساكر مع غلامه فتح لجباية نواحي الموصل فأوقع بالشراة اليعقوبية ومكر بهم.

وعلم أصحابهم بما فعل معهم فجاؤوا إليه، وهزموه واستلحموا أصحابه، ونجا ابن أبي الساج في فل قليل.

ثم انتقض ابن أبي الساج على خمارويه سنة خمس وسبعين ومائتين وذلك أن إسحاق بن كنداج سار إلى خمارويه بمصر وصار في جملته فانتقض ابن أبي الساج.

وسار خمارويه إليه فلقيه على دمشق في المحرم فانهزم ابن أبي الساج، واستبيح معسكره وكان وضع بحمص خزائنه، فبعث خمارويه عسكراً إلى حمص فمنعوه من دخولها، واستولوا على خزائنه.

ومضى ابن أبي الساج إلى حلب، ثم إلى الرقة وخمارويه في اتباعه.

ثم فارق الرقة إلى الموصل، وعبر خمارويه الفرات واحتل مدينة بلد، وأقام بها، وسار ابن أبي الساج إلى الحديثة.

وبعث خمارويه عساكره وقواده مع إسحاق بن كنداج في طلب ابن أبي الساج فعبر دجلة، وأقام بتكريت وإسحاق في عشرين ألفاً، وابن أبي الساج في ألفين، وأقاموا يترامون في العدوتين.

ثم جمع ابن كنداج السفن ليمد الجسر للعبور، فخالفهم ابن أبي الساج إلى الموصل ونزل بظاهرها فرحلوا في اتباعه فسار لقتالهم فانهزم إسحاق إلى الرقة وتبعه ابن أبي الساج.

وكتب إلى الموفق يستأذنه في عبور الفرات إلى الشام وأعمال خماوريه فأجابه بالتربص وانتظار المدد.

ولما انهزم إسحاق سار إلى خمارويه وبعث معه العسكر، ورجع فنزل على حد الفرات من أرض الشام، وابن أبي الساج قبالته على حدود الرقة، فعبرت طائفة من عسكر ابن كنداج لم يشعروا بهم، وأوقعوا بجمع من عسكر ابن أبي الساج، فلما رأى أن لا مانع لهم من العبور سار إلى الرقة إلى بغداد، وقدم على الموفق سنة ست وسبعين فأقام عنده إلى أن ولاه أذربيجان في سنته واستولى ابن كنداج على ديار ربيعة وديار مضر، وأقام الخطبة فيها لخمارويه.

عود طرسوس إلى ايالة خمارويه

قد كنا قدمنا أن مازيار الخادم ثار بطرسوس سنة سبعين ومائتين وحاصره أحمد بن طولون فامتنع عليه، فلما ولي خمارويه وفرغ من شواغله، أنفذ إلى مازيار سنة سبع وسبعين ومائتين ثلاثين ألف دينار وخمسمائة ثوب وخمسمائة مطرف، واصطنعه فرجع إلى طاعته وخطب له بالثغور.

ثم دخل بالطائفة سنة ثمان وسبعين ومائتين وحاصروا أسكند فأصابه منها حجر منجنيق رثه، ورجع إلى طرسوس فمات بها.

وقام بأمر طرسوس ابن عجيف، وكتب إلى خمارويه فأقره على ولايتها، ثم عزله واستعمل مكانه محمد ابن عمه موسى بن طولون، وكان من خبره أن أباه موسى لما ملك أحمد أخوه مصر تبسط عليه بدلالة القرابة وذوي الأرحام، فلم يحتمله له أحمد ورده عليه، وكسر جاهه فانحرف موسى وسخط دولته.

ثم خاطبه في بعض مجالسه بما لا يحتمله السلطان فضربه ونفاه إلى طرسوس، وبعث إليه بمال يتزوده فأبى من قبوله، وسار إلى العراق، ورجع إلى طرسوس فأقام بها إلى أن مات وترك ابنه محمداً.

وولاه خمارويه وبعث إلى أميرهم راغب فأكرمه خمارويه وأنس به، وطالت إقامته عنده وشاع بطرسوس أن خمارويه حبسه فاستعظم الناس ذلك، وثاروا بأميرهم محمد بن موسى وسجنوه رهينة في راغب.

وبلغ الخبر إلى خمارويه فسرحه إلى طرسوس، فلما وصلها أطلقوا أميرهم محمد بن موسى، وقد سخطهم، فسار عنهم إلى بيت المقدس.

وعاد ابن عجيف إلى ولايته بدعوة خمارويه.

وغزا سنة ثمانين ومائتين بالطائفة ودخل معه بدر الحمامي فظفروا وغنموا ورجعوا.

ثم دخل بالطائفة سنة إحدى وثمانين ومائتين من طرسوس طغج بن جف الفرغاني من قبل خمارويه في عساكره طرابزون

وفتح مكودية.

صهر المعتضد مع خمارويه

ولما ولي المعتضد الخلافة بعث إلى خمارويه خاطباً قطر الندى ابنته، وكانت أكمل نساء عصرها في الجمال والآداب.

وكان متولي خطبتها أمينه الخصي ابن عبد اللّه ابن الجصاص، فزوجه خمارويه بها، وبعثها مع ابن الجصاص، وبعث معها من الهدايا ما لا يوصف.

وقدمت سنة تسع وسبعين ومائتين فدخل بها، وتمتع بجمالها وآدابها، وتمكن سلطانه في مصر والشام والجزيرة إلى أن هلك.

مقتل خمارويه وولاية ابنه جيش

كان خمارويه قد سار سنة اثنتين وثمانين ومائتين إلى دمشق فأقام بها أياماً، وسعى إليه بعض أهل بيته بأن جواريه يتخذون الخصيان يفترشوهن، وأراد استعلام ذلك من بعضهن، فكتب إلى نائبه بمصر أن يقرر بعضهن، فلما وصله الكتاب قرر بعض الجواري وضربهن.

وخاف الخصيان ورجع خمارويه من الشام، وبات في مخدعه فأتاه بعضهم وذبحه على فراشه في ذي الحجة سنة اثنتين وثمانين.

وهرب الذين تولوا ذلك، فاجتمع القواد صبيحة ذلك اليوم، وأجلسوا ابنه جيش بن خمارويه على كرسي سلطانه، وأفيض العطاء فيهم، وسيق الخدم الذين تولوا قتل خمارويه فقتل منهم نيف وعشرون.

مقتل جيش بن خمارويه وولاية أخيه هارون

ولما ولي جيش كان صبياً غراً فعكف على لذاته وقرب الأحداث والسفلة، وتنكر لكبار الدولة، وبسط فيهم القول، وصرح لهم بالوعيد، فأجمعوا على خلعه.

وكان طغج بن جف مولى أبيه من كبار الدولة، وكان عاملا لهم على دمشق فانتقض وخلع طاعته.

وسار آخرون من القواد إلى بغداد، منهم إسحاق بن كنداج وخاقان المفلجي، وبدر بن جف أبو طغج، وقدموا على المعتضد فخلع عليهم، وأقام سائر القواد بمصر على انتقاضهم وقتل قائداً منهم.

ثم وثبوا بجيش فقتلوه ونهبوا داره، ونهبوا مصر وحرقوه، وبايعوا لأخيه هارون وذلك لتسعة أشهر من ولايته.

فتنة طرسوس وانتقاضها

قد تقدم لنا أن راغباً مولى الموفق نزل طرسوس للجهاد فأقام بها، ثم غلب عليها بعد ابن عجيف.

ولما ولي هارون بن خمارويه سنة ثلاث وثمانين ومائتين ترك الدعاء له، ودعا لبدر مولى المعتضد، وقطع طرسوس والثغور من عمالة بني طولون.

ثم بعث هارون بن خمارويه إلى المعتضد أن يقاطعه على أعماله بمصر والشام بأربعمائة ألف وخمسين ألف دينار، ويسلم قنسرين والعواصم، وهي الثغور للمعتضد فأجابه إلى ذلك.

وسار من آمد وكان قد ملكها من يد محمد بن أحمد بن الشيخ، فاستخلف ابنه المكتفي عليها، وسار سنة ست وثمانين ومائتين فتسلم قنسرين والثغور من يد أصحاب هارون وجعلها مع الجزيرة في ولاية ابنه المكتفي.

ولاية طغج بن جف على دمشق

ولما ولي هارون بعد أخيه جيش على ما ولي عليه من اختلاف القواد وقوة أيديهم، خشي أهل الدولة من افتراق الكلمة ففوضوا أمرها إلى أبي جعفر بن إبان.

كان مقدماً عند أحمد وخمارويه فأصلح ما استطاع، وبقي يرتق الفتق ويجبر الصدع، ثم نظر إلى الجند الذين كانوا خالفوا بدمشق مع طغج بن جف فبعث إليهم بدراً الحمامي والحسين بن أحمد المارداني فأصلحا مورد الشام وأفرد طغج بن جف بولاية دمشق، واستعملا في سائر الأعمال، ورجعا إلى مصر والأمور مضطربة والقواد طوائف لا ينقاد منهم أحد إلى أحد إلى أن وقع ما نذكر.

زحف القرامطة إلى دمشق

قد تقدم لنا ابتداء أمر القرامطة وما كان منهم بالعراق والشام، وأن ذكرويه بن مهداويه داعية القرامطة لما هزم بسواد الكوفة وأفنى أصحابه القتل، لحق ببني القليص بن كلب بن وبرة في السماوة فبايعوه، ولقبوه الشيخ وسموه يحيى، وكنوه أبا القاسم.

وزعم أنه محمد بن عبد الله بن المكتوم بن إسماعيل الإمام فلقبوه المدثر، وزعم أنه المشار إليه في القرآن، ولقب غلاماً من أهله المطوق.

وسار من حمص إلى حماة ومعرة النعمان إلى بعلبك، ثم إلى سلمية فقتل جميع من فيها حتى النساء والصبيان والبهائم، ونهب سائر القرى من كل النواحي.

وعجز طغج بن جف وسائر جيشه وصاحبه هارون عن دفاعهم.

وتوجه أهل الشام ومصر إلى المكتفي مستغيثين، فسار إلى أهل الشام سنة تسعين ومائتين ومر بالموصل، وقدم بين يديه أبا الأغر من بني حمدان في عشرة آلاف رجل، ونزل قريباً من حلب وكبسه القرمطي صاحب الشامة فقتل منهم جماعة ونجا أبو الأغر إلى حلب في فل من أصحابه، وحاصره القرمطي، ثم أفرج عنه، وانتهى المكتفي إلى الرقة.

وبعث محمد بن سليمان الكاتب في العساكر، ومعه الحسين من بني حمدان وبنو شيبان، فناهضه في المحرم سنة إحدى وتسعين ومائتين على حماة، وانهزم القرامطة، وأخذ صاحب الشامة أسيراً فبعث به إلى الرقة وبين يديه المدثر والمطوق، وتقدم المكتفي إلى بغداد ولحقه محمد بن سليمان بهم، فأمر المكتفي بضربهم وقطعهم، وضرب أعناقهم وحسم دائهم، حتى ظهر منهم من ظهر بالبحرين.

استيلاء المكتفي على الشام ومصر وقتل هارون وشيبان ابني خمارويه وانقراض دولة بني طولون

ونبدأ أولاً بخبر محمد بن سليمان المتولي بتحويل دولة بني طولون، كان أصله من ديار مضر من الرقة اصطنعه أحمد بن طولون وخدمه في مصر، ثم تنكر له وعامله في جاهه وأقاربه بما أحفظه، وخشي على نفسه فلحق ببغداد، ولقي بها مبرة وتكرمة.

واستخدمه الخلفاء وجعلوه كاتباً للجيش، فما زال يغريهم بملك مصر إلى أن ولي هارون بن خمارويه، وفشلت دولة بني طولون بالشام، وعاث القرامطة في نواحيه وعجز هارون عن مدافعتهم، ووصل صريخ أهل الشام إلى المكتفي فقام لدفع ضررهم عن المسلمين، ودفع محمد بن سليمان لذلك، وهو يومئذ من أعظم قواده، فسار في العساكر في مقدمته.

ثم أمره المكتفي باتباع القرامطة، وأقام بالرقة فسار حتى لقيهم وقاتلهم حتى هزمهم واستلحمهم، ودفع عن الشام ضررهم، ورجع بالقرمطي صاحب الشامة وأصحابه أسرى إلى المكتفي بالرقة فرجع إلى بغداد، وقتلهم هنالك وشفى نفسه ونفس المسلمين منهم.

وكان محمد بن سليمان لما تخلف عن المكتفي عند وصوله إلى بغداد فأمره بالعود، وبعث معه جماعة من القواد، وأمده بالأموال، وبعث دميانة غلام مازيار في الأسطول، وأمره بالمسير إلى سواحل مصر، ودخول نهر النيل، والقطع عن أهل مصر ففعل وضيق عليهم.

وسار محمد بن سليمان والعساكر واستولى على الشام وما وراءه، فلما قارب مصر كاتب القواد يستميلهم، فجاء إليه بدر الحمامي وكان رئيسهم فكسر ذلك من شوكتهم.

وتتابع إليه القواد مستأمنين، فبرز هارون لقتالهم فيمن معه من العساكر، وأقام قبالتهم واضطرب عسكره في بعض الأيام من فتنة وقعت بينهم.

واقتتلوا فركب هارون ليسكنهم فأصابته حربة من بعض المغاربة كان فيها حتفه، فقام عمه شيبان بن أحمد بن طولون بعده بالأمر، وبذل الأموال للجند من غير حسبان ولا تقدير، ثم أباح نهب ما بقي منه يصطنعهم بذلك، فنهبوه في ساعة واحدة، وتشوف إلى جمع المال فعجز عنه واضطرب، وفسد تدبيره، وتسايل إلى محمد بن سليمان جنده، وفاوض أعيان دولته في أمره، فاتفقوا على الاستئمان إلى محمد بن سليمان، فبعث إليه مستأمناً فسار إليه ثم تبعه قواده وأصحابه، فركب محمد إلى مصر واستولى عليها، وقيد بني طولون وحبسهم، وكانوا سبعة عشر رجلاً وكتب بالفتح فأمره المكتفي بإشخاص بني طولون جميعاً من مصر والشام إلى بغداد، فبعث بهم.

ثم أمر بإحراق القطائع التي بناها أحمد بن طولون على شرقي مصر، وكانت ميلاً في ميل فأحرقت ونهب الفسطاط.

ولاية عيسى النوشزي على مصر وثورة الخليجي

ولما اعتزم محمد بن سليمان على الرجوع إلى بغداد وكان المكتفي قد ولاه على مصر، فولى المكتفي عيسى بن محمد النوشزي، وقدم في منتصف سنة اثنتين وتسعين ومائتين ثم ثار